المشروع القومى للترجمة

چى. إم. بلاوت

نموذج المستعمر للعالم (٢)

ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية



ترجمة: هبة الشايب
مراجعة: فيصل يونس

المركز القومى للترجمة

1626

يتناول هذا الكتاب بالدرس والنقد أعمال ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية، الذين شكلوا أسلوب فهم كثير من الباحثين لماهية التاريخ، وتأسيسا على ما جاء فى كتابه السابق "نموذج المستعمر للعالم" يطرح المؤلف هنا للنقاش أفكار كل من: ماكس فيبر ولين وايت الابن وروبرت برينر وإيريك إل. جونز ومايكل مان وجون إيه هال وجاريد دايموند وديفيد لاندز، كما يصف دور كل منهم فى إنتاج الفهم الكولونيالى للتاريخ والافتراضات الزائفة التى أسسوا عليها أطروحاتهم.

هذا الكتاب يقدم رؤية ثاقبة تساعد على إنتاج فهم بديل لأصول الحداثة ونشأتها، وهو مرجع لا غنى عنه لكل باحث فى التاريخ والجغرافيا السياسية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ودراسات ما بعد الاستعمار.

تفصيلة من لوحة للفنان: أحمد نوار
تصميم الغلاف: هند سمير

نموذج المستعمر للعالم (ج ٢)

ثمانية من مؤرخي المركزية الأوروبية

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1626
- نموذج المستعمر للعالم (ج٢): ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية
- جى. إم. بلاوت
- هبة الشايب
- فيصل يونس
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Eight Eurocentric Historians

By: J. M. Blaut

Published by arrangement with the Guilford Press

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

نموذج المستعمر للعالم - جـ٢ -

ثمانية من مؤرخى

المركزية الأوروبية

تأليف: چى. إم. بلاوت

ترجمة: هبة الشايب

مراجعة: فيصل يونس

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلاوت؛ چى. إم.
نموذج المستعمر للعالم (ج٢): ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية؛
تأليف: چى. إم. بلاوت؛ ترجمة: هبة الشايب؛ مراجعة: فيصل يونس
٢٩٢ ص؛ ٢٤ سم؛ ط١
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ط١، ٢٠١٠
١- الاستعمار الأوروبى
(أ) الشايب، هبة (مترجم)
(ب) يونس، فيصل (مراجع)
(جـ) العنوان ٣٢٥.٣٤٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٣٦٣٨
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 143 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتـــويات

إهــــداء

إلى ميكا وجيني

تقــديم

هذا هو الجزء الثانى من العمل المتعدد الأجزاء بعنوان "نموذج المستعمر للعالم"، والمشروع فى جملته يعد نقدًا لنظرية المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم والجغرافيا التاريخية، أحاول فيه أن أعرض لفكرة أن فهمنا للتاريخ الإنسانى لن يتطور إلا بعد أن ننتقى ونتخلى عن النظريات والمجادلات التى تعطى أوروبا، خطأ، حق الامتياز والأولوية فوق من عداها من شعوب، كما أحاول أن أوضح أن ثمة سبب تاريخى ثقافى منظم يجعلنا نتمسك بهذه المبادئ الخاطئة التى تنتمى إلى نموذج عالمى أسميه "انتشار المركزية الأوروبية": تقوم الفرضية الأساسية على أن التطور دائم وطبيعى فقط فى الجزء الأوروبى من العالم، أما وجوده فى مناطق أخرى فما هو إلا نتيجة انتشار الأفكار الإبداعية الأوروبية، وأجادل أن هذا النموذج اكتسب مشروعيته وقوته من الاستعمار الأوروبى الذى أكد تفوق الأوروبيين على غيرهم.

أول جزء فى هذه السلسلة: "نموذج المستعمر للعالم: الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية" اختبر طبيعة وتطور انتشار المركزية الأوروبية، كما ناقش المبادئ الخاصة بتفوق العقل والثقافة والبيئة الأوروبية، كما رسم الخطوط الأولى لنظرية تحاول أن تفسر نهضة أوروبا بعيدًا عن فكرة المركزية الأوروبية. أما الجزء الحالى فله طبيعة مختلفة ولكنها مكملة لما سبقها، حيث يحاول أن يختبر ويدحض ثمانى نظريات متميزة لفكرة المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم لما لها من أهمية وتأثير فى الفكر الاجتماعى المعاصر. ويقدم الجزء الثالث نموذجًا تاريخيًا بعيدًا عن المركزية الأوروبية منذ أواخر العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر، كما سيناقش عددًا من الموضوعات النظرية

فى نقده لتاريخ المركزية الأوروبية، من بين هذه الموضوعات: المركزية الأوروبية الماركسية، ونظرية البيئة الأوروبية ونظرية مالثوس(*) Malthusianism.

ساهم الكثير من الناس بطرق هامة فى كتابة هذا الكتاب وفى تطوير الأفكار التى يطرحها (الجيد منها لا السيئ). ويلبر زيلنسكى Wilbur Zelinsky وهو واحد من أهم الجغرافيين التاريخيين فى عصرنا كما أنه صديق مقرب، ساعد فى ولادة هذا الكتاب؛ فبعد اطلاعه على مسودة الجزء الأول قال لى: چيم لن تستطيع إقناع المجتمع الأكاديمى ببطلان أكثر المبادئ التى يحافظون عليها بأن تدحض هذه المبادئ فقط، بل يجب عليك أن ترد على مناقشات ومجادلات أكثر المؤرخين تأثيراً فى المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم، وهذا هو ما أحاول أن أقوم به فى هذا الجزء. ولقد حصلت على المساعدة والنصح من قبل بعض الزملاء والأصدقاء: چانيت أبو لغد Janet Abu-Lughod ورايموند برود Raymond Brod وأندريه جندر فرانك Andre Gunder Frank وخوسيه لوبيز Jose Lopez وكنت ماثيوسن Kent Mathewson ولويس برويكت Louis Proyect وأنسليم ريمى Anselme Remy وديفيد شتى David Stea وبيتر تيلر Peter Taylor وبن ويزنر Ben Wisner فهم كثر لدرجة تستعصى على الحصر، وأهمهم زوجتى ومستشارى الأول أميريكا سورينتينى دو بلاوت America Sorrentini de Blaut، كما ساعد بيتر ويسوكر Peter Wissoker من دار نشر جيلفورد بأساليب عديدة فكرية وتنقيحية. ولأن هذا الكتاب يكمل المجادلة التى بدأت فى الجزء الأول من هذه السلسلة فقد اضطررت للرجوع فى عدة أماكن إلى نص الجزء الأول معيداً صياغة عدد من الفقرات مع الإشارة فى عديد من الهوامش إلى الجزء الأول.

(*) تنسب هذه النظرية إلى مالثوس، وتتلخص فى أن الفقر المدقع ومعدلات الوفاة ينتجان عن عدم التوازن بين عدد السكان والموارد المتوفرة، ويستخدم هذا المصطلح من قبل بعض المنظرين المحافظين للإشارة إلى العالم الثالث اليوم. (المترجمة)

الفصل الأول

تاريخ المركزية الأوروبية

هناك فى اعتقادى أربعة أنواع لنظرية المركزية الأوروبية التى تم تطويرها لتشرح حقيقة كيف أن أوروبا (أو الغرب) أصبح أغنى وأكثر قوة من كل المجتمعات الأخرى.

١- **الدين:** الأوروبيون (المسيحيون) يؤمنون بالإله الحق وهو يرشدهم للأمام على مر التاريخ.

٢- **العرق:** يتمتع الجنس الأبيض بتفوق وراثى على الأجناس الأخرى.

٣- **البيئة:** بيئة أوروبا الطبيعية تفوق غيرها.

٤- **الثقافة:** قام الأوروبيون من قديم الأزل باختراع ثقافة متفردة فى تطورها وابتكارها.

وقد استخدمت هذه التفسيرات فى تنويعات مختلفة، ففى بداية القرن التاسع عشر كان المبدأ الدينى هو السائد، لكن التاريخيين لم يترددوا فى استحضار المبادئ الخاصة بالعرق والبيئة والثقافة باعتبارها أدوات الله. بعد ذلك فقدت الشروح الدينية شهرتها وأصبح يرجع تميز أوروبا إلى العرق والثقافة والبيئة. أما الآن وقد رُفضت العنصرية، نرى تاريخ المركزية الأوروبية مستنداً على قدمين هما: البيئة والثقافة. لقد أُخبرنا بأن أوروبا نهضت وهزمت العالم لتميز بيئتها وثقافتها، وهما العاملان اللذان طورا أوروبا بشكل أسرع وأكبر من أى مجتمع آخر.

وأنا أجادل أن كل هذا خطأ: إنه تاريخ مزيف وجغرافيا سيئة. إن البيئة الأوروبية ليست أفضل من غيرها فى أماكن أخرى فهى ليست أكثر إثمارًا ولا أكثر راحة كما أنها ليست أكثر ملاءمة للاتصالات والتجارة. كما أن ثقافة أوروبا لم تمتلك تاريخيًا صفات التميز التى يمكن أن تقودها إلى التطور السريع أكثر من المجتمعات الأخرى. وهذه الصفات هى: صفات فردية مثل الإبداع والابتكار والطموح والسلوك الأخلاقى... إلخ، وصفات جماعية مثل الأسرة والسوق والمدينة. إن نهضة أوروبا لا يمكن تفسيرها باستخدام منهج المركزية الأوروبية.

أعتقد أن نهضة أوروبا وتفوقها على حضارات أخرى من حيث القوة والثروة لم يبدأ حتى عام ١٤٩٢، ولم يكن ذلك ناتجًا عن صفات داخلية فريدة موجودة مسبقًا، ولكن بسبب موقع أوروبا على الكرة الأرضية. لقد كان لأوروبا اتصال على نطاق واسع بخيرات العالم الجديد أكثر من أى حضارة أخرى قديمة فى العالم.

قُدمت هذه المناقشة فى الجزء السابق لهذا الكتاب نموذج المستعمر للعالم: الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية، وسوف ألخص هذه المناقشة فى جزء لاحق من هذا الفصل[١]. ومع هذا فيجب الحديث قليلاً عن هذا الموضوع على سبيل التقديم له. لهذه النظرية جزءان، وما يهتم به الكتاب الحالى هو الجزء الأول. فهناك المجادلة القائلة بأنه قبيل ١٥٠٠ كانت أوروبا على قدم المساواة مع العديد من الحضارات الأخرى من حيث التقدم الاقتصادى والتكنولوچى، وهنا أقف ضد الغالبية العظمى من المؤرخين التقليديين. فهم يختلفون فيما بينهم على تفسير نهضة الغرب فيما بعد ١٥٠٠ ومعظمهم تقريبًا يتفقون على أن التفسير يوجد فى أوروبا ما قبل ١٥٠٠ وبالتحديد فى بيئتها المتميزة أو فى ثقافتها المتطورة وعادة ما يكون فى كليهما معًا. قُدمت كل المناقشات الهامة التى تدعم فكرة تفرد أوروبا من خلال المؤرخين الثمانية الذين سنناقشهم فى هذا الجزء. أما النظرية الأخرى فهى محاولة لشرح نهضة أوروبا بعد ١٥٠٠ من غير الرجوع إلى النظرية القائلة بتفرد أوروبا. أنا أعتقد أن هذه العملية يمكن تفسيرها فى ضوء الحقيقة الأساسية: وهى أن أوروبا حصلت على خيرات لا حصر لها من الأمريكتين بعد ١٤٩٢، وأدى هذا إلى إكتساب طبقة الرأسمالية التجارية وحلفائها القوة السياسية،

وهو ما أدى بطرق عديدة، مباشرة وغير مباشرة، إلى لفت نظر أوروبا إلى بقية العالم وبالتالى إلى تحول الاقتصاد والمجتمع الأوروبى. هنا نصف الكرة الأرضية: الأمريكتان الشمالية والجنوبية ستة أضعاف مساحة أوروبا وتقريبًا خالية من السكان بسبب استقدام أمراض العالم القديم إليها فى القرن السادس عشر، كما أن لها قنوات اتصال بأوروبا أكثر من أى حضارة أخرى. نوقشت هذه النظرية فى الجزء الأول وسوف توضح بشكل أوسع فى الجزء الثالث، ولكن سيقال عنها القليل فى هذا الجزء الذى يسعى إلى دحض المجادلات الداعية إلى تفرد أوروبا فى المرحلة قبل المعاصرة ونفعل هذا بطريقة جديدة أتمنى أن تكون مفيدة[٢].

إن تاريخ المركزية الأوروبية العالمى ليس مجرد نظرية: فهو تركيبة معقدة من المعتقدات، نموذج للعالم مكون من حقائق لاحصر لها ونظريات تفسيرية. هذه النظريات مرتبطة ببعضها بطريقة غير متماسكة وغير كاملة مكونة شبكة من المجادلات. بعض المجادلات مثبتة بأدلة جيدة وبعضها بأدلة ضعيفة وبعضها لا يوجد له دليل على الإطلاق (وغالبًا ما تكون خرافات شعبية موروثة). بعض المجادلات مثبتة بغيرها وبعضها غير ذلك. أما المجادلات الأقوى تأسيسًا فهى الروايات المكتوبة والمقدمة من قِبل مؤرخين أفراد وهم من سنلقى الضوء عليهم فى هذا الجزء.

عندما يكتب أكاديمى عن تاريخ العالم أو عن جزء فيه فإنه يريد أن يربط الحقائق المختلفة والنظريات حتى تُكون مجادلة مترابطة ومقنعة. أما الرواية لو كانت مركزية أوروبية فنجدها مكونة من عدد من المجادلات المتباينة: تميز أو تفوق أوروبا فى كل شىء من المناخ والطبوغرافيا، والديموغرافيا والتكنولوچيا والدولة والأسرة والعقلية. مهمتى فى هذا الكتاب هى النظر إلى هذه الروايات الموضوعة من قبل ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية المهمين.

إن عملاً يختبر بطريقة تتابعية كتابات الأكاديميين الثمانية وآراءهم فى المركزية الأوروبية حتمًا سيتضمن عددًا من النقاط المكررة حيث إن هؤلاء المؤرخين يعتمدون على المجادلات نفسها، إن هذه النقاط المشتركة هى التعميمات الأساسية فى هذه

المدرسة كما سنجد فى الفصل الختامى. ولكن المؤرخين الثمانية يقدمون أشكالاً وتنويعات مختلفة لهذه المجادلات المشتركة والنظريات (نظرية مالثوس، الاستبداد الشرقى و"العقلانية" الأوروبية على سبيل المثال)، ويستدعى هذا إجابات واستشهادات مختلفة فى كل حالة. لذا سأضطر إلى التعامل مع التركيبات نفسها أكثر من مرة مع الحد من اللجوء للتكرار، وغالبًا ما سيتم تجنبه بالإشارة إلى مناقشات سابقة.

انتشار المركزية الأوروبية

يبنى هذا الكتاب على المجادلات فى الجزء الأول وربما يكون من المفيد للقارئ أن أراجع بإيجاز اثنتين من تلك المجادلات الرئيسية المقدمة فى العمل السابق: طبيعة وتاريخ النموذج العالمى الذى يمكن أن يسمى بانتشار المركزية الأوروبية وهيكل نظرية اللامركزية الأوروبية التى تتعلق بالاستعمار ونهضة أوروبا. اتفق على مصطلح المركزية الأوروبية حديثًا للإشارة إلى نوع فرعى من العنصرية المركزية. إن هذه الكلمة فى استعمالها الواسع تعنى التفكير أو الفعل الحديث المرتكز على مجتمع أو عرق بعينه ويزعم خطأ بامتياز صفات هذا العرق أو الجنس على المجتمعات فى باقى العالم. فأنا أستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى المزاعم الخاطئة من قبل الأوروبيين بأن مجتمعهم وإقليمهم هو الأكثر تميزًا من أى مجتمعات أو أقاليم أخرى سواء فى الوقت الماضى أو الحاضر أو حتى فى المستقبل[٢]. إن الكلمة المهمة هنا هى "خطأ". إنه ليس من المركزية الأوروبية أن تفضل الموسيقى الأوروبية على ما عداها والمطبخ الأوروبى على غيره. أما المركزية الأوروبية فهى الاعتقاد بأن الأوروبيين أكثر إبداعًا وابتكارًا وتطورًا ونبلاً وشجاعة من أى مجموعة أخرى من الناس، أو أن أوروبا كمكان لديها بيئة أكثر صحية وإنتاجًا وتحفيزًا من أى مكان آخر. إنه ليس من المركزية الأوروبية بأن نمجد أرض إنجلترا الخضراء الرائعة ولكن المركزية الأوروبية هى الزعم بأن هذه الأرض هى أكثر خضرة وروعة من أى أراض أخرى فى العالم.

وجدت المركزية الأوروبية منذ أوائل العصور الوسطى عندما بدأت أوروبا، كمكان، تتخذ شكلاً في عقول قاطنيها. عادة ما كان يعتقد أن هذا مجتمع نصراني وليس أوروبا فقط. كان الاعتقاد السائد بأن النصرانية هي أكثر تميزاً من أي مجتمع آخر وذلك لأن المسيحيين عبدوا الله الحق، ولذا فهم ومجتمعهم وإقليمهم على الأرض يجب أن يحظوا بحماية الرب. لقد أدرك مسيحيو العصور الوسطى أن حضارتهم لم تكن أكثر تميزاً من حيث الغنى والتكنولوجيا من جيرانهم المسلمين في الجنوب والشرق. كان الأوروبيون- المسيحيون- أكثر تميزاً من غيرهم عن طريق وسيلة هامة جداً وهي الأمل العظيم في الدخول إلى الجنة.

بدأت المركزية الأوروبية الحديثة في عام ١٤٩٢. عندما عاد كولومبس من رحلته الأولى إلى أميركا وصف الناس هناك بأنهم وثنيون همج وكان يعتقد أن من السهل هزيمتهم، بالإضافة إلى أن غزو تلك البلاد كان سيزودهم بالذهب والثروة. وقد غدا جلياً أن الأوروبيين أكثر تفوقاً من الأمريكيين وسيستفيدون من هذا التفوق. وقد حدث هذا الغزو بالفعل وبسرعة كبيرة (بسبب القضاء على معظم سكان أميركا بسبب تعرضهم لأمراض النصف الشرقي من الكرة الأرضية)، وكانت المكاسب هائلة. وأصبح في مقدور الأوروبيين الآن لأول مرة وعلى نطاق واسع أن يميزوا بين أنفسهم وغيرهم باعتبارهم أكثر تفوقاً. المركزية الأوروبية التي ظهرت في القرن السادس عشر كانت لها صفات أساسية: التفوق الذي عضده النجاح الاستعماري والمكاسب العظيمة المترتبة عليه.

أثبت الاستعمار نجاحه في القرون اللاحقة عندما تمكن الأوروبيون من غزو وحكم ليس الأمريكتين فحسب بل معظم آسيا وأفريقيا. استمرت مجهودات الأوروبيين في تلك القارات في جلب الفوائد الكبيرة، ولذا تأكدت المعتقدات المركزية الأوروبية باعتبارها صحيحة ومفيدة وبذلك تبلور نموذج المركزية الأوروبية للعالم في العصور الحديثة. عندما تم تطوير هذا النموذج في القرن التاسع عشر أصبح يقوم على مفهوم تاريخي وجغرافي للعالم كله، كما أصبح المرآة التي يرى من خلالها الأوروبيون أنفسهم وماضيهم.

للمركزية الأوروبية جغرافيا كما أن لها تاريخ. فالجغرافيا على نطاق واسع هى انتشار المركزية الأوروبية. تخيل مساحة من الأرض تقع عليها مجتمعات منفصلة ومختلفة، ولو اختُرع شيءٌ جديد لنقل أداة أو أسلوب فنى فى أى من هذه المجتمعات فلسوف تجد هذا الاختراع لاحقًا فى مجتمع آخر فى موقع آخر. قد يكون هذا الاختراع قد انتشر من المجتمع الأول إلى الثانى أو قد يكون المجتمع الثانى قد اخترع هذا الاختراع الجديد بنفسه. تسمى هاتان الحالتان الانتشار والاختراع المستقل. لدى كثير من الأكاديميين اتجاه يؤمن بأن معظم الناس فى معظم المجتمعات مقلدون وليسوا مخترعين، وعند ظهور حالة كهذه باختراع شىء جديد فى مجتمع ثانٍ قريبًا كان أو بعيدًا فإنهم يتجهون إلى افتراض أن هذه حالة انتشار وليست اختراعًا مستقلاً، وذلك لأن الناس فى معظمهم غير مخترعين، حيث إن الاختراع المستقل أكثر ندرة من الانتشار. وتقليديًا يُسمى هؤلاء الأكاديميون "أصحاب نظرية الانتشار". وقد نشب نوعٌ من الحرب الأكاديمية فى مجال العلوم الاجتماعية الأوروبية التى استمرت أكثر من قرن بين "أصحاب نظرية الانتشار" و"أصحاب نظرية الاختراع المستقل" (الذين قد يُطلق عليهم "التطوريون").

ويمكن حدوث الانتشار على أى نطاق، فقد يعكس انتشار شىء من فرد لآخر أو مجتمع لآخر (كما فى المثال السابق)، وقد يحدث على نطاق العالم الواسع. ويتجه أصحاب نظرية الانتشار عادة (وليس دائمًا) إلى تفسير التغير الثقافى فى ضوء الانتشار وليس الاختراع على كل هذه الأصعدة. يمكن أن نطلق على كثير من الأكاديميين فى الماضى والبعض فى الوقت الحاضر "أصحاب نظرية الانتشار المتطرفين" لزعمهم أن الثقافة بدأت فى مكان واحد على الأرض ثم انتشرت بعد ذلك إلى باقى أنحاء العالم، والمركز الرئيسى الذى كان بداية الانتشار كان دائمًا "أوروبا العظمى". أستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى قارة أوروبا، وكذلك (فى العصور القديمة فقط) للإشارة إلى مزاعم الأوروبيين الثقافية و"أرض الإنجيل" وللإشارة (فى العصور الحديثة فقط) إلى الأقاليم الأنجلوأمريكية المستوطنة من قبل أوروبا. كان الأكاديميون الغربيون إلى فترة قريبة يعتقدون أن كل التطورات المهمة منذ العصور القديمة حدثت فى مكان

ما فى أوروبا العظمى. فى الحقل الأكاديمى الأوروبى كان هناك اعتقاد بأن أوروبا العظمى تخترع وتبتكر وتتطور، بينما يبقى باقى العالم ثابتًا غير متغير أو قد يكون (مثل الصين) التى تتطور بإيقاع بطيء غير منتظم. كل الاختراعات والابتكارات التاريخية الهامة كان يُعتقد أنها ظهرت أولاً فى أوروبا العظمى التى اخترعت الزراعة والتعدين والمدن والدول والطبقات الاجتماعية والديمقراطية والعلوم ومعظم الفنون الجميلة وغيرها الكثير.

إن هذا النموذج ليس بالضرورة قائمًا على مبدأ الانتشار حيث إن معظم الأكاديميين (من غير أصحاب نظرية الانتشار المتطرفين) كانوا على دراية بأنه لم يكن لأوروبا تأثير ملحوظ على العالم قبل عام ١٤٩٢. إن جوهر النموذج هو خريطة للعالم وبها إقليمان مهمان: أوروبا وهى "المركز"، وكانت دائمًا متطورة ومتفوقة، والجزء الآخر هو غير الأوروبى أو "الفرع" وكان دائمًا متخلفًا. ولأن دور الجزء الفرعى كان هامشيًا فى عملية التطور الاجتماعى اتجه المؤرخون الأوروبيون إلى وصف وتفسير تاريخ العالم وتاريخ أوروبا بنوع من الاختزال يسمى المنظور النفقى الذى يمكن أن نطلق عليه "التاريخ النفقى". لتفسير أى حقيقة أو حدث أو عملية فإن المؤرخ ينظر فقط إلى الحقائق والأحداث والعمليات السابقة فى أوروبا نفسها متجاهلاً باقى العالم. كأنهم كانوا ينظرون من خلال نفق للزمن جدرانه هى حدود أوروبا العظمى، وكل ما هو خارج حدود هذه الجدران فهو متحجر وتقليدى بالضرورة.

عند دراسة الحقبة الحديثة نجد أن تاريخ النفق قد اندمج مع نظرية الانتشار، وما يزال تاريخ أوروبا هو التاريخ النفقى. وعند مناقشة العصر الحديث فيما بعد عام ١٤٩٢ نجد الأكاديميين الأوروبيين يجادلون بأن التطور منذ القرن السادس عشر فى المناطق غير الأوروبية ليس سوى انتشار نابع من أوروبا عن طرق آلية الاستعمار. فلدينا الآن نموذج قائم على قطبين فى العالم: المركز والفرع، ويرى انتشارًا نابعًا من المركز باتجاه الفرع. هذا الانتشار يحتوى على ثمرات الاختراع والابتكار، والتطور الأوروبى ويصاحبه انتشار مضاد إلى أوروبا فى صورة الثراء الاستعمارى. هذا هو

النموذج الكلاسيكي المطور لنظرية انتشار المركزية الأوروبية، النموذج الذى هيمن على الحقل الأكاديمى الأوروبى حتى القرن العشرين.

تأسست نظرية انتشار المركزية الأوروبية على خمس فرضيات:

١- التطور الثقافى التقدمى فى أوروبا العظمى نابع من ذاتها ومن اعتمادها على نفسها، ولذا فهو طبيعى ودائم.

٢- نتج التطور التقدمى فى أوروبا العظمى أساسًا من قوة أو عامل عقلى أو روحى وهو "عقلانية" أوروبا (الابتكار والاختراع والحكم الأخلاقى وهكذا) وهو المصدر الأساسى لتقدم أوروبا فى التكنولوجيا والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العلوم والفن والدين. إن صفة التفوق العقلانى تعكس تفوقًا عنصريًا أو تفوق ثقافة نبعت فى العصور القديمة أو عصور ما قبل النهضة أو تفوق بيئة أوروبا الطبيعية.

٣- المناطق غير الأوروبية لا تتغير بسبب دوافع داخلية ولكنها تتغير نتيجة انتشار الابتكارات القادمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من القطاع الأوروبى.

٤- إن الشكل الأساسى للتفاعل بين أوروبا وغيرها هو انتشار الابتكارات (الأفكار والأشياء والمستوطنين، أى الحضارة) من أوروبا لغيرها.

٥- ونتيجة طبيعية لهذا الانتشار الخارجى يكون هناك التدفق الراجع، الانتشار العكسى من المناطق غير الأوروبية إلى أوروبا، هذا الانتشار الذى يتخذ صورة الثروة فى أشكال المعادن الثمينة وغير الثمينة والمنتجات الزراعية والأعمال الفنية، وأشياء أخرى قيمة كجزء من رد الدّين للحضارة الأوروبية(٤).

كان انتشار المركزية الأوروبية الكلاسيكية، النموذج الفكرى المرتبط بفترة كان فيها الانتشار سريعًا ومزدهرًا، على وجه الخصوص فترة ازدهار الاستعمار والحكم الاستعمارى الذى بدا مستديمًا أو على الأقل حالة طويلة الأمد. كانت فترة عرف فيها الأوروبيون القليل عن تاريخ الأقاليم غير الأوروبية، ومعظم ما عرفوه جاء عن طريق كُتاب كانوا على صلة وثيقة بعملية الانتشار. مبشرون وإداريون استعماريون فى الوطن

وخارجه ومسافرون أغنياء، ومن شابههم والذين (معظمهم وليس كلهم) لم يكونوا يتوقعون أن يجدوا فى ماضى الشعوب المستعمَرة أى إشارة إلى التقدم. انتهت هذه الحقبة على فترات فى القرن العشرين؛ كانت هناك صدمة للقوة الأوروبية والنظرة إلى الذات بسبب الحربين العالميتين الأولى والثانية والكساد الاقتصادى الكبير؛ ولاحقًا بعد ١٩٤٥ كانت الحركات المناهضة للاستعمار. مع هذا لم تنته موجة انتشار المركزية الأوروبية الكلاسيكية ولكنها تحولت إلى انتشار المركزية الأوروبية الحديثة. نتج هذا التحول عن تغيرات جذرية فى المجتمع والحقل الأكاديميين. لقد تم شرح هذه الأفكار فى الجزء الأول وهنا سأقوم بمناقشة نتيجة واحدة فقط وهى التاريخ الجغرافى للمركزية الأوروبية المعاصرة، وهو هدفنا الأساسى فى هذا الجزء(٥).

بدأ نقد نظرية انتشار المركزية الأوروبية تقريبًا فى ثلاثينيات القرن العشرين فى أعمال بعض المؤرخين من أوروبا والعالم الاستعمارى(٦). بعد ١٩٤٥ كانت هناك زيادة مطردة فى المجال البحثى من قبل مؤرخين أوروبيين وغير أوروبيين فى تاريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكان للأدلة الجديدة (وتغيير وجهة النظر)، الأثر فى فض المفهوم القديم القائل بأن المناطق غير الأوروبية راكدة و"غير تاريخية" أى لم يكن لها دور تاريخى (طبقًا لمصطلح هيجل القديم) حتى قدوم الأوروبيين. ولكن بقيت العقيدة الأساسية مجردة من العنصرية والتحيز الاستعمارى: لم تتقدم المناطق غير الأوروبية بنفس القدر الذى تقدمت به أوروبا بالرغم من أن بعض الأقاليم (مثل الصين) كانت متقدمة فى بعض الفترات. تم تعديل نظرية التاريخ النفقى. لقد وصلت إلى أوروبا انتشارات هامة من مناطق غير أوروبية ومع هذا فإن أسبقية أوروبا العظمى فى التحولات الكثيرة مثل (المدنية والتكنولوجيا الصناعية والديمقراطية... إلخ)، بقيت كما هى لم تمس، وتم استبدال الشكل القديم من التاريخ النفقى بشكل جديد، إنه أسلوب مماثل لفكرة التاريخ المقارن حيث يفترض النظر إلى التاريخ الأوروبى والتاريخ غير الأوروبى ولكن ما يحدث فى الحقيقة هو وضع الأفكار السلبية (المتحيزة غالبًا) عن التاريخ غير الأوروبى جنبًا إلى جنب مع الأفكار الإيجابية عن التاريخ الأوروبى. كما رُفضت الفرضية الخاصة بانتشار الثراء المضاد من المناطق غير الأوروبية إلى أوروبا،

حيث يجادل باحثو المركزية بأن انتشار الثروة خلال الفترة الاستعمارية وما بعدها جاء من أوروبا إلى غيرها من المناطق. وطبقًا لهذا المنظور فإن التطور الاستعمارى، وبرامج المساعدات الدولية و"العولمة" تنشر مواردها فى العالم غير الأوروبى الغارق فى الفقر إلى أن جاء الأوروبيون ومعهم الحداثة والتطور.

هذه هى نظرية انتشار المركزية الأوروبية فى صورتها المعاصرة. وقد تعرضت إلى نقد قوى خلال العقود الاثنين أو الثلاثة الماضية عن طريق بعض الباحثين الذين يحاولون إعادة تشكيل تاريخ العالم بطريقة اللامركزية الأوروبية(٧). هذا الكتاب يكمل هذا النقد.

نهضة أوروبا

الجزء الخاص من نموذج انتشار المركزية الأوروبية الذى قاوم التغيير هو نظرية نهضة أوروبا، فما زال معظم المؤرخين يعتنقون فكرة أن هذه العملية ذاتية، وأنها كانت نتيجة التقدم الثقافى الفريد للأوروبيين وعلى وجه الخصوص عقلانيتهم، وأن بيئة أوروبا الفريدة المثمرة تعد جزءًا من عملية نهضة أوروبا وانتصارها.

لقد قدمت فى الجزء الأول نموذجًا لتاريخ العالم الأوروبى وغير الأوروبى منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن السابع عشر، لكى أثبت أن نهضة وانتصار أوروبا لم يكونا نتيجة أى تفوق حقيقى أو متوقع فى أوروبا على غيرها من الحضارات الأخرى ولكنه نتج عن الثروة الهائلة التى تدفقت على أوروبا من النصف الغربى من العالم ولاحقًا من الأقاليم المستعمَرة الأخرى. وما يلى تلخيص موجز لهذه النظرية التاريخية. من الجلىّ أن التلخيص يعرض الفرضيات والمجادلات والأدلة التى عُرضت فى الجزء الأول ولكن لن يتم تكرارها هنا بالرغم من أن كثيرًا من هذه المجادلات وبعض الأدلة سوف يظهر فى فصول لاحقة عندما أفنِّد المزاعم الخاطئة للمركزية الأوروبية.

أبدأ مجادلتي بمناقشة كيف أن الحضارة الأوروبية وغيرها من الحضارات في النصف الشرقي من الكرة الأرضية تطورت بنفس المعدل تقريباً، ووصلت إلى مستويات مماثلة في التطور الاقتصادي والتكنولوجي في فترة ما قبل ١٥٠٠ قبل الميلاد. كان المجتمع القروي الأوروبي مشابهاً للمجتمعات القروية في الهند والصين وغيرها من الأقاليم الأخرى، حيث كانت كلها أنظمة اجتماعية قائمة على العلاقة بين الفلاح وصاحب الأرض. زراعة الفلاح كانت هي قلب الاقتصاد مقارنة بالتجارة وإنتاجية القوة العاملة في مناطق عديدة. كانت العبودية مهمة في بعض الأقاليم، وفي غيرها كان للمزارعين المستأجرين بعض الحرية في ظل حكم صاحب الأرض، ولم تكن أوروبا الإقليم الوحيد الذي هيمنت فيه العبودية على المجتمع القروي خلال معظم العصور الوسطى. ولم تكن عزب أو إقطاعيات أوروبا مختلفة عن مثيلاتها في الأقاليم الأخرى. وكما جادل ماكس ڤيبر فإن إقطاعيات أوروبا لم تكن أقرب للملكية الخاصة الحقة أكثر من كثير من الأقاليم الأخرى في الكرة الأرضية.

إن مستويات التحضر المميزة لأوروبا كانت أيضاً مميزة لغيرها من الحضارات في القرن الخامس عشر، فمدن أوروبا القائمة على التجارة البحرية كانت لها مثيلاتها على سواحل المحيط الهندي والمحيط الهادي الغربي، وكانت المؤسسات التجارية مثل البنوك والمحاسبات البنكية على نفس درجة الرقي في المدن التجارية الأوروبية وغيرها. وفي القرن الخامس عشر كانت مراكز التجارة البحرية الأوروبية على نفس مستوى التطور الذي كانت عليه الكثير من المراكز الأخرى، حيث انخرطوا في تجارة بعيدة في المحيط وسعى الكثيرون إلى توسيع هذه التجارة وكانت الاستكشافات في المحيط الهندي، والهادي والأطلنطي جزءاً من هذه العملية. كما أن التكنولوجيا في مجال الزراعة والتصنيع والهندسة المدنية وغيرها من المجالات الأخرى لم تكن أكثر تطوراً في أوروبا منها في الصين أو أي حضارة عظيمة أخرى[٨]. العقول الأوروبية لم تكن أكثر عقلانية من العقول التي تقطن المناطق الأخرى. كانت هناك بالفعل اختلافات عميقة بين تلك الحضارات المتنوعة في مناحٍ ثقافية كثيرة مثل الدين، ولكن هذه الاختلافات لم تتحول إلى فروق في المستوى أو معدل تطور الأبعاد الإيكولوجية للثقافة وبخاصة التكنولوجيا والاقتصاد[٩].

وإذا قبلنا فكرة أن أوروبا فى ١٥٠٠ لم تكن أكثر تطوراً أو تقدماً من أقاليم أخرى عديدة، فكيف يتسنى لنا أن نفسر حقيقة أن أوروبا بدأت بعد ١٥٠٠ فى التطور بصورة أسرع من باقى الكرة الأرضية مما أهلها للهيمنة على العالم، ومن ثم تشهد الثورة الصناعية وبمعنى أشمل "تنهض". إن جوابى عن هذا السؤال هو أن الثروة الهائلة التى لا تعد ولا تحصى التى حصلت عليها أوروبا من مغامراتها الاستعمارية، من معادن ثمينة ومنتجات زراعية وتبادل غير متكافئ، أوجدت طبقة معنية بالتطور وهم التجار والصناع وأصحاب الأملاك الذين استثمروا أموالهم فى الزراعة والتجارة وأتاح لهم هذا الاستثمار بالإضافة إلى القوة السياسية أن ينتزعوا السيطرة على مجتمعاتهم من الطبقة الحاكمة الإقطاعية وحلفائها. وبسرعه بدأ الأوروبيون امتلاك كميات هائلة من الذهب والفضة. على سبيل المثال منذ عام ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠ كان ٨٥٪ من الفضة فى العالم و٧٠٪ من الذهب يجىء من الأمريكتين[١٠]. امتلك الأوروبيون مساحات كبيرة من الأراضى الخصبة نتيجة لنقص عدد السكان، ومع نهاية القرن السادس عشر بدأ الأوروبيون فى حصاد المكاسب الكبيرة للمزارع. (فى ١٦٠٠ كانت قيمة السكر البرازيلى ضعف قيمة كل صادرات إنجلترا للعالم أجمع)[١١]، ونستطيع القول بأن الأوروبيون اغتنوا سريعاً.

فى القرن السادس عشر كان معظم الثروة يجىء بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الأمريكتين فى صورة معادن ثمينة، وأدى هذا إلى ذوبان (إذا جاز التعبير) الأشكال الاجتماعية القديمة فى أوروبا وتمهيد الطريق لتجارة مع آسيا وأفريقيا تدر عائداً كبيراً وبالتالى ثروة أخرى لهذا المجتمع. وأعتقد أن هذا المجتمع الذى أطلق عليه "الرأسمالية الأولى" قد اشترى الطبقة الإقطاعية القديمة (أى أنه سحب ملاك الأراضى فى طيات تركيبته المالية) وتباعاً تحكم فى المجتمع بأسره: أولاً فى هولندا ثم (مع الثورة الكبرى عام ١٦٨٨) فى إنجلترا، مع أجزاء من بلدان أخرى مرت بنفس التحولات العميقة. ولما كان قيام هذه المجتمعات على أساس من الرأسمالية، بدأت هناك تغيرات عديدة اعتمدت على القوة السياسية (والثروة) مثل خلق طبقة عاملة غير زراعية، واستخدام موارد الدولة لعمليات توسعية استعمارية وغيرها. لقد قمت بتوضيح

هذه المجادلات حتى القرن الثامن عشر فى الجزء الأول مجادلاً بأن نهضة أوروبا من ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ جاءت نتيجة لسبب خارج أوروبا نفسها وهو الاستعمار. وخلال هذه الفترة شهدت أوروبا الكثير من التطور، ونستطيع أن نجد الأسباب المباشرة فى أوروبا نفسها. ولكن يبقى الاستعمار، الرسمى وغير الرسمى، هو الركيزة الأساسية من خلال تدفق الثروة حيث فرص الحياة التى وفرها وطرق التفكير الجديدة والاختراعات الحديثة، بالإضافة إلى انتشار الأفكار والتقنيات من القارات الأخرى. كل هذا- فى رأيى- هو الديناميكية الأساسية وراء نهضة أوروبا والاستعمار الأوروبى.

ويمكن أن نخلص إلى أن هناك مجادلتين أساسيتين:

١- لم تكن أوروبا أكثر تطوراً أو تقدماً من الحضارات الأخرى فى ١٥٠٠.

٢- ويفسر الاستعمار بشكل أساسى نهضة أوروبا فيما بعد ١٥٠٠.

ولكن يبقى سؤال ثالث هام وهو كيف حدث أن يكون الأوروبيون هم الذين امتلكوا الإمبراطوريات الاستعمارية وثرواتها وليس الآسيويين أو الأفارقة؟ ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار أن استكشافات الأيبريين فى المحيط الأطلنطى كانت لها مثيلاتها من قِبل غير الأوروبيين فى المحيطين الهندى والهادى فى نفس الفترة، وقامت كثير من المراكز التجارية البحرية فى الأقاليم الساحلية بتوسيع نطاق تجارتها، كما كان للأوروبيين ميزة هامة واحدة كما ظهر لاحقًا، وهى أنه خلال القرن السادس عشر كانت أميركا هى مصدر الثروة الاستعمارية، والأهم فى أمريكا هى مناطق الذهب والفضة التى كانت أقرب للأوروبيين منها إلى مراكز بحرية أخرى. كانت المسافة من جزر الكنارى والإنديز الغربية هى ١/٣ المسافة من الصين إلى المكسيك (أكابولكو)، بينما كانت المسافة من الموانئ الأفريقية الشرقية إلى الإنديز الغربية كتلك التى بين الصين والمكسيك. إضافةً إلى أن نظام الرياح فى المحيط الأطلنطى يتكون من رياح شرقية فى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية القريبة من خط الاستواء ورياح غربية فى المناطق البعيدة عنه. كان هذا النظام مألوفًا لدى البحارة الأوروبيين من خلال رحلات جزر الكنارى وماديرا والآزور وكان معروفًا أنه باستطاعة أحدهم أن يبحر غربيًا فى حزام

الريح التجارى ويعود شرقًا مع الرياح الغربية (وبذلك أصبح الوصول لليابان ممكنًا مع امتداد الطريق الغربى). والعكس هو الحال فى شمال المحيط الهادى حيث الرياح التى من الصعب الاعتماد عليها.

ولذا أجادل بأن المراكز الأوروبية التجارية هى التى وصلت أولاً إلى الأمريكتين قبل غيرها من المراكز التجارية المتقدمة الأخرى، وكان ذلك بسبب الموقع على وجه الخصوص، أى لسهولة الاتصال بين أوروبا وأمريكا. ولأن أمريكا كانت بمعزل عن باقى الكرة الأرضية لقرون عدة، فقد انهزم الأمريكيون بسرعة أمام أمراض العالم القديم وبأعداد هائلة، ففى المكسيك على سبيل المثال توفى ٤/٥ من عدد السكان فى القرن السادس عشر[١٢]. ولهذا تقدم غزو المناطق التى يتم نهب ذهبها وفضتها بصورة كبيرة[١٣]. وسمحت الثروة المتراكمة للأوروبيين بأن يمتلكوا قوة بحرية تجعل من المستحيل على أى حضارة أخرى أن تشق طريقها إلى الكنز الأمريكى. تلخيصًا لكل هذا يمكن القول بأن الأوروبيين تمكنوا من الحصول على الثروة بسبب موقعهم على الكرة الأرضية وليس بسبب تفوقهم الفريد أو تطورهم أو "جرأتهم".

المشروع

هذا الجزء هو الثانى من عمل ثلاثى الأجزاء: نموذج المستعمر للعالم. إن للمشروع ككل هدفًا رئيسيًا واحدًا: كشف ونقد ودحض مجموعة نظريات وبديهيات المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم والفكر الاجتماعى قدر المستطاع. (تذكر أننى أسمى أى فكرة "مركزية أوروبية" إذا كانت تدعى خطأ تفرد أوروبا والأوروبيين فى الماضى والحاضر). الجزء الأول وهو بعنوان الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية تناول ثلاثة أجزاء من المشكلة ككل. أولاً: قام بتحليل المركزية الأوروبية كنموذج للعالم وركز على الجزء الذى يختص بتاريخ العالم وهو انتشار المركزية الأوروبية. حاولت أن أجد مكانًا لهذا المعتقد فى تاريخ الأفكار الغربية، كما حاولت إثبات أن القوة الاجتماعية التى كانت تدفع المركزية الأوروبية فى التاريخ المعاصر كانت هى الاستعمار، وهذا هو بالتحديد

نموذج المستعمر للعالم. ثم جاء بعد ذلك فى الجزء الأول نقد منهجى للخرافات الداعية بتفوق أوروبا من حيث الجنس والبيئة والعقل والمجتمع. وأخيرًا، حاولت وضع الخطوط الأساسية لما أظن أنه نموذج لتاريخ العالم لا يقوم على المركزية الأوروبية منذ نهايات العصور الوسطى وحتى ١٧٥٠ محاولاً عرض الآتى:

١- إنه لم يكن لأوروبا أى تفوق على باقى العالم قبل غزو أمريكا.

٢- إن الاستعمار بداية من الغزو كان هو الباعث الأساسى الذى دفع أوروبا على طريق النهضة والتمدن.

ويقدم الجزء الثانى (الحالى) تاريخ المركزية الأوروبية كمجموعة من النظريات من قِبل ثمانية من أبرز مؤرخيها. أما الجزء الثالث بعنوان تحرير الماضى سيكون له هدفان؛ سيعرض جزؤه الأول مجموعة من المقالات عن جوانب من نظرية انتشار المركزية الأوروبية فى الفكر الاجتماعى. والجزء الثانى نموذج مطوَّر لتاريخ العالم منذ نهاية العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر مع اهتمام ملحوظ بالدور الذى لعبه الاستعمار فى الثورة الصناعية. إن هذا المشروع الثلاثى الأجزاء يعد مساهمة لفكرة التحرر من الاستعمار فى تاريخ العالم والعلوم الاجتماعية.

المؤرخون

تعد الفصول من الثانى إلى التاسع دراسات نقدية لأعمال ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية. الأول هو ماكس ڤيبر الذى أُختير للتحليل لأن أفكاره - بالرغم من مضى سبعة عقود على وفاته - مازالت هى ركيزة تاريخ المركزية الأوروبية المعاصرة ولها تأثير على الكثير منه إن لم يكن كله تقريبًا. أما المؤرخون السبعة الآخرون فهم معاصرون وقد تناولتهم بالدراسة على أساس مجموعة من المعايير.

خمسة من المؤرخين وهم: إيريك جونز ومايكل مان وجون هول وديڤيد لاندز وچارد دايموند يمثلون مجادلات تاريخية للعالم تسعى جاهدة إلى إثبات تفوق أوروبا

على أى إقليم آخر فى العالم لقرون عدة ويرجع هذا لمجموعة من الأسباب. ويعد المؤرخون الخمسة هؤلاء الأكثر أهمية والمقروء لهم فى العالم الإنجلوفونى من بين مؤرخى المركزية الأوروبية الأصليين. ولكن قبل تناول أعمالهم سأتناول اثنين من المؤرخين وهم: الراحل لين وايت الابن وروبرت برنر اللذان يقدمان مجادلات لموضوع أكثر اعتدالاً ولكنه من الأهمية بمكان فى تاريخ المركزية الأوروبية وهو: لماذا استطاعت أوروبا النهوض بعد تخلف العصور الوسطى وأصبحت أكثر غنى وقوة من حضارات أخرى؟ (المشكلة التى تُعرف بالانتقال إلى الرأسمالية والحداثة). إن نظريات وايت وبرنر عن نهضة أوروبا فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث لها بالغ الأثر. يفترض وايت وبرنر ثورة زراعية فى نهاية العصور الوسطى فى الشمال الغربى لأوروبا الذى يراه وايت من منظور محافظ بينما يراه برنر من منظور ماركسى، ويتفق الاثنان فى أن "الانتقال" حدث أساسًا فى مجال الزراعة وبشكل كلى فى الشمال الغربى لأوروبا. وقد اخترت هؤلاء المؤرخين الثمانية للأسباب السابقة وكذا لأنهم كمجموعة يمثلون فيما يبدو لى مجموعة متكاملة للنظريات الشائعة الحالية والمنادية بتفوق أوروبا تاريخياً.

تظهر التحليلات النقدية حسب التسلسل التاريخى لكتابات كل مؤرخ. سيتم تناول ماكس ڤيبر فى الفصل الثانى، أولاً لأنه الأقدم من بين هؤلاء المؤرخين الذين سنناقشهم والأهم من ذلك لما له من تأثير كبير على الحقل الأكاديمى التاريخى ككل، وبالتالى على الحقل الأكاديمى التاريخى المعاصر. كان ڤيبر عالم اجتماع ألمانى كما أنه مؤرخ امتد عمله من نهايات القرن التاسع عشر وحتى العشرينيات، وهو يعد بحق من أعظم علماء الاجتماع فى عصره، فقد وضع أساس علم الاجتماع المعاصر، كما تحظى أعماله بأهمية كبيرة(١٤). ولكن اهتمامنا هنا ينصب على كتاباته المتعددة التى أسس فيها ودافع عن وجهة النظر الداعية لتقدم أوروبا وتفردها على مر التاريخ على أساس من العقلانية الأوروبية. كان لأطروحته بالغ الأثر فى التاريخ المعاصر، إذ أنها الأرضية التى تأسست عليها معظم مبادئ المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم اليوم كما أنها تؤسس جزئيًا لأكثر مبادئ المركزية الأوروبية تأثيرًا فى العلوم الاجتماعية وهى "نظرية التجديد"

القائمة على مبدأ الانتشار، أى أن العالم غير الأوروبى يتطور عن طريق استقبال الأفكار الحداثية من العالم الأوروبى. وحيث إن ڤيبر يُعد مَعين الفكر المركزى الأوروبى المعاصر بدا مهمًا أن نحلل آراءه فى تاريخ العالم مع السبعة الآخرين.

لين وايت الابن (الفصل الثالث) كان مؤرخًا للعصور الوسطى متخصصًا فى تاريخ التكنولوچيا ويحظى بالاحترام، وكان لكتابه الصادر عام ١٩٦٢ بعنوان "تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى" عظيم الأثر فى تاريخ المركزية الأوروبية. فهو يقدم نظرية تكنولوچية حتمية لنهضة أوروبا فى العصور الوسطى، مجادلاً بأن أوروبا الغربية كانت فريدة فى قدرتها على الاختراع مما أتاح لهذا المجتمع فرصة تحقيق ثورة زراعية، وإن هذه الثورة المزعومة جزء كبير من التفسير لنهضة أوروبا المفترضة قبل نهاية هذه الفترة. تكمن أهمية وجهة نظر وايت بالنسبة لنا، من ناحية، فى أنها تصريح كلاسيكى للمنظور الحتمى التكنولوچى فى تاريخ المركزية الأوروبية، ومن ناحية أخرى (فى أعمال أخرى) فإن رأيه بأن تفرد أوروبا التكنولوچى فى العصور الوسطى، ينبع من صفات خاصة فى التقاليد اليهودية المسيحية والديانة المسيحية.

أما روبرت برنر (الفصل الرابع) فهو مؤرخ مركزى أوروبى ماركسى، وقد جذب انتباهنا لما لعمله من تأثير فى التاريخ عامة كما فى تاريخ الماركسية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن مجادلاته خلاقة تركز على كفاح الطبقة الريفية فى أواخر العصور الوسطى، وكذلك لأنه يمكن أن يكون رمزًا للمدرسة الحديثة لمؤرخى المركزية الأوروبية الماركسية.

أما باقى المؤرخين فقد وضعوا نظريات شاملة عن أولوية أو تفوق أوروبا التاريخى. (يستخدم مصطلح "التفوق" فى هذا الكتاب ليعنى امتلاك صفات ثقافية وبيئية تؤدى إلى التطور. وفى بعض السياقات استخدام كلمة "أولوية السبق" للإشارة إلى وجهة نظر معتدلة تقول بأن أوروبا قد وصلت إلى نقطة تاريخية معينة فى وقت مبكر عن مجتمعات أخرى).

أما إيريك ل. چونز (الفصل الخامس) فهو مؤرخ اقتصادى يحظى عمله عن تاريخ أوائل الفترة الحديثة فى أوروبا، بخاصة التاريخ الزراعى، باحترام بالغ لقوة أسانيده. وبالرغم من هذا فإن كتابه " المعجزة الأوروبية: البيئات، الاقتصاديات، الجغرافيا السياسية فى تاريخ أوروبا وآسيا" (١٩٨١) يعد نموذجًا متطرفًا لتاريخ المركزية الأوروبية. فقد بعث الحركة فى اتجاهات عدة فى تاريخ المركزية الأوروبية وأشاع مصطلح "المعجزة الأوروبية". قدم چونز فى هذا العمل أكثر المجادلات تأثيرًا فى التاريخ، والتى تدل على تفوق أوروبا على مر التاريخ. إن عبارته "المعجزة الأوروبية" هى بمثابة التصديق على تاريخ المركزية الأوروبية اليوم. ولذا أخصص جزءًا أكبر من اهتمامى لهذا المؤرخ أكثر من غيره.

مايكل مان (الفصل السادس) عالم اجتماع تاريخى تأثر بماكس ڤيبر وإرنست جلنر الذى نوقش كتابه "مصادر القوة الاجتماعية الجزء الأول: تاريخ القوة من البداية وحتى ١٧٦٠ قبل الميلاد" (١٩٨٦) على نطاق واسع، فهو يقدم رؤية مركزية أوروبية صرفة للعالم. كما يقدم مان نظرية للتاريخ تستند إلى الفكرة الغائية فى أن جوهر الحضارة وهى ("القوة الاجتماعية") تتحرك بثبات نحو الغرب، وهذا الزحف الجغرافى المفترض للتاريخ هو أهم تبعات مجادلته(١٥).

چون هول (الفصل السابع) عالم سياسى كما أنه عالم اجتماع تاريخى وكما هو الحال مع مان جاء متأثرًا بڤيبر وجلنر. وكتابه "القوى والحريات: الأسباب والنتائج المترتبة على نهضة الغرب" (١٩٨٥) ومجموعة مقالات لاحقة مهدت الطريق لنظرية المركزية الأوروبية لتاريخ العالم مرتكزة على عمليات سياسية وعمليات تشكيل الدول. وهو يدعى بأن الثقافة الأوروبية وحدها تملك الصفات التى تسمح بالتحديث السياسى.

چارد دايموند (الفصل الثامن) متخصص فى الإيكولوچيا الحيوية وحصل كتابه "الأسلحة، الجراثيم، الصلب: أقدار المجتمعات الإنسانية" (١٩٩٧) على جائزة پوليتزر. يقدم نموذجًا متطرفًا للحتمية البيئية فى خدمة تاريخ المركزية الأوروبية فى العالم كما

رأيناه فى النصف الماضى من هذا القرن. فى هذا الكتاب يجادل كيف أن البيئة الطبيعية وحدها هى التى تفسر تفوق أوروبا وآسيا على باقى أقاليم العالم كما أن نهضة أوروبا هى نتيجة البيئة التى ساعدتها الثقافة. يبدو أن هذا الكتاب يقدم إعادة بعث لنظرية الحتمية البيئية التى كانت شائعة فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لدى الفكر الأكاديمى، ولكنها رُفضت بقوة من قِبل جغرافيين قبل منتصف القرن العشرين.

ديڤيد لاندز (الفصل التاسع) هو مؤرخ اقتصادى له إسهامات مهمة على وجه الخصوص فى التاريخ التكنولوچى الأوروبى. كتابه الصادر عام ١٩٩٨ "غنى وفقر الأمم. لماذا البعض غنى جداً والبعض فقير جداً؟" قوبل بحماس من قبل جهات صحفية مثل نيويورك تايمز ووول ستريت چورنال والواشنطن بوست، وهو الأمر الذى يمكن وصفه بموافقة واسعة لفكرة المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم من قبل موجهى الرأى العام فى المجتمع الأمريكى، وهو كتاب هائل من حيث عدد وتنوع المجادلات التقليدية التى يقدمها استناداً على ادعاء لاندز بتفوق أوروبا على غيرها من الثقافات الأخرى فى العالم من حيث البيئة والاقتصاد والتكنولوچيا والسياسة والمجتمع والعقلية منذ العصور القديمة. يعد هذا الكتاب حالياً أكثر أمثلة المركزية الأوروبية فى تاريخ العالم بحثاً ومناقشة.

إن المؤرخين الثمانية لا يمكن اعتبارهم عينة ممثلة لتاريخ المركزية الأوروبية. يمكن للباحثين السبعة المعاصرين أن يكونوا ممثلين لكل ألوان الطيف بالنسبة لمجادلات المركزية الأوروبية التى شاع استخدامها كثيراً اليوم لتفسير نهضة وتفوق أوروبا، وفى الفصل العاشر أستعرض عشراً من هذه المجادلات. بالإضافة إلى أن هناك اختلافات بين المؤرخين الثمانية، إلا أنهم فيما أعتقد يستخدمون النموذج المعاصر للمركزية الأوروبية فى تاريخ العالم. أما فى الفصل الحادى عشر فإننى أرسم مخططاً لهذا النموذج.

وأخيراً، نأتى إلى سؤال ما إذا كانت المركزية الأوروبية المعروضة هنا من خلال المؤرخين الثمانية تعتبر مثالاً أو نموذجاً للتاريخ الغربى المعاصر. هناك تيار قوى فى التاريخ المعاصر فى الأعمال الأكاديمية والمناهج الدراسية باتجاه التخلص من الأفكار المركزية الأوروبية القديمة. وإلى حد ما، يعكس ذلك معرفة جديدة عن العالم غير الأوروبى الذى لم يعد يستبعد من قبل الكثير من الأكاديميين باعتباره راكداً وتقليدياً وما شابه ذلك، وهو الرأى التقليدى الذى كان سائداً فى وقت ماكس ڤيبر. ويعكس هذا، إلى حد ما، تأثير حركة الحقوق المدنية والاتجاهات الجديدة للعدالة الثقافية على الحقل الأكاديمى ككل، فلم نعد نجد عنصرية صريحة أو تحيزاً دينياً صريحاً فى نصوص الكتب الدراسية عن تاريخ العالم[١٦]. وقد كان هناك العديد من النقد القوى لتاريخ المركزية الأوروبية - وأكثرها لفتاً للنظر خلال العقود الثلاثة الماضية هو عمل إدوارد سعيد "الاستشراق" (١٩٧٨) - لذا فجوابى عن السؤال السابق هو: لا. فالمركزية الأوروبية المعروضة من خلال المؤرخين الثمانية فى هذا الكتاب ليست نموذجاً ممثلاً للتاريخ المعاصر. ولكن قراء هذا الكتاب سيجدون (أو هم يعرفون بالفعل) أنه مازال هناك الكثير من المركزية الأوروبية. فالكثير من المبادئ المقدمة هنا من خلال المؤرخين مازالت تحظى بقبول كثير من المؤرخين. من بين هذه العقائد الأفكار الخاطئة عن البيئة الأوروبية، والمقارنات المجحفة بين التاريخ الأوروبى والتاريخ غير الأوروبى فى مناحٍ مثل المدنية والطبقة الاجتماعية والتكنولوچيا والأسرة، وغيرها؛ والاعتقاد الذى مازال يؤمن به الكثيرون وهو تفرد "العقلانية" الأوروبية. ولو كانت هذه الاعتقادات غير موجودة لما كنت قد كتبت هذا الكتاب.

الهـوامـش

(١) قدمت المجادلة التاريخية فى الفصلين الثالث والرابع من الجزء الأول، وسيتم تقديمها بتفصيل أكبر فى الفصل الثالث بعنوان تحرير الماضى. لم يكن عنوان الجزء الأول نموذج المستعمر للعالم: "الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية" (a 1993)، عندما صدر فى البداية.

(٢) هناك نموذجان آخران بعيدا الصلة بالمركزية الأوروبية لأصول نهضة أوروبا لابد من ذكرها. جانيت أبو لغد تتبع جزئيًا خطا وليم ماكنيل William McNeill و ترى أن الطاعون الأسود فى القرن الرابع عشر أصاب الاقتصاد الآسيوى بدمار أكبر مما أصاب الاقتصاد الأوروبى، معطية الأخير الذى لم يكن أكثر تطوراً من نظيره الأسيوى فى السابق ميزة مبدئية كبيرة. يتفق معى أندريه جندر فرانك Andre Gunder Frank (انظر Frank, 1992) فى أن فضة وذهب الأمريكتين يعود لهما الفضل فى بداية نهضة أوروبا، ولكنه يجادل بأن أوروبا "لم تنهض" فعليًا حتى القرن الثامن عشر انظر AbuLughod, Before European Hegemony: The World System A.D. 1250-1350 (1989); McNeill, Plagues and Peoples (1976); Frank, ReORIENT (1998). ينبنى تأكيدى على التراكم الاستعمارى باعتباره السبب الأساسى "لنهضة" أوروبا مسبقًا عن طرق صيغ سابقة بالرغم من أن أيًا منها، كما أتذكر، لم يرفض فرضية وجود تفرد أوروبى سابق كجزء من النظرية السببية. انظر على سبيل المثال R. H. Tawney, "Introduction" to Weber's The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (1958); W. P. Webb, The Great Frontier (1951). غالبًا ما يشار إلى تعليقات ماركس وإنجلز حول أهمية اكتشاف أمريكا، ولكن من الواضح أنهما نظرا إلى القوى الأوروبية الداخلية – صراع الطبقات فى الأساس – على أنها أكثر أهمية من تراكم رأس المال. انظر Marx and Engels, The German ideology (1976).

(٣) تستخدم "المركزية الأوروبية" عمومًا لتعنى ببساطة كم الاهتمام الزائد عن الحد أو الأهمية المغالى فيها، التى تحظى بها أوروبا. وهى تستخدم كذلك بطرق أخرى.

(٤) يمكن إضافة فرضية سادسة. بسبب بدائية المناطق غير الأوروبية، والخصائص القديمة التى امتلكتها أوروبا يوجد نوع من الانتشار المضاد، وهو طبيعى ويتكون من الأشياء الشريرة الخطيرة والرجعية مثل السحر الأسود والمومياوات المتحركة والطواعين ومصاصى الدماء. انظر الجزء الأول.

(٥) لا أريد أن أترك الانطباع بأن المؤرخين الغربيين فى الفترة الحالية منحازون ضد الشعوب غير الأوروبية، أو أن مجموع الكتابات عن تاريخ العالم توصف بأنها مركزية أوروبية. انظر الفصلين العاشر والحادى عشر.

(٦) من بين الأعمال الأكثر أهمية انظر A. Appadorai, R. P. Dutt, C. L. R. James, J. c. Van Leur, and E. Williams. عمل Williams و James تم مناقشته باختصار في الجزء الأول، انظر Appadorai, Economic Conditions in Southern India (1000-1500 A.D.) (1936); James, The Black Jacobins (1937); Dutt, The Problem of India (1943); Williams, Capitalism and Slavery (1944); Van Leur, Indonesian Trade and Society (1955).

(٧) انظر على سبيل المثال، Abu-Lughod, Before European Hegemony; Amin, Eurocentrism (1989); Hodgson, Rethinking World History (1993); Frank, ReORIENT (1998) and his earlier World Accumulation, 1492-1789 (1978); Said, Orientalism (1979); Wolf, Europe and the Peoples Without History (1982).

(٨) Needham, Science and Civilization in China (1954-); al Hassan and Hill, Islamic Technology (1986); Flynn and Giraldez, Metals and Monies in an Emerging Global Economy (1997); Pomeranz, The Great Divergence: China, Europe, and the Making of the Modem World Economy (2000); Frank, ReORIENT.

(٩) يرتكز هذا الموقف جزئيًا على مفهوم جوليان ستيوارد Julian Steward عن التطور متعدد الأطوال. انظر Theory of Culture Change (1955). بغض النظر عن الاختلافات الثقافية، فالناس في كل المجتمعات تعمل لتحسين الظروف التي تحفظ وتعزز الحياة. جزء الثقافة المضطلع مباشرة بهذا الجهد، الجزء الإيكولوجي، يتجه لأن يكون تطوريًا على مدى فترة زمنية طويلة: طرق مختلفة تتبناها ثقافات مختلفة ولكنها متوازية في كفاحها لتحقيق أهداف إيكولوجية.

(١٠) Frank, ReORIENT; Barrett, "World Bullion Flows, 1450-1800" (1991); Flynn and Giraldez, Metals and Monies.

(١١) Simonsen, Hist6ria econômica do Brasil, 1500-1820 (1944); Minchinton, The Growth of English Overseas Trade (1969).

(١٢) Cook and Borah, Essays in Population History (1979); Crosby, The Columbian Exchange (1972); Blaut, The Colonizer's Model of the World: Geographical Diffusionism and Eurocentric History (1993).

(١٣) أبحر كولومبس في المحيط الأطلنطي من جزر الكناري، شمال أكابولكو Acapulco على ساحل المحيط الهادي في أمريكا وجنوب جزر الإنديز الغربية على المحيط الأطلنطي. لم تكن المعادن الثمينة مستخدمة بشكل واسع قبل ١٩٤٢.

(١٤) يوجد عدد من المراجع لماكس ڤيبر ودراسات عن أعماله وأهميتها باللغة الإنجليزية. انظر على سبيل المثال Freund, The Sociology of Max Weber (1968); Gerth and Mills, "Introduction: The Man and His Work," in From Max Weber: Essays in Sociology (1946), pp. 3-76; K. L?with, Max Weber and Karl Marx (1982); Marianne Weber, Max Weber: A Biography (1975).

(١٥) عـمل لاحق The Sources of Social Power: Vol. II. The Rise of Classes and Nation States, 1760-1914 (1993)، يعد إسهامًا أكثر أهميـة للتاريخ الاجتماعى، ومع ذلك فيما أنه يتعامل مع أوروبا الحديثة فقط (بالرغم من الادعاء الضمنى بالعالمية: "نهضة الطبقات والدول- الأمم")، فهو ذو أهمية ثانوية فى هذا الكتاب وسوف نناقشه باختصار.

(١٦) بعض النصوص عن تاريخ العالم فى القرن التاسع عشر مطـروحة للنقـاش فى الفصل الأول من الجـزء الأول.

الفصل الثانى

ماكس ڤيبر

العقلانية الغربية

كان ڤيبر أحد أهم الأكاديميين الأوروبيين فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو أحد مؤسسى علم الاجتماع كما أنه مؤرخ مهم ويعتبر من أهم المدافعين عن المجتمع البيروقراطى المحافظ فى ألمانيا فى فترة ما قبل الحرب. قام ڤيبر بتحليل هذا المجتمع والمجتمع الرأسمالى الغربى بصفة عامة مستخدمًا تفاصيل فى غاية الدقة مع بصيرة نافذة وبالرغم من هذا كانت هناك بعض أوجه القصور التى تشوب بصيرته. فهو لم ير التناقضات فى هذا المجتمع – من سخرية القدر أنه توفى فى خضم انهيار ألمانيا بعد الحرب العالمية – والتزم بالغرور الذى ميز وقته ومكانه وطبقته فى التفكير بأن الرأسمالية الأوروبية المعاصرة ما هى إلا ذروة التطور الاجتماعى، وهى إن لم تكن المنتج النهائى للتطور إلا أنها على الأقل أعلى إنجازاته حتى الآن. (كانت لديه شكوك حيال أى صعود آخر فى المستقبل).

العقلانية

بشكل عام، كان ڤيبر يرى التطور الاجتماعى باعتباره تطورًا فكريًا وصعودًا "للعقلانية" الإنسانية بما تعنيه من فكر وأخلاق منذ القدم حتى المجتمع الحديث. فى كل مرحلة من مراحل هذا التطور اخترع الناس مجموعة من المؤسسات الاجتماعية

الجديدة مثل الأشكال العليا للدولة والنظام القانونى والبيروقراطية الحديثة، وقامت هذه المؤسسات بالمضى قدمًا على مر التاريخ، ليس كأسباب رئيسية – تكمن الأسباب فى الأفراد وعقولهم وأفعالهم – ولكن كنتاج للتفكير "العقلانى". ومما لا يثير الاستغراب أن ڤيبر خلص إلى أن المجتمع الأوروبى الحديث ليس أكثر المجتمعات عقلانية فحسب ولكنه يعتبر نتيجة الاختيار الإنسانى الواعى للنزعة الاختيارية. كذلك تمكن رأس المال الألمانى بمراكمة الأرباح لأنه اختار أن يقوم بهذا ولأنه واجب محتم عليه "دعوته". بالمثل فإن العامل يعمل ليس بسبب حاجته وإنما لأن هذا العمل هو "دعوته"[1]. ليس هناك طريقة للدفاع عن نظام اجتماعى أفضل من الادعاء بأن هذا النظام يعكس الأمنيات والاختيارات الحرة لأفراده. ليس من الصعب فهم لماذا يُنظر إلى ڤيبر اليوم بالكثير من التبجيل من قبل علماء الاجتماع الغربيين المحافظين كما أنه يعد أكاديميًا ممتازًا.

كان تاريخ ڤيبر هو التاريخ النفقى. المضى نحو المجتمع الأكثر عقلانية حدث فى أوروبا وبين الأوروبيين. خارج نفق الزمن الأوروبى كانت كل المجتمعات تقليدية ولاعقلانية بدرجات متفاوتة. (سنرى كيف كان ذلك بعد قليل). لماذا كان الأوروبيون أكثر عقلانية دائمًا؟ بالرغم من دأب ڤيبر على المقارنة بين "عقلانية" الأوروبيين ولاعقلانية المجتمعات الأخرى على مر التاريخ، إلا أنه لم يتعرض إلا قليلاً لفكرة لماذا أظهر الأوروبيون تلك العقلانية. يقدم ڤيبر، كإجابة على هذا السؤال، عدة عوامل، أحدها هو العرق.

مثله مثل معظم الأكاديميين فى زمنه كان ڤيبر عنصريًا. وراثيًا، يعد الأوروبيين أكثر تميزًا من غيرهم. ولكن "العرق" هو أحد "عوامل" عديدة، وطبقًا لڤيبر لا يستطيع العلم الاجتماعي حتى الآن قياس هذا "العامل"[2]. لذا نجده يقترب من هذا العامل بحذر، فهو يعتقد أن الأفارقة فى مرتبة أقل. ويظهر هذا فى تعليقه الواضح. (الزنوج "غير مناسبين لعمل المصانع وتشغيل الماكينات، فكثيرًا ما غطوا فى سبات عميق. هذه حالة فى التاريخ الاقتصادى تظهر فيها التقدمية العنصرية بوضوح" ٣).

ويظهر هذا بطريقة أكثر وضوحًا فى عدم اهتمام ڤيبر بأفريقيا والأفارقة (بخلاف المصريين حيث لم يربط بينهم وبين أفريقيا ثقافيًا) فى مناقشاته للتطور الاجتماعى والمقارنة بين الحضارات. وينطبق الشيء نفسه على سكان أمريكا الأصليين. (يرتبط بالتعليق عن "الزنوج" المقتبس أعلاه تعليق أخذ عن سكان أفريقيا الأصليين "فهم غير مناسبين للعمل فى المزارع"، وهم مثل الأفارقة لا يمثلون شيئًا بالنسبة لتطور وتنظير ڤيبر المقارن). أما بالنسبة للآسيويين فنجد آراء ڤيبر حذرة. فهو يعترف بأن "كثير من الصفات الصينية التى تعتبر فطرية قد تكون نتيجة المؤثرات الثقافية والتاريخية". من بين تلك "الصفات" الصينية: "افتقارهم الشديد للشجاعة"، "تمسكهم الشديد بالروتين" و"تقبلهم الملل" و"بطء رد فعلهم تجاه أى مثير غير عادى وبالأخص فى المجال الفكرى" و"الرعب من كل الأشياء المجهولة" و"سذاجتهم الطيبة" و"افتقارهم للتعاطف والدفء الحقيقى" و"خضوعهم المطلق" و"عدم أمانتهم المنقطعة النظير" و"عدم ثقتهم فى بعضهم البعض" (التى تناقض بشدة ثقة وأمانة أشقائهم الأوفياء من الطوائف البيوريتانية فى أوروبا)(٥).

أما بالنسبة للعرق فنجد ڤيبر أيضًا يقترب منه بحرص. فبعد تصريح طويل وهام (سنناقشه بعد قليل) معلنًا كيف أن الأوروبيين أكثر عقلانية من غيرهم، يقول إن "من الطبيعى أن نظن أن أهم سبب للفرق "هو الوراثة" ويعترف بأنه يعتقد بأن الوراثة البيولوجية لها أهمية "كبيرة"، ولكن دراسة "التأثيرات" الوراثية ليست متقدمة بالدرجة الكافية لكى تعطينا إجابات، ولذا يجب أن نؤكد على دراسة العوامل الاجتماعية والتاريخية(٦). يعد هذا تنازلاً عن العنصرية المتطرفة التى كانت شائعة فى الدوائر الفكرية وقت ڤيبر، ولكن هذا لا يغير حقيقة أنه كان يرى العرق عاملاً أساسيًا أو ما قبل اجتماعى يفسر عظمة الأوروبيين. إن العنصرية المعتدلة فى حد ذاتها تعد موقفًا متطرفًا عندما تم إقحامهاعلى جذور المجادلة عن الفروق بين المجتمعات الإنسانية. يصبح العرق هو دَفعة البداية فى عملية الاختلاف التاريخى، وربما كمؤثر بارع يعمل فى كل مكان وفى كل وقت، مضيفًا قدرًا أكبر من العقلانية العظيمة لأفكار وقرارات الأوروبيين عند مقارنتهم بغيرهم.

الاستبداد الشرقى

العامل الثانى الذى يناقشه ڤيبر هو المجادلة القديمة والمعروفة عن الأثر المزعوم للبيئة على الشئون الإنسانية: نظرية "الاستبداد الشرقى"[٧]. قبل ڤيبر بقرون كان هناك اعتقاد بأن حضارات آسيا ومصر العظيمة اكتسبت صفات مميزة نتجت عن حقيقة كونها وجدت فى بيئات جافة واعتمدت على الزراعة بالرى. النظرية القديمة التى يتبناها ڤيبر تجادل على الوجه التالى: فى الحضارات التى تعتمد على الزراعة، يجب أن تكون الدولة "مستبدة" غير ديمقراطية، لأنها يجب أن تنظم عملية توزيع المياه وصيانة أعمالها. كما أنها يجب أن تجبر عامة الشعب على الاشتغال بأعمال الرى هذه وتقبل القرارات الضرورية فيما يتعلق بتحديد حصة المياه. أشار الأوروبيون لهذا النوع من المجتمع على أنه "الاستبداد الشرقى" وكان يقارن بالنوع الأكثر حرية من المجتمعات التى تسقط فيها مياه الأمطار على مزرعة كل فلاح، وبذلك لا توجد حاجة لسلطة خارجية لإدارة المياه. استخدمت هذه النظرية القديمة منذ القرن السابع عشر فى سياقات أيديولوچية متنوعة تتعلق بغير الأوروبيين. لم يكن الآسيويون متطورين وذلك لاستبداد مجتمعاتهم. كان الأوروبيون أحرارًا ولذا فهم متطورون ومبدعون. كانت أوروبا مجتمعًا حرًا بسبب الاستقلال المزعوم لكل فلاح بالنسبة لاتخاذ القرار، ويرجع ذلك لنزول المطر على مزرعته؛ وقد حبكت هذه النظرية فى نسيج كثير من المجادلات المعاصرة عن الشخصية الديمقراطية المزعومة للمجتمع الأوروبى على مدار التاريخ بداية بالعصر الحجرى، على عكس المجتمع غير الديمقراطى فى "الاستبدادية الشرقية"[٨].

نجد هذه المجادلة عند ڤيبر فى أماكن عدة أكثرها وضوحًا فى مناقشته لأسباب عدم تطور الدولة الصينية عقليًا. كان هذا بسبب مجموعة الأعراض الكلاسيكية التى تدعى "الاستبداد الشرقى". فى الحقيقة لم تعتمد الصين القديمة كثيرًا على الرى. كان ڤيبر يعرف أن هذا هو الوضع فى شمال الصين ولذا ابتدع مجادلة خاصة

– ليست صحيحة – عن أهمية القنوات فى المواصلات، وليس الرى، الأمر الذى يؤدى إلى النتيجة السياسية نفسها[٩]. بينما تقدمت الدولة عقلياً فى أوروبا:

> إن العامل الهام الذى جعل تطور الشرق الأدنى مختلفًا (عن تطور اليونان) كان الحاجة إلى نظم رى، ونتيجة لهذا تم الربط بين المدن بواسطة القنوات والتنظيم الدائم للمياه والأنهار، وتطلب هذا وجود بيروقراطية موحدة. كانت هناك شخصية لا يمكن عكسها لهذا التطور ومعها نجد خضوع الفرد... على الجانب الآخر نجد أن وضع الملوك قد انهار... بذلك بدأ تطور ثم انتهى على يد جيش من المزارعين وصغار الملاك الذين قدموا أسلحتهم. امتدت القوة السياسية بالضرورة لتلك الطبقة وبهذا بدأت حضارة مدنية صرفة فى الظهور ميزت المجتمع اليونانى وأدت إلى أن يختلف التطور الرأسمالى فى اليونان عنه فى الشرق الأدنى[١٠].

لا توجد أى مشروعية لنظرية "الاستبداد الشرقى" فى أى مكان. فهى من ناحية سيئة جغرافياً حيث إن كثيراً من الحضارات الآسيوية لم تكن تعتمد على الرى، ومن بين تلك التى اعتمدت عليه كانت أيضاً الزراعة المعتمدة على الأمطار (مصر هى الاستثناء)، وأصبح الرى يستخدم فى معظم مناطق آسيا ليس بسبب جفاف الأرض ولكن لأن الرى يكثف الإنتاج، ويعد هذا حقيقة ثقافية. وعلى ذلك فهى أثر لنظام اجتماعى وليست سبباً له[١١]. ومن ناحية أخرى فإن النظرية (فى أشكالها القديمة) ببساطة تعد تحيزاً. نظر الأوروبيون إلى المجتمع الآسيوى على أنه فى مرتبة أقل "وغير حر" وكان من الممكن أن يجدوا مبرراً آخر لهذا الاعتقاد لولا نظرية الرى واعتباره سبباً للاستبداد فى الشـرق.

يلمح ڤيبر كذلك للأسباب الأساسية لتفرد أوروبا. فهو يعتقد على سبيل المثال أن المدن التجارية أكثر حرية من تلك الداخلية، كما يلاحظ نمط المدن التجارية فى مدن أوروبا القديمة التى تطل على البحر المتوسط مقارنة بتلك الداخلية فى الإمبراطوريات الآسيوية[١٢]. (ولكن الفينيقيين وغيرهم من غير الأوروبيين كان لديهم مدن تجارية مثل المجتمعات التى تطل على المحيط الهندى وبحار الصين). إن حقيقة أن المدن اليونانية

كانت بتلك الطريقة مدنًا "حرة" أدت إلى تطور عدد من المؤسسات الأوروبية الحديثة من بينها الديمقراطية.

ولكن الشيء الممتع حقًا في معالجة ڤيبر للتطور التاريخي للمجتمع الأوروبي والمقارنة بين "العقلانية" الأوروبية وعدم عقلانية وتقليدية غيرها هو الافتقار إلى محاولة منهجية لشرح جذور هذا الأمر. فنجد الإشارات القليلة للعرق أو البيئة مبعثرة هنا وهناك في أعمال أكاديمية هائلة عن التاريخ والمجتمع الأوروبي. يمكن أن نفسر تلك الثغرة بطرق مكملة عديدة. أحدها أن نوفي ڤيبر حقه من حيث حسه الأكاديمي الحذر حينما يتعامل مع الأسباب عندما يكون هناك القليل من الأدلة وهي الأمور التي تتعلق بالتاريخ القديم جدًا وعلم الوراثة وما شابه. هذا التفسير صحيح فيما نعرفه عن حس ڤيبر الأكاديمي الحذر وعدم رغبته في قبول نظريات العنصرية المبالغ فيها ونظريات معاداة السامية، والحتمية البيئية، التي كانت شائعة في الحقل الأكاديمي الألماني في ذلك الوقت. ولكن ليس هذا هو السبب الكامل وراء عدم رغبة ڤيبر في الالتفات إلى السببية الأساسية. أضف إلى هذا أن ڤيبر تبنى وجهة نظر عن المجتمع فيها تعامل الأفكار والقيم وتطورها باعتبارها الأسباب الرئيسية للعمليات الاجتماعية، والهياكل الاجتماعية والتغيير الاجتماعي[١٣]. كانت أكثر الأسباب أهمية بالنسبة له دينية. إن مقالة ڤيبر الشهيرة التي تحاول شرح التاريخ الاجتماعي: الخلق البروتستانتي وروح الرأسمالية تؤسس نموذجًا سببيًا تشكل فيه المعتقدات الدينية الأفكار التي يتمسك بها الناس عن العالم والقيم التي يقبلونها عن السلوك المناسب في هذا العالم، ومن ثم تصبح نماذج للسلوك أو الأفعال التي بدورها تغير المؤسسات الاقتصادية وغيرها في المجتمع. لو أُعطي مثل هذا التأكيد التفسيري للأفكار والقيم والدين، إذًا لكان أي تفسير جوهري هو ذلك الذي يفسر الدين والنفس الإنسانية. ولكن فلسفيًا، كان ڤيبر مثاليًا (أحد أفراد مدارس كانت الجديدة) وليس بصدد إيجاد تفسيرات مادية للظواهر السيكولوجية والروحية. قد يكون ڤيبر متدينًا أو لا يكون (هناك تساؤل حيال هذا الأمر) ولكنه لم يكن يستحضر الله أو الروح الإنسانية كأسباب جوهرية للحقيقة الاجتماعية. لذا تبقى التفسيرات غير كاملة.

يبدو من المحتمل أن السبب الرئيسي وراء تجنب ڤيبر مناقشة الدوافع الأساسية فى التطور الاجتماعى أو "التاريخ الكونى" كما كان يسميه أحيانًا شيئًا مختلفًا. فى زمن ڤيبر وما قبله لم يشك المؤرخون الأوروبيون فى أن هناك مبدأ جوهريًا لا نزاع فيه يشكل أساسًا لما أطلق عليه "التاريخ النفقى". إن هذا المبدأ يؤكد ببساطة أن هناك سببًا وراء التقدم الأوروبى ولماذا حدث، وفقًا لمبادئ داخلية مما لا يدع أى دور للعالم غير الأوروبى (إذا نحينا أرض الإنجيل) وسبب عدم تطور العالم غير الأوروبى: اللهم إلا من خلال تأثير الانتشار من العالم الأوروبى. فى تلك الأوقات كان يمكن أن نفترض أن التاريخ الأوروبى يتحرك قدمًا فى مساره الطبيعى. ولذا نادرًا ما أخذ المؤرخون على عاتقهم مهمة تأويل المبدأ الأساسى. بالنسبة للبعض منهم كان هو من صُنع الله. وبالنسبة لآخرين كان هناك سبب طبيعى متعلق بالبيئة قد يثير اهتمام البعض ولكنه لم يكن أمرًا جوهريًا. وبعضهم كان يتأرجح محاولاً التمسك بمبدأ الحتمية البيئية من خلال عرض دور البيئة فى التطور الاجتماعى الأوروبى(١٤).

فى حالة ڤيبر يمكن أن نستنتج أنه كان مستعداً لافتراض أن المبدأ السببى كان يعتمل، وأدى بطريقة ما إلى عقلانية كبيرة بين الأوروبيين أكثر من غيرهم كما أتاح للأوروبيين اختراع سمات جديدة ومؤسسات فى طريق التقدم التاريخى. فنجده يصف باستفاضة الطريقة التى تتم بها تلك العملية على مدار التاريخ الغربى منذ الشرق الأدنى القديم فلاحقًا. كذلك يقدم وصفًا دقيقًا وتحليلات رائعة للمؤسسات الاجتماعية التى نتجت تبعًا لهذا: النظم القانونية وعلوم الدين والنظم الأخلاقية والأشكال الحكومية والأشكال الحديثة وأشكال امتلاك الأرض، وغيرها الكثير. لذا نجد أن التعليقات العنصرية البيئية انتشرت هنا وهناك فى أعماله وهى لا تتعلق بالنقطة المحورية، بالنسبة لڤيبر فإن العقل الأوروبى هو مصدر التطور الاجتماعى، ولا تحاول أن تصل لما هو أبعد من هذا.

فى الغرب فقط

تفوق أوروبا على غيرها مطلق. تم إعلان هذا الأمر بجرأة فى بداية مقال ڤيبر الشهير "الخلق البروتستانتى وروح الرأسمالية":

> [إن شخصًا ما] نتاج الحضارة الأوروبية ويدرس أى مشكلة فى التاريخ يتجه لأن يسأل نفسه إلى أى مجموعة من الظروف يمكن أن نرجع حقيقة أن الحضارة الغربية، وفى الحضارة الغربية فقط، ظهرت الظواهر الثقافية (التى كما نحب أن نعتقد) التى تطورت ولها قيمة ومعنى عالمى. إنه فقط فى الغرب نجد العلم فى مرحلة تطورية نعتبرها اليوم صحيحة. التطور الكامل لعلم الأديان المنظم لابد أن يكون الفضل فيه راجعًا للمسيحية... حيث إنها كانت مجرد قطع متناثرة فى الإسلام وفى بعض الطوائف الهندية... لم يكن لعلم الهندسة الهندى أى دليل عقلى؛ كانت منتجًا آخر للفكر اليونانى كذلك بالنسبه للميكانيكا والفيزياء... لم تحظ دراسة التاريخ الأكاديمى المتطورة فى الصين بمنهج ثيوكيديدس Thucydides(*). افتقد [جُل] الفكر الهندى السياسى للمفاهيم العقلانية. الموسيقى المتناغمة [العقلانية]، اللحن والإيقاع، الأوركسترا الخاصة بنا، السوناتات الخاصة بنا، السيمفونيات، الأوبرات... كل هذه الأشياء معروفة فقط فى الغرب... استخدام القبة القوطية فى العمارة... لا يوجد فى أى مكان آخر... افتقد الشرق للعقلانية الكلاسيكية فى كل الفنون... التى قدمها لنا عصر النهضة. كانت هناك الطباعة فى الصين ولكن الأدب المطبوع... وفوق كل هذا فإن الصحافة والدوريات ظهرت فقط فى الغرب. عرفت الدولة الإقطاعية فى ثقافتنا... فى الحقيقة الدولة نفسها معروفة [بمعناها الكامل] فى الغرب فقط. والشىء نفسه يعد صحيحًا بالنسبة لأكثر القوى أهمية فى حياتنا المعاصرة ألا وهى الرأسمالية. إن مفهوم المواطن لم يوجد خارج الغرب[١٥].

(*) ثيوكيديدس (Thucydides): (460BC-395BC) مؤرخ يونانى قديم ألف كتابًا عن الحرب بين أثينا وإسبرطة. يعتبره الكثيرون مؤرخًا ينهج المنهج العلمى لدراسته التاريخ من خلال السبب والأثر ومعاييره الصارمة فى جمع المعلومات والأدلة. (المترجمة)

هذا (والكثير غيره الذى لم أستشهد به) يعتبر إشكالية فى علم الاجتماع الدينى لدى ڤيبر. تكمن المشكلة فى تفسير تفرد الغرب. يمضى ڤيبر قدماً ويقول إن هذه العملية تتطلب أهم ما تتطلب شرحاً للنهضة الفريدة للرأسمالية فى الغرب. وهذا بدوره يتطلب تحليلاً لعلم الاجتماع الدينى، أو بشكل أكثر دقة الأساس الاجتماعى "للأخلاق الاقتصادية" لديانات العالم. بعد أن يصرح ڤيبر بهذا يكمل حتى يصل للتعليق الذى استشهدنا به سابقًا عن كيفية أنه "من الطبيعى أن تظن أن أهم سبب" لتفرد عقلانية الغرب يكمن فى "اختلافات الوراثة"[١٦]. وهكذا تنتهى المقالة الافتتاحية. ثم نمضى إلى صميم عمل ڤيبر الكلاسيكى الخلق البروتستانتى وروح الرأسمالية.

قبل أن نقول أى شىء آخر عن ڤيبر يجب أولاً أن نرد على هذا الاتهام الخطير لكل المجتمعات غير الغربية. فهو خطأ على كل المستويات لثلاثة أسباب أساسية. أولاً: هو يقارن بين أوروبا فى القرن العشرين بعلومها وحسابها والأوركسترا الخاصة بها وما إلى ذلك مع الحضارات غير الأوروبية القديمة ومع الحضارات المعاصرة، التى نجد أنها فى تلك اللحظة التاريخية كانت مقهورة تحت نير الاستعمار. إن هذه المقارنة مجحفة. ثانيًا: لقد جانبه الصواب فى أمور كثيرة. لم يكن العلم الأوروبى، وعلوم الحساب والتكنولوچيا أعلى من تلك التى فى الصين والهند فيما قبل الفترة الحديثة. بعد نهضة أوروبا وعلى وجه التحديد بعد الثورة الصناعية، يمكن أن تتوقع ازدهارًا للعلم وزيادة كبيرة فى نطاق ووفرة جميع المنجزات الأخرى على سبيل المثال، الأوركسترات الكبيرة. ولكن لو عقدت المقارنات فى الفترة قبل ١٤٩٢ حينما كانت معظم حضارات العالم تعيش فى فترة العصور الوسطى فلن تصمد أوروبا. لا فى العلم ولا فى الفن ولا فى القانون ولا حتى فى تطور الرأسمالية. ثالثًا: كان ڤيبر يعكس الخيار البرجوازى الأوروبى فى زمنه فى حكمه الخاطئ على فن وثقافة غير الأوروبيين. لقد قلل كذلك من شأن دياناتهم. لم تكن موسيقاهم "متناغمة"، وكذلك فهو لا يقدر أو لا يفهم عمارتهم. فنهم غير "عقلانى". جزء من هذا الانحياز هو بالطبع قلة معرفة. مثال واضح على هذا تأكيده المقتبس سابقًا أن "الأدب المطبوع... وفوق كل ذلك الصحافة والدوريات ظهرت فقط فى الغرب". ڤيبر ببساطة لا يعرف شيئًا عن الكتب والدوريات فى الصين لأنه لم يذهب إلى هناك قط).

يستحق ماكس ڤيبر اهتمامنا، ليس لأنه كان أكاديميًا رائعًا ومفسرًا هامًا لما اصطلح عليه "المعجزة الأوروبية" نهضة أوروبا الفريدة والمزعومة قبل العصر الحديث (انظر الفصل الخامس) فيما بين الأكاديميين فى أوائل القرن العشرين)، ولكن لأنه أسس لتقليد مميز، يمكننا أن نقول مدرسة فيما يتعلق بمشكلة شرح تفرد الغرب، ومازال هذا التقليد مهيمنًا حتى اليوم. إن هذا المنهج "الڤيبرى" له عدة علامات مميزة. ڤيبر مميز فى منهجه كما هو مميز فى عدد من مجادلاته العملية. أما عن منهجه فقد قلنا عنه الكثير بالفعل. إنه يؤكد على الأفكار والقيم والعوامل الاجتماعية البعيدة عن الأمور التقنية والاقتصادية القوية. ولذا فهو يلقى القبول من جانب هؤلاء الذين يرون أن العوامل الهامة لتطور أوروبا (وتأخر غيرها) كانت تتعلق بالتشكيل السياسى وهيكل العائلة، والدين، وبساطة الفكر والعمل العقلانى.

ثلاث من مجادلات ڤيبر كانت مؤثرة جدًا بين مفسرى "المعجزة الأوروبية". إنها ثلاثة طرق عن طريقها ووفقًا لڤيبر اختلف التطور الاجتماعى فى الغرب عنه (هذا إن وجد أصلاً) فى الشرق (ولا داعى لذكر الجنوب). إن أول وأكبر مجادلة هى نموذج للفرق بين المجتمع المتجدد والمجتمع التقليدى. يتمعن ڤيبر فى الطرق التى تضمن فيها التطور الاجتماعى فى أوروبا الابتعاد التدريجى والثابت للمجتمع عن صلة النسب وعن كل ما يعتقد أنه معتقدات "غير عقلانية" مثل الخرافات. معظم ما يقوله فى هذا الشأن لا مثيل له. ولكن ڤيبر يقارن بين هذا ونموذج خرافى للمجتمعات غير الغربية مثل المجتمع الصينى الذى مازال متأخرًا بسبب أن العشيرة مازالت تشكل الوحدة الأساسية للهيكل الاجتماعى (ولكنها ليست كذلك)، كما أن الصينيين غير عقلانيين فهم لم يستطيعوا تخطى الاعتقاد فى السحر والخرافات (وهذا هراء)(١٧). هذه الأمور تشكل نموذج ڤيبر "للمجتمع التقليدى".

كان علم الاجتماع الأوروبى الأمريكى فى الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٦٥ يتبنى ما يعرف الآن "بنظرية التجديد"، النظرية التى كان يؤمل بأن تقدم الصيغة لجلب التجديد للمجتمعات المتخلفة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. إن المفهوم الأساسى لهذه

النظرية هو مفهوم أن "المجتمعات التقليدية" يمكن أن تنفض عن نفسها غبار التقليدية وتصحو على التطور الاقتصادى من خلال أفكار جيدة جديدة قادمة من الغرب مثل الجميلة النائمة التى يوقظها الأمير. هذا هو النموذج الأساسى لتعميم برامج التطور الاقتصادى المبنية على فكرة أن الأفكار تأتى بالتغيير وأن الصراع الاجتماعى المؤلم لم يكن ضروريًا لهذا التغيير، وأن سبب الفقر والتخلف كان هو التقاليد وليس القهر أو قلة الأرض أو الاستعمار، وكان ذلك متوافقًا مع نظرية ڤيبر عن التغيير، وبالفعل قام باستخدام هذه النظرية.

اليوم فقدت نظرية التجديد بريقها لأننا نعرف أن الفقر ليس نتيجة عدم عقلانية ضحاياه وإنما نتيجة الطمع والأفعال القهرية لأصحاب الأرض والطغاة ومقرضى الأموال وهكذا. كذلك نعرف كعلماء اجتماع أن أفراد الدول الفقيرة لا يعانون من علة ڤيبر "السلوك التقليدى". فهم على العكس يميلون إلى الانتظار بفارغ الصبر لأى فرصة تنتشلهم من هذا الفقر. ولذا يعد "النموذج الڤيبرى" اليوم أقل شهرة عما قبل حرب ڤيتنام. ولكنه مع هذا لا يزال النموذج الأساسى للمؤرخين الذين يريدون تفسير "المعجزة الأوروبية" فى ضوء "عقلانية" الغرب: القدرة على الإبداع، القدرة على الاختراع، القدرة على التطور، الرغبة فى الإنجاز، وهكذا. مع فرضية "لاعقلانية" الحضارات الأخرى. هذا هو أبسط النماذج لتبرير تفوق الأوروبيين وهو خاطئ كليًا.

لقد قارن ڤيبر بين الغرب والشرق بطرق متنوعة معظمها تركز حول أفكاره عن الفرق بين المجتمع التقليدى والمجتمع غير التقليدى وكذلك بين المؤسسات العقلانية وغير العقلانية. وما نجده هو تحليل رائع للمدنية الأوروبية راجعًا إلى العصور القديمة مع تجاهل تام للمدن الحقيقية فى المناطق غير الأوروبية فى الماضى والحاضر. على سبيل المثال، اعتقد ڤيبر أن المدن غير الأوروبية كانت فى جوهرها مقر الحكم السياسى بينما كانت المدن الأوروبية "حرة" ومستقلة، وبالتالى كانت موضع التطور الاجتماعى. إن هذه النظرية فى الحقيقة قديمة جدًا، أضاف ڤيبر القليل إليها ومع ذلك يعود إليه الفضل، فمن المنهج "الڤيبرى" أن تتحدث عن الطريقة التى استطاع بها المجتمع المدنى

أن يقود الحضارة الغربية باتجاه التجديد على عكس ما حدث فى الشرق حيث بقيت المدن تحت رحمة الإمبراطوريات. ولكن لو عقدنا المقارنات المنصفة فترة مقابل فترة بين المدن الأوروبية وغيرها، فنجد أولاً أن كثيراً من المدن فى كلتا المنطقتين كانت متشابهة حتى أوائل القرون الحديثة قبل الثورة الصناعية. ثانيًا: إن الاعتماد على الذات كان أكثر فى الشرق منه فى الغرب. إن فكرة أنه كانت هناك "حرية" فى مدن أوروبا فى العصور الوسطى هى من ناحية خطأ تاريخ مختزل يعكس صفات المدن الحديثة منذ العصور الوسطى، ومن ناحية أخرى خطأ نظرية الانتشار العام التى علقنا عليها سابقًا وهو الذى يرى "الحرية" فى كل ما هو أوروبى و"الاستبداد" فى كل ما هو شرقى.

تهتم المجادلة الثالثة بنظم امتلاك الأرض فى الشرق والغرب. أشاع ڤيبر بالرغم من أنه لم يكن صاحب فكرة أن الحرية الأوروبية فى العصور الوسطى هى أقرب إلى فكرة الملكية الخاصة مع ما تحمله من بوادر التغيير الاجتماعى أكثر من إقطاعيات لانج Lange فى آسيا (وتبقى أفريقيا مثلما هى دائمًا لا تناقش). اعتقد ڤيبر أن أرض الشرق الزراعية الكبيرة بقيت من ممتلكات الدولة أو الملك بينما هؤلاء الذين أتى دخلهم من الفلاحين فى تلك الإقطاعيات لم يكونوا هم أصحاب الأرض ولكن كانوا ممن منحت لهم تلك الأرض مؤقتًا مقابل خدمتهم للدولة. ولذا لم تكن الإقطاعيات ممتلكات حقيقية وكانت مشروطة باستمرار الخدمة. فى الغرب إبان العصور الوسطى، ڤيبر يظن أن العلاقة بين الملك وصاحب الأرض كانت أكثر عقلانية ومبنية على التزامات أخلاقية متنوعة مما يترتب عليه أن منح الإقطاعية للّورد كان يعد منحًا للممتلكات ولم يكن هدية مؤقتة من دخل تلك الممتلكات. من هنا تأتى أهمية مقارنة ڤيبر بين الإقطاعيات الأوروبية (فى جوهرها ممتلكات خاصة) وتلك الآسيوية الممنوحة مؤقتًا مقابل الخدمة. يقول ڤيبر: إن ذلك كان هامًا بالنسبة لتطور الفردية والملكية الخاصة وبالتالى الرأسمالية فى أوروبا وعدم تطور تلك الأشياء فى أى مكان آخر(١٨). الكثير من المفكرين الآخرين تبنوا هذا الرأى - ماركس من بينهم - ولكن النظرية تصنف باعتبارها نظرية ڤيبر. على أية حال، هذه المقارنة ليست حقيقية. إقطاعيات أوروبا فى

العصور الوسطى كانت تمنح على أساس من الخدمة المشروطة مثلما كانت الإقطاعيات غير الأوروبية، وكلتاهما اتجهتا فى أقاليم عديدة أن تتجمد فى ملكية دائمة وتكون بالتالى فردية خاصة. وعلى وجه العموم اتجهت العزب الأوروبية وغيرها لأن تكون لها صفات مشتركة، أما الاختلافات فهى تتعلق بأمور لا علاقة لها من قريب أو بعيد "بالتجديد"(١٩).

بعد أن قيل كل شيء فإن نظريات ماكس ڤيبر عن تفرد أوروبا المزعوم خاطئة لسببين: الصفات الخاصة التى ألصقها بالأوروبيين القدماء فى العصور الوسطى كانت أيضًا صفات لغير الأوروبيين الذين لم يكونوا أكثر تقليدية أو أقل تطورًا أو أقل عقلانية من الأوروبيين، كما أن تاريخ المجتمع ككل، وبوجه عام، هو أكثر بكثير من تاريخ الأفكار.

الهـــوامـــش

(١) Weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (1958a), p. 79ff.

(٢) Weber, Protestant Ethic, pp. 30-31. Also see Weber, General Economic History (1981); Weber, The Religion of China (1951), pp. 230-232.

(٣) Weber, General Economic History, p. 379.

(٤) Weber, General Economic History, p. 299.

(٥) Weber, Religion of China, pp. 231-232.

(٦) Weber, Protestant Ethic, pp. 30-31. Also see Weber, General Economic History, p. 379; Weber, Religion of China, pp. 230-232.

(٧) Weber, General Economic History, Chapter 3. عن نظرية الاستبداد الشرقى انظر Venturi, "The History of the Concept of Oriental Despotism in Europe" (1963); Anderson, Lineages of the Absolute State (1974). وانظر أيضًا الجزء الأول من نموذج المستعمر للعالم الفصل الثانى. يناقش كذلك الاستبداد الشرقى فى الفصول الخامس والسادس والثامن من هذا الجزء.

(٨) انظر Romila Thapar, "Ideology and the Interpretation of Early Indian History" (1982), pp. 389-412 انظر أيضًا الجزء الأول الفصل الثانى.

(٩) Weber, Religion of China, pp. 20-25; Weber, General Economic History, pp. 56-57. Also relevant is The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations (1976), pp. 148, 157-158.

(١٠) Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations, pp. 157-158.

(١١) انظر فى الجزء الأول من نموذج المستعمر للعالم، الجزء بعنوان "آسيا المجدبة المستبدة" فى الفصل الثانى.

(١٢) Weber, The City (1958b).

(١٣) "[إنه] جوهرى لمنهج ڤيبر أن العامل الاجتماعى الفردى هو الموقع الوحيد للإنتاج الإمبريقى للأحداث التاريخية": Ira Cohen, "Introduction" to Weber's General Economic History, p. xx.

(١٤) انظر الفصل الثامن. انظر كذلك المناقشة فى الفصل الأول من نموذج المستعمر الجزء الأول.

(١٥) Weber, Protestant Ethic, pp. 1-31.

(١٦) Weber, Protestant Ethic, pp. 30-31.

(١٧) Kumar, "Private Property in Asia: The Case of Medieval South India" (1985), لوجهة نظر مضادة.

(١٨) Weber, Religion of China, pp. 95-100.

(١٩) يتأمل ڤيبر فى عوامل تاريخية أخرى تفضل الأوروبيين. البيروقراطية الأوروبية عقلانية بينما هى ليست كذلك فى الحضارات غير الأوروبية. انظر على وجه الخصوص Weber's Economy and Society (1968). ارتبط امتلاك القطعان "بالفردية" لدى الأوروبيين القدماء (Agrarian Sociology of Ancient Civilizations, p. 37) كانت المدينة اليونانية مصدر للعلمانية والرأسمالية (Weber, Agrarian Sociology, p. 158; Religion of China, p. 15)، وهكذا.

الفصل الثالث

لين وايت الابن:

المخترعون الأوروبيون

صدر كتاب بعنوان" تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الثقافى" عام ١٩٦٢ وسرعان ما أصبح أحد أكثر المقالات قراءة ومناقشة فى التفسير التاريخى. كان المؤلف هو الراحل لين وايت الابن المؤرخ الأمريكى البارز(١). يعد الكتاب فى حد ذاته جهداً لشرح كل الملامح الأساسية للتغير الاجتماعى فى العصور الوسطى، وإلى حد ما العصر الحديث، وهذا فى ضوء حتمية تكنولوچية متشددة. الحتمية التكنولوچية هى الادعاء بأن التكنولوچيا الجديدة هى السبب الأساسى للتغير التاريخى بغض النظر عن محاولة شرح أصول التكنولوچيا نفسها.

تركيب مجادلة وايت بسيط ومباشر. إبان العصور الوسطى اخترع الأوروبيون، وفى حالات قليلة استعاروا من آخرين، عدداً من الأدوات التكنولوچية الثورية، وبفضل تلك الابتكارات التكنولوچية تقدمت أوروبا أولاً باتجاه الإقطاع ثم الرأسمالية والحداثة. لو نحينا جانبًا فى معرض حديثنا التعليق عن "خيال" و"موهبة" و"ديناميكية" الأوروبيين سنجد أن مجادلة هذا الكتاب هى الحتمية التكنولوچية بمعناها الضيق. بادئ ذى بدء لدينا هنا مثال نموذجى. اختراع الركاب الحديدى فى أوائل العصور الوسطى كان له "تأثير تحفيزى.. تاريخى". فقد أعطى المجال لشكل جديد أكثر كفاءة من الحرب

باستخدام الحيوانات. وقد أدى هذا بالتالى إلى ظهور ظاهرة فارس العصور الوسطى، مما أدى بدوره إلى ظهور الإقطاع (عندما أصبح الفرسان لوردات العزب). وأخيراً،

> أصبح [ال] رجل على ظهر الحصان كما عرفناه خلال الألفية الماضية ممكنًا عن طريق الركاب. (P.38)(٢)

ولكن مجادلة وايت الأساسية تهتم بالتكنولوچيا المنتجة وبخاصة فى مجال الزراعة. لو وضعنا تلك المجادلة تحت الاختبار، وبشىء من التفصيل، فسوف نميط اللثام عن أحد الجذور الرئيسية للتاريخ النفقى للمركزية الأوروبية فى شكله الحالى اليوم.

ثورة زراعية فى العصور الوسطى

يجزم لين وايت بحدوث ثورة زراعية خلال العصور الوسطى فى أوروبا، وفى أوروبا وحدها: (كما يحدد أن مسرح الأحداث هو شمال أوروبا). فهو يعتقد أن تلك الثورة تضمنت ثلاثة ابتكارات أساسية: "تقديم المحراث الثقيل، لجام الخيل، واستخدام قوة الحصان وبخاصة فى الحرث ونظام الدوران الثلاثى". يرجع وايت أصل المحراث الثقيل الذى يجره ثمانية ثيران إلى وسط أوروبا فى القرن السادس، كما يعتبره وايت قد انتشر فى شمال وشمال غرب أوروبا فى ظل حكم شارلمان CHARLEMAGNE(*) كما ساهم فى النشاط التوسعى لملكة كارولينچى CAROLINGIAN(**) فى القرن الثامن (P54).

(*) CHARLEMAGNE تشارلز العظيم ملك الفرانك (FRANKS) شعب من الشعوب الچيرمانية فى أوروبا، عرف بغزواته الكثيرة وإصلاحاته الداخلية. (المترجمة)

(**) CAROLINGIAN كارولينچى: عائلة نبيلة من الفرانك حكمت فرنسا وجزءًا من ألمانيا فى الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر. (المترجمة)

يعد وايت محقًا حينما يلفت الانتباه، كما فعل آخرون من قبله، إلى أهمية المحراث الثقيل كابتكار زراعى فى المناطق الباردة المطيرة فى أوروبا. فقد كان مفيدًا فى فتح مسام التربة الطينية الثقيلة فى سهول أوروبا مما سمح بالعمل فيها على أعماق بعيدة، الأمر الذى كان من الأهمية الكبيرة فى ظل طقس شمال أوروبا الرطب. كما يمكن القول بأنه كان شرطًا ضروريًا للانتشار المكانى للزراعة المكثفة إلى حد ما فى بعض الأنواع النمطية من تربة الشمال، وربما بالنسبة لأول اختراق زراعى لأراضى المستنقعات التى تمتد باتجاه الشرق من هولندا عبر شمال ألمانيا وما بعدها، وصعوبة تربة المنحدرات فى الأقاليم المطرة مثل بعض مناطق غرب وشمال الجزر البريطانية. ولهذا يرجع الفضل للمحراث الثقيل فى الزيادة الإجمالية للإنتاج الزراعى فى أوروبا فى العصور الوسطى، وذلك لأنه وسّع من الأراضى المزروعة كما زاد من الإنتاجية.

لاحظ، بالرغم من هذا، أنه يمكننا أن نقبل بتلك التعميمات دون الوقوع فى براثن الحتمية التكنولوچية. لم يكن المحراث الثقيل انحرافًا جذريًا عن المبادئ المتضمنة فى الأنواع الأقدم والأخف من المحاريث التى طال استخدامها فى جنوب أوروبا (حيث التربة أكثر جفافًا وخفة مما لا يدع مجالاً للعمل فى أعماق بعيدة). وعليه فإن أى محاولة تؤدى بالفلاح الشمالى إلى محاولة توسيع المساحة المستزرعة وزيادة الإنتاج فى التربة الرطبة يمكن بالتأكيد أن تقوده إلى القيام بتعديلات تكنولوچية بسيطة باستخدام تكنولوچيا المحراث فى التربة فى الشمال. وبالرغم من هذا يبدأ لين وايت مجادلته مستخدمًا الأداة وليست الثقافة، فيجانبه النجاح فى ملاحظة القوى الاجتماعية للإقطاع تلك التى كانت تؤدى بطبقة اللوردات لمطالبة الفلاحين بتقديم فائض أكبر وبالتالى إجبارهم على زيادة إنتاجيتهم بأى وسيلة، وكذلك القوى الاجتماعية التى كانت تدفع اللوردات إلى زيادة مساحة إقطاعياتهم عن طريق تشجيع الاستقرار (لمصلحتهم وليس مصلحة الفلاحين) الذى كان معظمه فى الهامش الزراعى الرطب فى شمال أوروبا، وأخيرًا رغبة الفلاحين المعقولة فى زراعة طعام أكثر لأنفسهم إذا نحينا كل القوى الأخرى جانبًا.

بالنسبة لوايت كان المحراث هو السبب، والتغير الاجتماعى هو الأثر المترتب عليه الذى اعتبره أثرًا ثوريًا بكل معنى الكلمة. يقدم وايت الشكر للمحراث الثقيل الذى أدى إلى نمو هائل فى تعداد السكان. ثم جاء التحول لنظام "الحقل المفتوح" فى الزراعة (النظام الذى كانت تحرث فيه شرائط طولية غير مقسمة من الحقول، حيث تزرع كل أسرة شريطًا أو أكثر فى الحقل)، وقد أدى ذلك الابتكار التكنولوچى، فى رأى وايت، إلى أنماط "جماعية" جديدة للتعاون الإنسانى - لاحظ، هنا إنكار واضح لوجود أنماط جماعية سابقة فى الزراعة كما اعتقد الماركسيون وعلماء الأنثروبولوچيا - ومن ثم إلى نظام العزب. وفقًا لوايت كان "جوهر اقتصاد العزب" هو استغلال مشترك للحقول الكبيرة المفتوحة، الأمر الذى أدى بالقرويين إلى التعاون فى اتخاذ القرارات - متجاهلين الحقيقة الأساسية بأن اللورد وليس القروى هو الذى يمتلك العزبة (P.44). شكرًا للمحراث الثقيل، فقد كان الهيكل الاجتماعى مختلفًا جداً، والأكثر أهمية هو ذلك "التغيير" الذى حدث بعد ذلك [فى] "توجهات الفلاحين الشماليين ناحية الطبيعة"، باعتبارها ملكًا لنا (تأكيدى أنا ,P.56). ويستتبع هذا مجادلة لافتة للنظر:

> منذ زمن بعيد كانت الأرض موزعة بين الفلاحين على هيئة حصص على الأقل نظريًا تكفى لإعاشة أسرة... ثم فى أوروبا الشمالية وفيها وحدها أحدث المحراث الثقيل تغييرًا فى أساس التوزيع: أصبح لدى الفلاحين الآن شرائط طولية من الأرض تعتبر متناسبة مع مدى مشاركتهم فى فريق الحرث. ولذا فإن مقياس توزيع الأرض لم يعد هو احتياجات الأسرة... لا يمكن تخيل تغييرًا أكثر جذرية فى فكرة علاقة الإنسان بالتربة: فقد كان الإنسان جزءًا من الطبيعة، أما الآن فهو المستغل الأول لها (P.56).

هنا نجد قفزة هائلة من محراث فترة العصور الوسطى الأولى إلى اتجاهنا الحديث ("فهى تخصنا") نحو الطبيعة وإذا نحينا هذا جانبًا فإن الدليل لا يعضد منطق وايت. هناك هدفان أساسيان أحدهما وحده كفيل بهدم الأطروحة كلها. لا يوجد لدينا دليل تاريخى وأركيولوچى كاف لاختبار الأمر على نطاق عالمى، ولكن الدليل لدينا يقترح(١): لم يتم اختراع المحراث الثقيل فى أوروبا (أو فى أوروبا وحدها) و(٢) وصل لشمال أوروبا

قبل الوقت – وقت الضرورة – الذى افترضه وايت: الوقت الذى كان فيه تعداد السكان فى طريقه للنمو بعد عصور الظلام وبعد أن بدأ نظام إقطاع العزب فى بناء نفسه على نطاق واسع.

فى شمال الهند كانت المحاريث الثقيلة التى كان يجرها أربعة وعشرون ثورًا مستخدمة فى القرنين الخامس والسادس قبل المسيح. كما كانت المحاريث الثقيلة بأجزائها الحادة موجودة فى بريطانيا أثناء الإمبراطورية الرومانية ومما لا شك فيه فى مناطق أخرى فى شمال أوروبا فى نفس الوقت(٣). وبالمثل فإن نظام الحقل المفتوح كان وفقًا لأوروين Orwins فى عملهم الكلاسيكى. فى هذا الشأن الحقول المفتوحة وسيلة من وسائل الزراعة التى امتدت فى سهول أوروبا ووسط أسيا فى الأزمنة البدائية(٤). أى أن لدينا من الأدلة التاريخية ما يؤثر على مجادلة لين وايت. على وجه التحديد، لا يوجد شىء "أوروبى" محض فيما يتعلق بالأفكار الأوروبية بخصوص الطبيعة – هذا إذا كان لديهم أى علاقة بشأن تبنى فكرة المحراث الثقيل ولكن هذا ليس صحيحًا.

يقودنا هذا إلى الاعتراض الثانى حيث لا وزن للسلسلة السببية. لا يمكن أن يكون هناك ارتباط كبير بين استخدام الحرث العميق وأى تغيير هام فى التنظيم الاجتماعى (ناهيك عن الاتجاهات ناحية الطبيعة)، سوى تلك التغييرات التى ارتبطت بالتوسع فى الاستقرار وتعداد السكان فى هذا الإقليم وذاك الوقت. لم تُظهر قرى شمال أوروبا درجة أكبر من التعاون من قرى الجنوب التى استخدمت المحاريث الخفيفة بأعداد أقل وذلك لأنها كانت أكثر ملاءمة للتربة الجنوبية الجافة والخفيفة. ولم يكن المحراث الثقيل ليؤدى، على أية حال، إلى الآثار "المشتركة" التى نسبها إليه وايت الذى يطلب منا أن نقبل على الأقل ثلاثة افتراضات خاطئة: إن الزراعة السابقة كانت أمرًا يتعلق بالممتلكات والعمل الفردى – وحتى الخاص –، وإن كثيرًا من الأسر اضطرت إلى العمل معًا فى فريق الحرث (يقدم كتاب يوم الحساب نسبة فريق الحرث إلى الأسرة ما بين ٢:٣ و٣:٥ فى إنجلترا وهذا يعنى أن الأسرة الواحدة تكون فريقًا)(٥)، كما أن نظام العزب، الصفة الأساسية للإقطاع، كان فى الأساس نتيجة الابتكار التكنولوجى.

يبدو من المعقول أن ننظر إلى المحراث الثقيل كعنصر واحد فى تركيبه من التغييرات التى ارتبطت بالجهد المثمر من جانب فلاحى الشمال لتوسيع حدود مناطق زراعاتهم وذلك قبل ظهور الإقطاعية الحقيقية فى شمال أوروبا. ومما لا شك فيه أن المحراث قد انتشر على نطاق أوسع فى فترة الإقطاع ولكن على ما يبدو كان هذا انعكاسًا للأسباب المشتركة من نمو السكان (المرتبطة بالتهدئة العامة) والاستغلال الإقطاعي المكثف – أى زيادة الحاجة للغذاء وزيادة الطلب على الفائض من قِبل اللوردات – وليس القوة الغامضة للتقدم التكنولوجي. إن مجادلة وايت كما يصورها أحد الباحثين الأوروبيين تقلل من شأن "الحماسة (للتقدم) للدرجة التى تنسى فيها الحاجة للتحقق التاريخى"(٦).

يصف وايت التقدم الثورى الثانى على أنه "اكتشاف قوة الحصان" (P.57). كانت الخيول موجودة بالطبع منذ زمن الابتكار الأساسى، وهو وفقًا لوايت كان لجام الخيل والذى اعتقد أنه "نتيجة تطور بطيء فى الغرب". بالرغم من تسليمه بأن هناك بعض الأدلة التى تفيد بأنه ربما انتشر من وسط آسيا. (يجب أن أتوقف هنا لتقديم ملاحظة عامة على أسلوب التفسير الذى استخدمه، ليس وايت فقط ولكن، معظم مؤرخى المركزية الأوروبية الذين يتخذون من الحتمية التكنولوجية تكئة لمجادلتهم حيثما أمكن، فهم يعتقدون أن الأوروبيين هم الذين اخترعوا التكنولوجيا. وحيثما كان ضروريًا نجدهم يسلمون بمصدر غير أوروبى ثم ينتقلون بسلاسة وسرعة للمجادلة بأن الأوروبيين وحدهم هم الذين عرفوا كيفية الاستخدام. مثال البارود هو النموذج لهذه الطريقة فى التفكير. فقد اخترعه الصينيون كما يعرف كل طفل فى المدرسة ولكنهم اخترعوه للألعاب النارية فقط. ولكن الأوروبيين هم الذين استخدموه فى الأسلحة. سأتناول هذا الموضوع بالمزيد من الشرح فى فصول قادمة) وعلى أية حال فإن لجام الخيل كان قد تطور واستخدم على نطاق واسع فى شمال أوروبا فى القرن التاسع. ثم تتقدم المجادلة من هذا الابتكار الأوروبى المفترض لنتيجة أنه قد ساهم فى تحول الزراعة ونقل الحبوب فى شمال أوروبا حوالى القرن الثانى عشر حيث استخدمت الخيول محل الثيران فى جر المحاريث الثقيلة والعربات. يوضح وايت، وهو محق فى هذا،

أن الحصان يجر نفس الوزن الذى يجره الثور تقريبًا ولكنه يقوم بهذا بصورة أسرع ٥٠٪. ومن تلك الحقيقة يستنتج نتائج مذهلة. بداية كانت هناك زيادة هائلة فى الإنتاج الزراعى. ارتفعت كثافة الحركة التجارية، لأن النقل بواسطة قوة الحصان كان (طبقًا لوايت) أرخص بكثير من قوة الثور. كبر حجم القرى التى أصبحت بمثابة المدن الصغيرة وذلك بسبب بعد المسافة بين البيت والحقل مما أسفر عن مساحة أكبر من الفدادين المزروعة تقع فى نطاق القرية، كما أتاح كبر حجم القرى الفرصة لوجود "ميزة الحياة الحضرية" سامحًا بوجود كنيسة وفندق صغير ومدرسة (يمكن للأطفال الصغار "أن يتعلموا دروسهم" P.67). كذلك تجارة أوسع مع العالم الخارجى واتصال مكثف - "تأتينا الأخبار من أماكن بعيدة" - الأمر الذى يعد تحولاً كبيراً لما له من أهمية عميقة:

> فى أعماق العصور الوسطى أرست "مدنية" العمال الزراعيين الأساس للتغيير فى ثقافة الغرب من الريف للمدينة، الأمر الذى أصبح ماثلاً للعيان بصورة واضحة فى القرون الحديثة. فقد مهد هذا الأمر الفلاحين من الناحية النفسية للتغير الكبير وربما ساعدهم على تبنى مواقف وأجسام مضادة روحية من شأنها التقليل من الصدمة الاجتماعية للتطورات المتتابعة (P.68).

وكل هذا من ابتكار وحيد ألا وهو لجام الخيل.

ولكن لجام الخيل الحديث كان مستخدمًا منذ قرون سابقة فى الصين. يشك نيدهام NEEDHAM فى أنه كان منتشراً فى آسيا الأوروبية Eurasia منذ عهد بعيد وربما يكون قد اخترع للجمال(٧). وعليه فربط هذه الأداة مع "التغير الكبير" فى ثقافة الغرب يعد خطأً - خطأ حين نقوم بإقامة تلك العلاقة السببية، كما أنه خطأ لتجاهلنا ثقافة الشرق.

مرة أخرى هناك اعتراض ثان. بداية فإن الزعم بأن للحصان مزايا أكثر من الثور فى الحرث وحتى فى المواصلات أمر مشكوك فيه(٨). كان الحصان أكثر كفاءة ولكنه أكثر كلفة فى صيانته: من بين الأشياء الكثيرة كان يجب تخصيص أجزاء من الأرض لزراعة الشوفان والقش لتوفير الغذاء للخيول، مما يعنى عمالة أكثر فى الزراعة يقابلها

مساحة أرض أقل لتوفير الغذاء. فى إنجلترا لم يحل الحصان محل الثور إبان العصور الوسطى وإذ ربما يكون هذا قد حدث فى بعض المناطق الأخرى فلا يمكننا مع ذلك قبول المجادلة العملية بأن الحصان (أو لجام الحصان) هو الذى أدى إلى التجارة والمدنية (والتعليم وغيره). فى مناطق كثيرة فى العالم خارج شمال أوروبا كانت القرى أكبر فى تلك الفترة، كما كانت إنتاجية الفدان أعلى، ومع ذلك كانت الثيران وجاموس الماء تستخدم بدلاً من الخيول. يمكن أن نلاحظ أن نقل الحبوب فى الصين فى ذلك الوقت كان يتم عبر مراكب فى القنوات - التى كانت أرخص من استخدام الخيول وقد كان بناء القنوات لا يكلف الكثير، كما كان سهلاً فى صيانته فى سهول شمال أوروبا أكثر منه فى الصين، ومع ذلك فقد تم تجاهله فى أوروبا حتى بعد انقضاء العصور الوسطى.

وأخيراً، يسترعى لين وايت انتباهنا إلى نظام دوران الحقل الثلاثى والذى "انقض علينا فى أواخر القرن الثامن بعد اختراعه فى شمال فرنسا وانتشاره ببطء حتى وصل إنجلترا فى القرن الثانى عشر" (P.69) يعد جزء من هذه المجادلة الآن مألوفاً: حتى فى منهج التاريخ فى المدرسة الثانوية تعلمنا أن نظام الحقل الثلاثى كان يعتبر تقدماً كبيراً على نظام الحقل الثنائى القديم. فقد تعلمنا أنه زاد نسبة المحصول للأرض البور من ١:١ إلى ٢:١ تقريباً، كما وسع العمل الزراعى لفترة أطول خلال العام. ومع ذلك لا نجد وايت مقتنعاً بالمجادلة بزيادة إنتاجية الفدان (كما يعتقد فى زيادة إنتاجية العامل). ونجده يضيف زيادة انتشار إنتاجية الشوفان وذلك لأن زيادة الأرض المزروعة تساوى زيادة العلف وبذلك يظل الاعتماد على الحصان قائماً. "ولكن يتشكل الناس كذلك بالمصادر الجديدة" - فمحاصيل البقوليات من البازلاء والفول كانت مكونات عادية لنظام دوران الحقل الثلاثى. (يحمل هذا الجزء فى كتاب وايت عنوان "نظام دوران الحقل الثلاثى والتغذية المحسنة") وهنا تصل الحتمية التكنولوجية لدى وايت قمتها:

> لم تكن كمية الغذاء التى أنتجتها الوسائل الزراعية المعدلة، ولكن أنواع الغذاء الجديدة والتى تفسر بالنسبة لشمال أوروبا على الأقل النمو المذهل فى تعداد السكان، توسع وزيادة المدن، نهضة الإنتاج الصناعى، وتوسع التجارة بالإضافة إلى الحيوية الفياضة التى أنعشت هذا العصر (P.76).

وباختصار يقول لين وايت الابن إن العصور الوسطى "كانت مفعمة بالحياة" (P.76).

لا يمكن أن نأخذ شيئًا من ذلك على محمل الجد. فمجادلته (المالثوسية باعترافه هو) بأن تعداد السكان فى السابق كان متأثرًا بنوع من المجاعة ("نظام غذائى قائم على الكربوهيدرات"، (P.75) لا يوجد ما يعضدها تاريخيًا أو علميًا. لم يكن المزارعون المستخدمون لنظام دوران الحقل الثنائى يعتمدون نظامًا غذائيًا فقيرًا فى البروتينات حيث:

(١) زراعة البقوليات سبقت نظام الحقل الثلاثى فى أوروبا.

(٢) الحبوب تحتوى على البروتينات.

(٣) الفواكه والمنتجات الحيوانية والخضروات غير البقولية كانت تستهلك بكميات كبيرة فى الفترات السابقة.

والأكثر أهمية من ذلك، أن معظم الباحثين الأوروبيين وبخاصة الجغرافيين التاريخيين (الذين يعرفون شيئًا ما عن الزراعة) يوافقون على أن نظام الحقل الثلاثى كان مختلفًا عن فكرة وايت عن النظام. فقد كان بما لا يدع مجالاً للشك تعديلاً هامًا للتقنية فى جزء من شمال أوروبا، ولم ينتشر فى بعض الأقاليم الأخرى لأنه لم يكن دائمًا يعتبر تطورًا عما عداه من نظم الدوران الأخرى بما فيها بعض مناطق نظام الحقل الثنائى. فقد تبنته بعض المناطق فى أوروبا ثم هجرته مفضلة نظام الحقل الثنائى. إن الصورة التى رسمها لنا هؤلاء الباحثون توضح أن معظم مزارعى أوروبا فى الشمال كانوا يستخدمون ابتكارًا جديدًا جيدًا حسّن من إنتاجيتهم إلى حد ما بينما كان هناك آخرون (كانوا أيضًا يتبعون نظامًا غذائيًا جيدًا) وجدوا هذا الابتكار غير مناسب ولذا رفضوه. هناك بون شاسع بين هذا والخصب والوفرة و"الحيوية الفياضة" لدى وايت. لم يكن نظام دوران الحقل الثلاثى أكثر النظم كثافة وإنتاجية فى أوروبا فى تلك الفترة: ويبدو أنهم كانوا يزاولون الجنى المستمر فى أجزاء من شمال أوروبا وهولندا وبعض المناطق الزراعية "خارج وداخل الحقل" (بعض المناطق المُسمدة)، ويبدو من المعقول أن نخمن أن كثيرًا من الأقاليم الأوروبية حيثما وجدت علاقة جيدة بين مغذيات التربة والمياه، استخدمت الجنى المستمر وبدون أى خسارة للتربة[٩]. فى حين لم يكن نظام

دوران الحقل الثلاثى مفضلاً فى بعض المناطق التى كانت تستخدم فيها الأرض البور للرعى (حيث إنها قللت درجة بوار الأرض وزادت من مساحة الأرض المستخدمة فى زراعة المحاصيل)، كما إنها لم تكن مناسبة فى بعض أنواع التربة الفقيرة التى كانت تحتاج إلى فترات أطول تترك فيها الأرض بدون زراعة. وباختصار، فإن الصورة معقدة جداً. أضف إلى ذلك أن الدوران المستمر فى أرض لا تترك بلا زراعة مع وجود الرى أو عدمه كانت موجودة فى مناطق أخرى من العالم وقد كان بعضها فى غاية التعقيد والكثافة. ولذا فإن أى ميزة يمكن ادعاؤها فى نظام الدوران الثلاثى الأوروبى يمكن كذلك التسليم بوجودها لدى المزارعين من غير الأوروبيين.

ولكن مرة أخرى فإن جوهر الأمر هو العلية. إن تبنى نظام الحقل الثلاثى كان مثالاً لعملية تكثيف عادية تحدث فى العالم كله فى أنظمة الزراعة، حين لم يجد الفلاحون أرضًا كافية وحين فرض اللوردات توفير زيادة مستمرة فى الفائض. الفلاحون فى كل مكان مخترعون.

الإبداع التكنولوچى

من بين أكثر الطرق ضيقة الأفق والتى تنظر للتاريخ اليوم نجد أن الحتمية التكنولوچية هى أكثرها ملاءمة لوجهة نظر التاريخ النفقى للمركزية الأوروبية. فلها مظهر وإيحاء الحقيقة العلمية الباردة: "هذا الشىء تم اختراعه هنا فى هذا التاريخ بواسطة هؤلاء الناس، وأنتج هذه الآثار". ولذا عندما نتحدث عن أمور التكنولوچيا يمكن أن ننكر دائمًا دخول المركزية العرقية فى الصورة، فنحن نتحدث عن الحقائق. هل يمكن أن تجادل الحقائق؟ قارن بين طريقة التفكير هذه وبين أشكال الحتمية الأخرى التى ترتكز على مفاهيم من الصعوبة تعريفها وتحديد مواضعها: المجادلات المبنية على نظم القيم والتنظيم الاجتماعى، وما شابه. لو حاولنا مقارنة الثقافات على أساس تلك الخصائص، يمكن أن نجد الاتهام بأن المعايير والمقاييس مركزية عرقية.

على الأقل من الصعب أن نثبت أن نظام قيم ما أو نظامًا عائليًا ما، أو ديانة ما، أو ما شابهها أكثر تقدمًا وأكثر حداثة من غيرها. ليس من الصعوبة نهائيًا أن نثبت أن أداة معينة تنتج غذاءً أكثر أو قماشًا أكثر أو إصابات لدى العدو أكثر من غيرها، ولذا نجد هذه النوعية المقنعة من المجادلات التى تتركز على التكنولوچيا. ونجد التفضيل لتلك النوعية من المجادلات والأدلة فى محاولة لإثبات تفوق الأوروبيين فى كل وقت وبخاصة العصور الوسطى.

ولكن الحتمية التكنولوچية ليست بتلك الضخامة. فالتكنولوچيا المادية ليست حية، فهى لا تتطور مثل النباتات أو الحيوانات تبعًا لقوانين خاصة. نجد لدينا أداة جديدة، ليس عن طريق الطفرة، وإنما من أداة قديمة ويجب أن نفسرها. ولتفسيرها يجب أن نحول الركيزة الأساسية للمجادلة كلها لأرضية أخرى. الأدوات أشياء مادية، فهى تقع فى المنطقة البينية بين الثقافة والطبيعة، ولذا يمكن تفسير جذورها مستخدمين القوى الثقافية، أو القوى الثقافية التى تتفاعل مع البيئة ولكن هذا لا يتسنى لنا فى ضوء الأدوات المادية.

ولذا يجب للحتمية التكنولوچية أن تذوب فى شىء آخر، فى مجادلة هى أن التكنولوچيا ليست هى التفسير ولكنها الشىء المراد تفسيره. ويمكن للتفسير بدوره أن يثبت أنه مجادلة عن "قيم" معينة، أنواع معينة من التراكيب الاجتماعية، ديانات معينة وهكذا تلك التى يزعم بأنها مفضية للاختراع والابتكار التكنولوچى أم لا. هذه هى النقطة الهامة، وستظهر أهميتها فى تفسيرات تغير ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى بعد قليل(١٠).

يتمسك لين وايت بنظرية محددة وهى الخاصة بسبب اختراع الأوروبيين فى العصور الوسطى للأدوات التكنولوچية التى دفعت بهم نحو الحداثة بصورة فريدة. ما زالت هذه النظرية هى الاعتقاد بأن الأوروبيين بطبيعتهم هم أكثر قدرة على الاختراع، وأكثر ابتكارًا وخلقًا من غيرهم، ويعتقد وايت أنه يعرف لماذا.

التكنولوجيا، علم البيئة، العقلانية، الدين

بعد ظهور تكنولوجيا العصور الوسطى والتغيير الاجتماعي بعدة سنوات نشر لين وايت مقالاً على درجة كبيرة من الأهمية والتأثير بعنوان "الجذور التاريخية لأزمتنا البيئية"(١١). ظهر المقال في الدورية العلمية "العلم" إبان نهضة الحركة البيئية في الولايات المتحدة والوعي بوجود أزمة بيئية. يقول وايت: لكي نتعامل مع الأزمة يجب أن نبدأ "بنظرة تاريخية عميقة إلى المسلمات التي تشكل أساس البيئة والعلم"(١٢)، فماذا نجد؟ "شيئًا واحداً مؤكداً ويبدو من الغباء أن نعبر عنه بصورة لفظية: التكنولوجيا الحديثة والعلم الحديث كلاهما غربي بصورة مميزة"(١٣). "منذ القرن الحادي عشر وما بعده زاد القطاع العلمي ثقافة الغرب وأصبح في تصاعد ثابت"(١٤). "ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت أوروبا قد استحوذت على دور القيادة العلمية في الكرة الأرضية"(١٥). ولـذا:

> حيث إن حركاتنا التكنولوجية والعلمية بدأت واكتسبت شخصيتها وحققت سيطرتها على العالم في العصور الوسطى، يبدو أنه لا يمكننا أن نفهم تأثيرها في الوقت الحاضر على البيئة بدون اختبار الافتراضات الرئيسية في العصور الوسطى وتطوراتها(١٦).

اتضحت تلك "التطورات" من خلال تلخيص لنظرية وايت عن المحراث الثقيل (التي سبق أن ناقشناها)، ثم يتجه وايت بعد ذلك إلى "الافتراضات" التي هي في الحقيقة تذكرة بماكس ڤيبر بالرغم من عدم استشهاد وايت به (بدون شك بسبب أنه وڤيبر كانا يقدمان نظرية يتمسك بها الكثيرون). إن "الافتراضات" هي أمور تتعلق بالعقلانية والدين.

> يبدو أن الإبداعات [التكنولوجية] الجديدة في تناغم مع نماذج فكرية أكبر. يتوقف ما يقوم به الناس حيال بيئتهم على علاقتهم بالأشياء من حولهم. تتأثر البيئة البشرية بالمعتقدات عن طبيعتنا وقدرنا – أي الدين(١٧).

ولكن سرعان ما يتقلص تصنيف "الدين" إلى "المسيحية الغربية". هناك فى الواقع افتراضان. الأول هو "الغائية اليهودية والمسيحية" التى يقول وايت أنها مصدر "إيمان الغرب بالتقدم الدائم"، إنه الإيمان الذى يقول عنه وايت أنه لا وجود له فى غيره من الديانات وينتقل فقط خلال الأشكال الغربية للمسيحية[١٨]. والثانى هو "الإدراك النابع من إرادة الدوجماتيكية المسيحية فى الغرب بسمو الإنسان وسيادته المشروعة على الطبيعة". أى الفصل بين الإنسان والطبيعة. الطبيعة بالنسبة للمسيحى (أو بالأحرى المسيحى الغربى) جامدة ولا قيمة لها. إنه من الكفر "الزعم بوجود روح فى الطبيعة". الشجرة بالنسبة للمسيحى ليست أكثر من حقيقة فيزيائية. "تقدم علمنا وتكنولوچيتنا من مواقف المسيحية تجاه علاقة الإنسان بالطبيعة"، ولذا "تحمل المسيحية عبئًا كبيرًا من الذنب" نحو أزمتنا البيئية[١٩]. ويختم وايت بقوله "حيث إن جذور مشكلتنا دينية فى الواقع، لذا يجب أن يكون العلاج دينيًا فى الأساس"[٢٠].

أى يبدو أن وايت حتمى دينى وليس حتميًا تكنولوچيًا. أو بالأحرى كليهما معًا: واحدًا وراء الآخر، فى رأيه أن شكلاً واحدًا من الديانة المسيحية هو الذى أنتج قدرة الأوروبيين الفريدة على الابتكار العلمى والتكنولوچى، ومن هنا نجد أن تدفق التكنولوچيا الجديدة خلال العصور الوسطى هو الذى أفضى بدوره إلى حداثة أوروبا.

يمكن أن نتبين عددًا من الأخطاء الخطيرة فى هذا الرأى. واحدًا من أكثر تلك الأخطاء وضوحًا هو عدم انتباه وايت لتعاليم الديانات الأخرى. ثم نجده يبعث الحياة فى خرافة قديمة للمركزية الأوروبية مفادها أن الوثنيين القدامى وأتباع الديانات الحديثة من غير المسيحية (واليهودية) غير قادرين على الفصل التام بين الإنسان والطبيعة: فهم يشتركون فى الرأى البدائى بأن الأرواح تسكن كل شىء[٢١]. بالرغم من ذلك نجد دارسى الديانات المقارنة على علم أن فكر الديانات الآسيوية والإفريقية به آثار قريبة الشبه بالمسيحية بما فيها من ازدواجية ونوع من المادية[٢٢].

ثانيًا، يرتكب وايت خطأ (بالنسبة لمؤرخ) وهو اختزال التاريخ: فى هذه الحالة يأخذ حقائق وصفات ومواقف جديدة ويلصقها خطأ بأزمنة ماضية. إن موقف الأوروبيين المحدثين من الطبيعة هو فى الأساس نتاج الفترة منذ نهضة الرأسمالية، والأهم من ذلك،

منذ الثورة الصناعية. لقد أثمرت نهضة الرأسمالية نوعًا من التعامل مع العالم الطبيعى على أنه "بضاعة" وهو الذى ارتبط بفكرة الثمن بدلاً من القيمة إذا جاز التعبير. وبذلك تحولت المواقف تجاه الطبيعة وحدث ذلك بصورة مفاجئة. أما وايت فعلى العكس كان يرى أن الفكر الأوروبى اتجه لإيجاد مكان واضح للإنسانية داخل الطبيعة. وعلّمت الكاثوليكية مبادئ الوفرة والوحدة وعدم الانفصال وفكرة "سلسلة الوجود الكبرى" التى، وفقًا لها، لم يترك الله أى ثغرات فى الطبيعة ولا فجوات فى سلسلة الوجود، كذلك كانوا يعتقدون فى فكرة أن أى كيانات أخرى غير البشر لديها روح على نحو ما، ولم يكن ذلك يعتبر تجديفًا[٢٣]. نرى هنا أن تصنيف وايت "المسيحية الغربية" هو فى الحقيقة "مسيحية ما بعد عصر الإصلاح الدينى" وهذا خطأ من حيث وجهة النظر فى المسيحية فى العصور الوسطى، وبالتالى فهو مخطئ كذلك فى إشاراته الكثيرة إلى "الغائية المسيحية اليهودية" على أنها جذور أفكارنا الحاضرة عن الفصل بين الإنسان والطبيعة وعن العلم وما إلى ذلك.

انبثقت التكنولوچيا والعلم الحديث من فترة أوائل الرأسمالية[٢٤]، وهذا يقودنا للخطأ الثالث الخطير. لين وايت مثل ماكس ڤيبر وغيرهما كثيرون من مفكرى المركزية الأوروبية فى الماضى والحاضر يعتقدون أن انتصارات الثقافة الأوروبية الحديثة بما فيها التكنولوچيا والعلم لا تعكس تحولات تاريخية حديثة مثل نهضة الرأسمالية وتوسع أوروبا بعد ١٤٩٢، ولكن لها جذور عميقة فى النفس والثقافة والتاريخ الأوروبى[٢٥]. فى العصور الوسطى وما بعدها كان الأوروبيون متفوقين بنفس الدرجة التى هم عليها الآن. لقد كانوا دائمًا متفوقين أيًا كان السبب (العرق، الدين، البيئة، الثقافة)؛ وفى الحقيقة يعد هذا الاعتقاد خطأ كما نوضح فى هذا الكتاب وحينما نستخدم التاريخ الإمبيريقى نجد تاريخ المركزية الأوروبية النفقى الذى يتجاهل الحضارات السابقة لغير الأوروبيين. نعرف الآن ما يكفى عن تاريخ العلم الصينى والهندى والإسلامى ما يجعل فكرة أن العلم الأوروبى والتكنولوچيا الأوروبية لم يكونا بأى وسيلة من الوسائل أكثر تفوقًا فى الفترة السابقة للفترة الحديثة، واضحة جدًا - بعد انتهاء العصور الوسطى بدأت الرأسمالية فى النهوض... إلخ. لكل حضارة نزعات معينة لفرع أو آخر من فروع

تكنولوچيا العلم ولكن لم تكن إحداها متقدمة على الأخرى. حقًا، كانت هناك مشاركة فى معظم الأفكار. كان هناك انتشار متقاطع هائل للأفكار والأدوات والاختراعات والمهارات وناقلى تلك المهارات فى أنحاء النصف الشرقى من الكرة الأرضية خلال العصور الوسطى كما اتجهت كل الحضارات الكبرى فى هذا المنحى الثقافى أن تسهم فى تطور مشترك.

يعتقد وايت أن الأفكار الأوروبية الحديثة عن التقدم الدائم متأصلة فى معتقد قديم، فى "الغائية المسيحية – اليهودية" مفهوم خاطئ لنفس الأسباب تقريبًا. تلك أفكار حديثة مثلما اتفق معظم الباحثين. كان الأوروبيون فى العصور الوسطى يميلون إلى النظر إلى الله على أنه كامل، أى الخالق لعالم لا يمكن أن يصبح أفضل. وباعتراف الجميع، هذا الإنكار لإمكانات التقدم لم يكن كونيًا ولكن من غير الصواب أن نلصق المعتقد الحديث عن "التقدم الدائم" بالأوروبيين فى العصور الوسطى. هذا المعتقد هو نتيجة للتقدم ولنمو الرأسمالية ولارتفاع مستوى معيشة الأوروبيين، وصفات أخرى خاصه بالأوقات الحديثة. بالإضافة إلى فكرة أن غير الأوروبيين لا يعتقدون فى التقدم كأمر من أمور الثقافة أو الدين هى فكرة يجانبها الصواب. إن الفكرة التى تُنتَقد كثيرًا فى هذا الجزء هى أن غير الأوروبيين "تقليديون" و"جامدون "وليس لديهم الحافز للتغير وما إلى ذلك.

باختصار أود أن أفند مفهوم لين وايت بأن الاعتقاد فى الازدواجية بين الإنسان والطبيعة، الروح والمادة، العقل والجسد وهكذا هو بوضوح وبشكل خاص اعتقاد أوروبى مسيحى. إنه الأثر الديكارتى وما بعد الديكارتى فى الفكر الأوروبى الحديث، وبالرغم من الاهتمام الكبير لبعض الفلاسفة القدماء (أكثرهم وضوحًا أفلاطون) لم تكن الازدواجية صفة للفكر الأوروبى فى عهود سابقة.

الهـــوامـــش

(١) Lynn White, Jr., Medieval Technology and Social Change (1962). الأرقام بين الأقواس في نص هذا الفصل تشير إلى هذا العمل.

(٢) White, Medieval Technology p. 38. ما إذا كان الركاب الحديدى اخترع فى أوروبا أم لا، فإن الركاب المقوى بالخشب كان منتشرًا فى أوروبا الآسيوية لقرون عدة قبل اختراع الركاب الحديدى فى أوروبا. لا فرقَ كبير بين الخشب والحديد فى هذا السياق، نظرية وايت عن "الرجل فوق ظهر الحصان" وما إلى ذلك تعد إذًا خاطئة كليًا. انظر Needham and collaborators, Science and Civilization in China: Vol.' 4, Part 2 (1965).

(٣) Kosambi, Ancient India: A History of Its Culture and Civilization (1969), p. 89; Sharma, Light on Early Indian Society and Economy (1966), p. 57.

(٤) Orwin and Orwin, The Open Fields (1967), Chapter 3.

(٥) Smith, An Historical Geography of Western Europe Before 1800 (1969), p. 203 H.. C Darby فى عمله النهائى The Domesday Geography of Eastern England (1952), p. 379. يقدر تعداد سكان قروى حوالى ٨٨,٠٠٠ فى مقابل ٢١,٠٠٠ فى فرق الحرث فى المقاطعات الشرقية، الأمر الذى يوحى بأنه ربما كان هناك فريق لكل بيت.

(٦) Titow, English Rural Society: 1200-1350 (1969), p. 37.

(٧) Needham, Science and Civilization in China: Vol. 4, Part 2, pp. 304-328.

(٨) Parain, "The Evolution of Agricultural Technique," pp. 143-145. أيضًا Titow, i:. nglish Rural Society, op. cit., pp. 37-39.

(٩) الفكرة الأقدم وهى أن الزراعة المتنقلة، وليس الدائمة، كانت ممكنة فى غياب استخدام الأسمدة أصبح الآن من المعروف خطؤها بالنسبة للمناطق الاستوائية كما فى المناطق المعتدلة. تناسب التربة البركانية. التربة الغرينية المجففة بالارتشاح والتربة الجيرية وبعض الأنواع الأخرى من التربة تناسب الزراعة المستدامة. انظر Blaut, "The Nature and Effects of Shifting Cultivation" (1962) and "The Ecology of Tropical Farming Systems" (1963).. أشك فى أن أقاليم عديدة جنوب الألب فى حوض الدانوب ومناطق أخرى كان يوجد بها زراعة مستمرة فى العصور الوسطى. لمناقشات حول نظام الدوران الثلاثى وأنظمة أخرى معاصرة له انظر Smith, An Historical Geography of Western Europe, pp. 203-218; Pounds, An Historical Geography of Europe: 450 B.C.-A.D. 1330

(1990), pp. 366-379; Parain, "The Evolution of Agricultural Technique," pp. 136-142; Slicher Van Bath, The Agrarian History of Western Europe: A.D. 500-1850 (1963), pp. 58-62.

(١٠) وهناك مشاكل وأسباب أخرى تثير الشكوك حول التأكيدات (مثل تأكيد لين وايت) حول التغير الأيكولوجي وأهميته بالنسبة للتغيير الثقافي في العصور الوسطى بوجه عام. الأدوات ليست دائمًا (حقائق صرفة) بالنسبة للمؤرخ: وفي الغالب لا تذكر في المصادر التسجيلية بسبب كونها أمرًا طبيعيًا، كما أن مخترعيها ومستخدميها بشر عاديون. وليس هناك أمر واضح بخصوص أهمية أداة جديدة بالنسبة للتغيير الثقافي. فقد تكون قد اخترعت كأداة ثقافية.

(١١) نشرت في Science, March 10, 1967 وأعيد طباعتها في Lynn White's Ma- china Ex Deo: Essays in the Dynamism of Western Culture (1982).

(١٢) White, "The Historical Roots of Our Ecological Crisis" (1982), p. 79.

(١٣) White, "Historical Roots," pp. 79-80.

(١٤) White, "Historical Roots," p. 82.

(١٥) White, "Historical Roots," p. 82.

(١٦) White, "Historical Roots," pp. 82-83.

(١٧) White, "Historical Roots," p. 84.

(١٨) White, "Historical Roots," p. 85.

(١٩) White, "Historical Roots," p. 90.

(٢٠) White, "Historical Roots," p. 93.

(٢١) في شكلها النموذجي تعزو هذه النظرية تلك الآراء لنوع من المرحلة الطفولية في التطور الثقافي: الأطفال والقدماء والبدائيون الجدد وغير المسيحيين واليهود الجدد وبعض المختلين عقليًا من البالغين، يشتركون كلهم في عدم القدرة على التمييز بين الإنسان والبيئة، ويفترضون صفات روحية في الأول. وفي بعض الأحيان تضاف النساء للقائمة. انظر مقالي "Diffusionism: A Uniformitarian Critique" (1987b) and Colonizer's Model, Volume 1.

(٢٢) Chattopadhyaya, Lokayata: A Study in Ancient Indian Materialism (1967).

(٢٣) انظر على سبيل المثال Lovejoy, The Great Chain of Being (1936).

(٢٤) وايت: "حسب الفهم الشائع اليوم، من المفترض أن بداية العلم الحديث كانت في ١٥٤٣، عندما نشر كوبرنيكوس وفيساليوس أعمالهما العظيمة. [ولكن] التقليد الغربي المميز للعلم في الحقيقة بدأ في أواخر القرن الحادي عشر" (Medieval Technology, p. 82). الفهم الشائع، مصطلح قد يكون صحيحًا إلى حد ما: ربما يكون العلم الحديث قد بدأ مع حقبة كوبرنيكوس وجاليليو، أي بعد ١٤٩٢. قبل هذا الوقت لم يكن العلم الأوروبي يتقدم بسرعة أكبر منه في القارات الأخرى، كما لم يكن "مميزًا".

(٢٥) إنه مفهوم خاطئ شائع أن فيبر ينظر إلى العلم الحديث والتكنولوجيا على أنهما بدأ مع الإصلاح الديني. انظر الفصل الثاني.

الفصل الرابع

روبرت برينر

نفق الزمن

الماركسية الأوروبية

روبرت برينر هو مؤرخ ماركسى من أتباع مدرسة ماركسية من مدارس المركزية الأوروبية التى تتخذ مواقف شديدة التطرف. لا أستطيع أن أقدم هنا تفسيرًا لتلك الظاهرة المثيرة للاهتمام. إنه تقليد داخل واحد من أكثر المبادئ إيمانًا بالمساواة فى المجالات السياسية الاجتماعية. وبالرغم من ذلك تعتقد هذه المدرسة فى التفوق التاريخى (أو الأولوية) لمجتمع إنسانى ما؛ ألا وهو الأوروبى على غيره من غير الأوروبيين. ماركسيو المركزية الأوروبية ليسوا عنصريين كما أنهم ليسوا منحازين بالرغم من أن بعضهم يؤمن بأن الأوروبيين هم الرواد دائمًا فى المضى قدمًا فى التاريخ كما أن أوروبا هى نبع الحضارة والمصدر الأساسى للتغير الاجتماعى المبدع. هؤلاء الأكاديميون يرون أن أصول الرأسمالية أوروبية، وأن تطورها تم من خلال عملية داخلية منشؤها العالم الأوروبى. لم يكن للاستعمار أى أهمية بالنسبة للرأسمالية بل أنه كان عملية هامشية، انحرافًا أو تحولاً أو عرضًا جانبيًا، وليس حاجة حيوية لنظام كلى تبلور تجاوبًا مع قوانين الحركة الداخلية.

يعد هذا الرأى أساسيًا بالنسبة لنظرية انتشار المركزية الأوروبية. كما يعتبر أيضًا تاريخًا نفقيًا: شكلٌ من الرؤية النفقية (كما رأينا فى الفصل الأول) يحاول أن يشرح عملية نهضة الرأسمالية وأوروبا من خلال النظر إلى حقائق أوروبية سابقة وكأنه ينظر من خلال نفق الزمن الأوروبى متجاهلاً تاريخ العالم خارج أوروبا كسبب للتغيير داخلها بل وكموقع لتغيير تاريخى فعال فى حد ذاته[1]. ماركسيو المركزية الأوروبية - كما أود أن أسميهم - يقبلون هذا الرأى، وبالتالى يمكن اعتبارهم من أنصار نظرية انتشار المركزية الأوروبية. إلى هنا هم متفقون مع زملائهم فى التيار العام عن نهضة أوروبا والرأسمالية والتحديث والتصنيع والديمقراطية: فكل هذا أوروبى.

أفل نجم الماركسية الأوروبية فى فترات حركات التحرير التى كانت تحاول تحرير معظم العالم. فى تلك الفترة لم تكن فكرة أن العالم الثالث المستعمر كان ولا يزال غير هام بالنسبة للتطور الاجتماعى شائعة بين الأكاديميين الماركسيين. بعد نهاية حرب ڤيتنام استعادت تلك الفكرة شهرتها وأصبحت بحق هى الماركسية المعترف بها فى الجامعات الأوروبية والأمريكية. ونشهد اليوم تلك الظاهرة المثيرة للاهتمام وهى الإستشهاد بالماركسيين الأوروبيين وقبولهم من قبل أكاديميين محافظين، واستخدامهم لإيضاح أن الحقل الأكاديمى الماركسى "الحقيقى" يدعم نفس المبادئ النظرية والعملية، التى يعتنقها المحافظون.

روبرت برينر هو أحد المؤرخين الماركسيين الأوروبيين المشهورين، ينبع تأثيره من حقيقة أنه قدم مبدأ هامًا فى وقت هام. بعد نهاية حرب ڤيتنام توجه الفكر الراديكالى تجاه العالم الثالث وكفاحه. متأثرًا بمنظرى العالم الثالث مثل أميلكار كابرال Amilcar Cabral وفرانز فانون Franz Fanon وتشى جيڤارا Che Guevara وسى. إل. آر. جيمز C. L. R. James وكوامى نكروما Kwame Nkrumah، وبالتالى انجذب لنظريات التطور الاجتماعى، التى اتجهت لتزيح أوروبا من موقعها المحورى الذى يدعيه لها الأوروبيون، كمركز للسببية الاجتماعية، والتطور الاجتماعى فى الماضى والحاضر. عارضت الماركسية الأوروبية ذلك بالطبع، وبينما كان الماركسيون الأوروبيون أقوياء فى دعمهم لحركات التحرير المعاصرة فقد أصروا بالرغم من هذا، كما كانوا فى السابق، على أن حركات الكفاح

والتغيير الذى يحدث فى مركز النظام فى العالم الأوروبى هى المحددات الحقيقية لتغيرات العالم التاريخية، وأن الاشتراكية ستنهض فى قلب الرأسمالية الأوروبية المتطورة أو ربما فى كل مكان فى نفس الوقت. ولكن الاشتراكية بالتأكيد لن تصل أولاً فى العالم الثالث المتخلف، المتراخى، المتأخر النضج.

فى مفترق الطرق هذا كانت الحاجة شديدة لنظرية ماركسية أوروبية قوية عن النهضة الأصلية للرأسمالية. نظرية تعرض أن الرأسمالية والتحديث ظهرا فى أوروبا وتبلورا فيها بتأثير قليل من العالم غير الأوروبى والاستعمار. كانت الأسئلة الحيوية تتعلق بأمور العصور الوسطى وبداية التاريخ الحديث لإثبات كيف كانت أوروبا مصدر الابتكار فى تلك الأوقات، وبالتالى فالعالم الأوروبى ما يزال بمعنى ضمنى هو المصدر الأساسى للابتكار. قدم روبرت برينر تلك النظرية فى مقالتين فى ١٩٧٦ و١٩٧٧ ثم أتبعهما بثالثة فى ١٩٨٢(٢). تعد تلك المقالات أكثر الكتابات تأثيراً فى التأريخ المعاصر للماركسية لدى الماركسيين والمحافظين على حد سواء.

ظهرت أولى مقالات برينر الطويلة "تركيب الطبقة الزراعية والتطور الاقتصادى فى أوروبا ما قبل الصناعية" فى الدورية العلمية "الماضى والحاضر" فى ١٩٧٦، وقُدمت على أنها نقد ماركسى للنظريات التقليدية المحافظة التى تهتم بمصادر الرأسمالية فى أوروبا (مع تجاهل باقى العالم)، وعلى وجه الخصوص تلك النظريات التى كانت تركز على الديموغرافيا والتجارة والمدنية كأسباب رئيسية. أثار المقال ردوداً عديدة فى نفس الدورية العلمية مما جعل برينر يرد معلقًا فى نفس المجلة عام ١٩٨٢ ("الجذور الزراعية للرأسمالية الأوروبية")، ثم صدرت كل هذه المقالات فى مجلد واحد بعنوان مناظرة برينر عام ١٩٨٥(٣). كما ظهرت تعليقات أخرى على مقالات برينر فى مجلات متنوعة بين الحين والآخر وما زالت تظهر(٤).

فى عام ١٩٧٧ نشر برينر مقالاً مختلفًا تمامًا فى المجلة النقدية "اليسار الجديد". فى هذه الورقة التى جاءت تحت عنوان "مصادر تطور الرأسمالية: نقد ماركسية سميث الجديدة" أعاد برينر طرح نظريته عن المصادر الأوروبية للرأسمالية ثم قفز إلى الأمام

باتجاه القرن العشرين مستخدماً هذه النظرية كسلاح ضد ما أسماه انحرافات العالم الثالث فى المجال الأكاديمى الراديكالى المعاصر. كانت الأهداف الرئيسية لهجومه ثلاثة أكاديميين معروفين وهم أندريه جندر فرانك Andre Gunder Frank وبول سويزى Pual Sweezy وإيمانويل والرشتاين Immanuel Wallerstein. كان الثلاثة من بين أكثر من يقرأ لهم مؤيدو الفكر الذى يؤكد أهمية الاستعمار والاستعمار الجديد والكفاح ضده فى التاريخ الحديث. وجهة نظر فرانك هى شكل من "نظرية التبعية"، أما والرشتاين فيمثل "نظرية أنظمة العالم"، ويمثل سويزى الماركسية التقليدية المضادة للإمبريالية، ومع اختلافهم فى بعض الأمور إلا أنهم جميعًا تمسكوا بفرضية أن الأحداث خارج أوروبا كانت من الأهمية بمكان فى التطور الاجتماعى قبل نهضة الرأسمالية وبذلك يصبح العالم الثالث مهماً فى الكفاح فى سبيل الاشتراكية(٥).

للرد على هذه المجادلة قال برينر إن العالم خارج أوروبا لم يكن مهمًا فى التطور الاجتماعى، فلم يلعب أى دور فى نهضة الرأسمالية الأصلية، ولم يحدث أن أصبح أقل تطوراً نتيجة للإمبريالية الأوروبية، كما أن الحماس الشديد لكفاح العالم الثالث اليوم سيمهد الطريق أمام أمور لا معنى لها فى العالم الثالث من شأنها أن تعرقل ولا تساعد الكفاح فى سبيل الاشتراكية فى الميدان الرئيسى ألا وهو الغرب. وصف برينر معارضية بالاتباع لآدم سميث Adam Smith وليس ماركس، فى تفكيرهم عن قوى التغيير الاجتماعى فى الماضى والحاضر. كان فرانك وسويزى ووالرشتاين وغيرهم ممن اتفقوا معهم فى الرأى من أتباع سميث الجدد.

كان المقال الذى ظهر فى المجلة النقدية "اليسار الجديد" جدليًا ومؤثرًا على عكس المقالين اللذين ظهرا من قبل فى دورية "الماضى والحاضر". يرجع الماركسيون الأوروبيون والمحافظون من أنصار المركزية الأوروبية الفضل للمقال لما يرون أنه أفول لنظرية التبعية وتراجع للمناهج المتأثرة بالعالم الثالث فى الحقل الأكاديمى الأوروبى. وفقًا ل م. كوبر M. Copper أوضح برينر أن "سويزى ورفاقه لم يقدموا شيئًا ماعدا إعادة لتحليل آدم سميث الميكانيكى والحتمى لفترة التحول من الإقطاعية إلى الرأسمالية"(٦).

وبالنسبة لچون بروات John Browett "انتهى عصر التحولات الاعتمادية الليبرالية الراديكالية" وذلك بسبب نقد برينر إلى حد كبير[٧]. وفقًا لآلن ماكفارلين Alan Macfarlane فإن فرانك، وسويزى ووالرشتاين تم تدميرهم بفضل برينر[٨]. كما أن نقد برينر كان بمثابة طوق النجاة لنظرية التطور الاقتصادى القياسية فى وقت كانت فيه صيغة انتشار التجديد الاقتصادى تطرح جانبًا لصالح استراتيجيات مضادة للاستعمار، ضد كل ما هو أجنبى، واستراتيجيات اشتراكية كانت الماركسية تبرر معظمها. كان منظرو التطور يستشهدون ببرينر ويعلنون: الماركسية فى جانبنا[٩].

تكمن أهمية نظرية برينر فى عدة أمور تعد محورية بالنسبة لنا فى هذا الكتاب، فهى أحد أكثر النظريات تأثيرًا وأكثرها اقتباسًا فى هذا المجال فى التيار العام وفى التأريخ للماركسية كذلك. (لقد استخدمت واقتبست على سبيل المثال بواسطة إيريك چونز، وچون هول ومايكل مان الذين ستناقش آراؤهم فى فصول لاحقة). يمكن لها أن تكون رمزًا لتأريخ الماركسية الأوربية، مدرسة هامة داخل عالم تأريخ المركزية الأوروبية الأوسع، وعلى وجه الخصوص يمكن أن توضح، ربما أفضل من أى نص آخر، كيف يمكن أن تكون بعض الدراسات الأكاديمية الماركسية متأثرة بدرجة كبيره بالمركزية الأوروبية بالرغم من الزعم بأنها عالمية. وأخيرًا فإن نظرية برينر نظرية مترابطة عن نهضة أوروبا وتقدم الرأسمالية فى العصور الوسطى، وهى مقدمة بتفصيل يمكننا من تحليلها تحليلاً دقيقًا.

نظرية برينر

تعد نظرية برينر محاولة لتفسير سبب نهضة الرأسمالية وبداية فترة التحديث الاقتصادى فى أوروبا العصور الوسطى. لا نجده فى أى موضع فى مقالاته الثلاث الطويلة يذكر شيئًا عن إفريقيا أو آسيا فى العصور الوسطى[١٠]، لذا قبل أن ننظر إلى النظرية نفسها يجب علينا أن نلاحظ أولاً منظورها الجغرافى. يعد برينر مؤرخًا صرفًا لنظرية التاريخ النفقى لاقتناعه بأن الحقائق التى تستحق الذكر فى تفسير نهضة

أوروبا العصور الوسطى والرأسمالية وتقدمها والتطور الاقتصادى فى القرن السادس عشر، هى تلك الحقائق الأوروبية. سوف نعود لهذه النقطة لاحقًا.

يريد برينر أن يعرض كيف أن نهضة الرأسمالية جاءت نتيجة للتحولات الاجتماعية فى أوروبا القروية فى أواخر العصور الوسطى. إن التحولات التى يتحدث عنها هى تحولات فى هيكل الطبقة الاجتماعية وديناميكية صراع الطبقات. يبدأ بوصف (لا يثير جدلاً كثيرًا) للطبيعة الاجتماعية لأوروبا الإقطاعية فى ذروة العصور الوسطى(*) وهى فترة القرون (تقريبًا منذ الحادى عشر وحتى الثالث عشر)، والتى وصل فيها النظام الإقطاعى الأوروبى إلى ذروة تطوره، كانت هناك إشارات إلى ازدهار نسبى (خلو من الأزمات) واضح فى الريف والمدن الصغيرة، كما كانت التجارة تتوسع بقوة خلال تلك الفترة. كانت تركيبة الطبقة الاجتماعية الأساسية تتكون من فلاحين غير أحرار، بالأحرى عبيد، وطبقة حاكمة من اللوردات الإقطاعيين الذين امتلكوا الأرض وأحكموا قبضتهم على كل ما يتعلق بالفلاحين.

لقد كان العبيد وغيرهم من الفلاحين غير الأحرار أو أشباه الأحرار يؤدون ثلاثة أنواع من الخدمة التى حصلت من خلالها الطبقة الحاكمة على دخلها؛ فقد كانوا مطالبين بتقديم خدمة غير مدفوعة الأجر فى إقطاعية اللورد وهى مزرعة كبيرة منظمة وموحدة، كما أُجبروا على إعطاء ملاك الأرض حصة من إنتاجهم إما فى شكل منتجات زراعية أو فى شكل إيجار نقدى أو رسوم عن المزارع الصغيرة التى يعملون بها مع أسرهم والتى تعتبر جزءًا من إقطاعية صاحب الأرض، كما أُجبروا كذلك على توفير العمالة لأغراض أخرى مثل الأعمال الحرفية والخدمة المنزلية والخدمة العسكرية وهكذا. لم يتخل الفلاحون عن وقت العمل ولا عن إنتاجهم أو حتى حياتهم بدون كفاح لذا كان هناك دائمًا صراع بين الطبقة المنتجة وتلك الحاكمة، ذلك الصراع الذى كان يتخذ تارة

(*) HIGH MIDDLE AGES: ذروة العصور الوسطى هى الفترة فى التاريخ الأوروبى التى شملت القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر قبل الميلاد، والتى تميزت بالاضطراد السريع فى تعداد السكان، وهو ما أدى بدوره إلى تغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة. (المترجمة)

أشكال معتدلة مثل الامتناع عن تسليم فائض الإنتاج وتارة أشكال متطرفة مثل ثورات الفلاحين. يريد برينر أن يوضح أن الإقطاع انهار بل وعدَّل من نفسه متخذاً شكل الرأسمالية كنتيجة لهذا النوع من الصراع الطبقى الذى حرض النظام الإقطاعى ضد الفلاحين، كما يريد فى نفس الوقت أن يوضح خطأ أى تفسيرات أخرى لتحول الإقطاع إلى الشكل الرأسمالى. وفى الواقع هو يهاجم نظريتين مشهورتين فيما بين المؤرخين الاقتصاديين المحافظين والماركسيين على حد سواء الذين يزعمون أن العوامل "الاقتصادية" كانت هى السبب الأهم وراء انهيار الإقطاع وصعود الرأسمالية.

إحدى هاتين النظريتين هى مجادلة من الديمغرافيا إلى الاقتصاد إلى المجتمع وتستند على نظرية مالثوس بالنسبة للتغير فى تعداد السكان، وهى النظرية المنادية بأن:

(١) الناس لا يستطيعون التحكم فى الإنجاب وبالتالى يمكن أن يكون لديهم عدد كبير من الأطفال طالما يستطيعون ذلك.

(٢) يؤدى هذا السلوك إلى الزيادة السكانية أى إلى الجوع والعوز.

(٣) ثم يحدث تعديل نتيجة موت عدد كبير من السكان حتى يصبح هناك مرة أخرى توازن بين أعداد السكان ومصادر الغذاء، وعند تلك النقطة.

(٤) يقوم الناس بإنجاب أعداد كبيرة من الأطفال وتستمر الحلقة المفرغة. يوضح برينر كيف يستخدم بعض المؤرخين الاقتصاديين التقليديين المجادلات المالثوسية الجديدة لشرح انهيار الإقطاع على النحو التالى: يزعمون أن فترة الرخاء إبان ذروة العصور الوسطى أدت إلى نمو كبير فى تعداد السكان واستمرت هكذا حتى قضت أعداد الفلاحين الكبيرة على مصادر الغذاء المتوفرة لهم وعلى الأرض الزراعية المنتجة والتكنولوچيا المعروفة وغيرها، مما أدى إلى حدوث "أزمة ديمغرافية مالثوسية" فى أوائل القرن الرابع عشر، التى تفاقمت بسبب الطاعون الأسود فى منتصف هذا القرن؛ وبالتالى بعد حوالى ١٣٥٠ تقلص تعداد سكان أوروبا بشكل حاد، مما أنتج هذا وضعاً أصبح يمتلك فيه أصحاب الأرض عدداً قليلاً من الفلاحين الذين يقدمون لهم دخلاً مناسباً، الأمر الذى أجبرهم على تحرير العبيد وبالتالى توفير فرص حياه أفضل للفلاحين الذين

أصبحوا فيما بعد مزارعين مستأجرين أحراراً يدفعون قيمة الإيجار نقداً. فى شكل نمطى لهذه النظرية كانت نهاية العبودية فى كثير من أوروبا الغربية خلال الفترة ما بين (١٣٥٠-١٤٠٠) هى بداية صعود الرأسمالية، وذلك لأن المزارعين المستأجرين من ناحية كانوا مشاركين فى الاقتصاد التجارى يبيعون إنتاجهم للحصول على المال لدفع قيمة الإيجار نقداً، ومن ناحية أخرى كانت لديهم مزارع كبيرة (وذلك لأن الإنتاج الريفى كان أقل بكثير)، ومن ثم أصبح لديهم مصادر كثيرة لتراكم رأس المال؛ ودائمًا ما كانت تؤخذ عوامل أخرى مشاركة فى الاعتبار من بينها المدنية. ولكن "الأزمة المالثوسية" فى القرن الرابع عشر كانت تعتبر هى السبب الرئيسى للتغير الاجتماعى.

مع الأخذ فى الاعتبار جدول أعمال برينر، فإن هجومه على تلك النظرية يعتبر هجومًا على استحياء. فهو يقول الآتى: العوامل الديمغرافية هامة. النموذج المالثوسى ليس كله خطأ[11]. ولكن الأزمة الديمغرافية لا تفسر أزمة الإقطاع فى بريطانيا وفرنسا فيما بين (١٣٥٠-١٤٠٠). لماذا؟ لأنه كان بمقدور أصحاب الأرض أن يستمروا بصورة ما فى الحصول على دخلهم من الفلاحين بدون الحاجة إلى تحرير العبيد. يصر برينر على أن السبب الرئيسى وراء تحرير العبيد كان هو نجاح صراعهم الطبقى - الثورة والفرار - خلال تلك الفترة. ومع ذلك تبقى قلة عدد السكان أحد العوامل. يضيف برينر بعد ذلك، وهو محق فى هذا، أن الإقطاع كنظام لم يمت عندما انتهت العبودية ومن ثم فإن الأزمة الديموغرافية لا تفسر أفوله.

نجد هجوم برينر الأساسى موجهًا إلى نظرية أخرى، وهى تلك التى تفسر الانتقال إلى الرأسمالية فى ظروف تزايد التجارة. يرتبط تركيز برينر على هذه النظرية مع جدول أعماله المتوازى المتعلق بأوائل العصر الحديث (والوقت الحاضر بالفعل) وذلك لتوضيح كيف أن العالم غير الأوروبى لم يكن له أى دور هام فى صعود الرأسمالية فيما بعد ١٤٩٢، وذلك حين يجادل أن دور هذا الجزء من العالم انحصر فقط فى التجارة والتبادل - وليس فى الإنتاج أو صراع الطبقات - كما لم تكن التجارة أو التبادل التجارى أساسيين بالنسبة للرأسمالية خلال العصور الوسطى أو ما بعدها. (أعود لهذه النقطة لاحقًا).

تدّعى نظرية التجارة والمعاملات التجارية بشكل عام أن انهيار النظام الإقطاعى وصعود الرأسمالية كانا بسبب تغير حدث فى اقتصاد أوروبا الغربية ربما منذ القرن العاشر فلاحقًا، وهو التغير الذى أدى إلى مزيد من التعامل التجارى فى الاقتصاد الريفى على مستوى التجارة الداخلية أو الخارجية. أظهر الإقطاع فى رأيه فى العصور الوسطى غيابًا للتجارة والمعاملات التجارية أو بالأحرى ما يطلق عليه اقتصاد دائم. كان ينظر إلى الإقطاعيات فى نظريته على أساس أنه لم يتم التعامل فيها بالنظام النقدى. وعلى أساس أن العبيد كانوا يقدمون عن طريق عملهم ما يحتاجه صاحب الأرض من منتجات أو خدمات. على أية حال، مع تبلور الإقطاع حدث تغير تدريجى داخل وخارج الإقطاعيات. (حدث بالفعل هذا التغير، ولكن السؤال الإشكالى هو كيف كان وضع التبادل والمعاملات التجارية غير المهمة فى بداية تلك الفترة؟). لقد نمت المدن الصغيرة والكبيرة وانتقلت السلع عبر طرق تجارية جديدة وتم تبادلها فى أسواق جديدة، وأعاد الإنتاج فى مزارع الإقطاعيات الكبيرة توجيه ذاته باتجاه بيع المنتجات، وبدأ الفلاحون أنفسهم فى بيع السلع المنتجة لديهم شيئًا فشيئًا حتى وصلوا إلى مستوى من التبادل التجارى أهّلهم لدفع إيجاراتهم نقدًا. ارتبطت الزيادة فى التبادل التجارى للمنتجات الزراعية بالنمو فى الاقتصاد المدنى، وبوجه عام تضمن هذا التغير ارتقاءً تدريجيًا باتجاه اقتصاد السوق.

فى هذه النظرية حدث هذا التغير لسببين، الأول هو إعادة إنشاء العلاقات التجارية بين شمال أوروبا وأوروبا البحر المتوسط وبين الشرق الأدنى والأقصى، والسبب الثانى المرتبط بالأول هو نمو المدن. بينما تطور الإقطاع فى حقبة سلمية نسبيًا مقارنة بالفترة السابقة ظهرت مدن جديدة فى الريف ودب النشاط فى تلك القديمة وبدأت نهضة بطيئة وغير منظمة فى التمدين فى أوروبا الغربية، ارتبطت كذلك بالنمو التجارى، وذلك لأن تلك المدن الصغيرة أصبحت نقاط تبادل تجارى فى الشبكات التجارية الإقليمية وكذلك بسبب إنتاجها أنواعًا معينة من المنتجات التى كانت تُقايض مقابل المنتجات الزراعية. أدى نمو اقتصاد السوق فى هذه النظرية إلى تدهور الإقطاع وصعود الرأسمالية بسلاسة وطبيعية.

متضمن فى هذه النظرية نموذج للإنسان يصوره على أنه ذو طبيعة رأسمالية، فهو عندما يواجه فرصة للمقايضة والتبادل التجارى لن يتردد فى القيام بها. أدى تزايد الفرص الاقتصادية إلى التخلص من القيود غير الاقتصادية المرتبطة بالنظام الإقطاعى. حل نظام الإيجار النقدى والعمل المدفوع الأجر - وهو نظام أكثر طبيعية وأكثر تطوراً - محل العبودية، وتغير إنتاج الإقطاعيات من التوجه للإعاشة فقط إلى توجه تجارى، وبالتالى حفزت المعاملات التجارية عملية تطوير الإنتاج المدنى وتجارة المسافات الطويلة.

لاحظ أن السببية الأساسية هنا هى فكرة ڤيبر عن العقلانية: فمن الطبيعى للبشر - أو الأوروبيين - أن يطوروا اقتصاداً مبنياً على الربح والعمالة بأجر. فى الحقيقة، إنها ليست فقط نظرية ڤيبر عن العقلانية الأوروبية ولكنها مجموعة من النظريات المرتبطة بها عن تطور أوروبا المزعوم والسابق لأوانه والتى أدخلت على النظرية الاقتصادية لانهيار الإقطاع ونهضة الرأسمالية. على سبيل المثال، ادعى بعض الأكاديميين أن تطور الديمقراطية الطبيعى فى العصور الوسطى أنتج مناخاً سياسياً سمح بتطوير الأسواق الحرة ومعها أيضاً العمالة الحرة ورأس المال الحر. وباختصار، فإن النظرية الاقتصادية النموذجية عن تحول الإقطاع للرأسمالية، النظرية التى تركز على التجارة والتبادل التجارى هى عادة غطاء لنظرية أخرى عن العقلانية الفطرية وتطور الأوروبيين السابق لأوانه(١٢).

يقدم برينر خمس مجادلات أساسية ضد نظرية أصول الرأسمالية المؤسسة على أساس التجارة، فهو يتساءل أولاً بشأن سبب جهاد الإقطاعيين للتغيير من اقتصاد إقطاعى غير تجارى إلى آخر قائم على المقايضة، ثم على نحو ما، يتجهون لبناء الرأسمالية على أسس تجارية على أنقاض اقتصاد ريفى فيما بعد الإقطاع. يقول برينر إن هذا يوحى بأن الناس لديهم ميل طبيعى للرأسمالية وهذا افتراض واه(١٣). (سنرى على أية حال، أن برينر نفسه يلجأ إلى نموذج مشابه للطبيعة البشرية فى نظريته عن التحول للرأسمالية).

مجادلته الثانية خاطئة. يؤكد برينر أن التجارة إبان العصور الوسطى كانت نشاطًا هامشيًا جدًا(١٤)، فزعم أنها قامت على مواد وأشياء تتعلق بالرفاهة لاقتصارها على الطبقة الحاكمة. من حيث الكم، يمكن للتجارة أن تكون ذات أهمية كبيرة ويكون لها تأثير كبير على المجتمع الريفى. لا يطلب أصحاب الأرض على سبيل المثال إيجارات مرتفعة فى شكل أموال نقدية إذا كانت الحاجة للنقود هى فقط لشراء مواد الرفاهية. كما يجادل أيضًا أن المدن الصغيرة كانت فى جوهرها طفيلية فى الريف، كما أنها لم تكن مراكز حقيقية لإنتاج السلع التى لا تنتج فى المناطق الريفية، كما كان يعتقد أن التجارة بين الريف والحضر لم تكن مهمة من حيث الكم كما أنها لم توح بوجود تقسيم للعمالة بين نظم الإنتاج فى الحضر والريف(١٥). بشكل عام إذًا لم تكن التجارة من الأهمية بمكان فى العصور الوسطى حتى تعمل على نوبان العلاقات الاجتماعية الإقطاعية وتبعث الحياة فى اقتصاد قائم على السوق الحقيقية أى الرأسمالية.

هناك جزء من هذه المجادلة حقيقى؛ كما يلاحظ برينر أن التمدن لم يصل فى العصور الوسطى إلى المستوى الذى يستطيع من خلاله أن يغير المجتمع الإقطاعى الريفى بشكل كبير. على سبيل المثال، المجادلة القديمة عن أن المدن الصغيرة كانت تمثل مأوى للعبيد الفارين، وبالتالى ساهم نمو تلك المدن فى التقليل من العبودية عن طريق توفير مكان للعبيد، هذا الطرح يعتبر خطأ لأنه قبل نهاية العبودية فى غرب أوروبا كانت المدن صغيرة لدرجة لم تكن تؤهلها لأن تلعب هذا الدور. الاعتراضات نفسها تنطبق على النظريات المختلفة عن الدور الاجتماعى والسياسى للمدن. على سبيل المثال، كما يلاحظ برينر أيضًا أن تلك المدن لم تكن مقرًا للحرية أو الديمقراطية فى النظام الإقطاعى فتركيبتها الاجتماعية كانت متجمدة ولم تكن ترحب بالغرباء مثل العبيد الفارين.

ولكن برينر يهمل شيئًا هامًا جدًا عن مدن أوروبا. صحيح أنها كانت صغيرة فى العصور الوسطى، ولكن بالرغم من ذلك كانت تعد مراكز صغيرة لنوع بدائى أو أولى للرأسمالية، مراكز كان بها بعض الإنتاج المنظم من أجل الربح وكانت العمالة تعمل بأجر. كانت المدن أيضًا وعاءً لانتشار التكنولوجيا والصناعات والمؤسسات التجارية والإبداعات

من خارج أوروبا إلى داخلها. كانت مرتبطة على شكل نقاط فى شبكة تجارية نصف كروية؛ وشيئًا فشيئًا أصبحت مدن أوروبا فى العصور الوسطى مراكز لنقل العدوى، إذا جاز التعبير، لنشر الرأسمالية بعد أن أدت الأسباب الهامة دورها فى نهضة الرأسمالية فى عملية (ونظرية) شرحتها فى موضع آخر وسأقوم بتلخيصها فى نهاية هذا الفصل. إنها عملية تتضمن تدفق الثروة واتساع المشروع التجارى الرأسمالى بعد ١٤٩٢ بعد بدايات الاستعمار؛ وبالتالى فإن عدوى المدن فى الفترة اللاحقة لم تقل بسبب صغر حجمها فى بداية الفترة. يرفض برينر مجادلة المدنية وذلك لأن انهيار الإقطاع وصعود الرأسمالية بالنسبة له لم يحدثا فى المدن ولكن فى الريف. فهو يعتقد أن الرأسمالية الأولى الحقة كانت رأسمالية زراعية.

هل كانت التجارة على تلك الدرجة من الأهمية التى يدعيها لها برينر؟ حتى قبل نهاية العبودية فى الفترة التى لم يكن فيها الفلاحون فى حاجة كبيرة للنقود كانت هناك تجارة مزدهرة فى كثير من السلع التى كانت تستخدم فى هذا الاقتصاد الريفى مثل الملح والحديد والأدوات والبذور والعلف والماشية، وغيرها من السلع الأخرى التى كان يتم تبادلها بين القرى وبين المدينة والقرية ومن خلال التاجر الرحالة والأسواق الموسمية على مسافات طويلة.. يبدو أنه كانت هناك كمية كبيرة من السلع المتبادلة بين القرى ومن المحتمل أن بعض الخدمات كانت تقدم مقابل المال. كان هناك طلب على السلع من المجتمع الحضرى والدينى وغيرهما من المجتمعات والجماعات الأخرى، ولذا كانت التجارة مهمة فى تلك الفترة؛ ولكن بعد أزمة القرن الرابع عشر وما تبعها من انهيار العبودية توسع الاقتصاد التجارى لأن إيجارات الفلاحين كانت تدفع نقدًا وانتعشت المدنية (بعض الشىء). لذا يعد برينر مخطئًا حينما يغفل أهمية تجارة العصور الوسطى واقتصارها على الرفاهة التافهة؛ وإلى جانب ذلك كله يجب أن نضيف حقيقة أن التجارة كانت أكثر حيوية فى أوروبا البحر المتوسط وهو إقليم تجاهله برينر(١٧).

يؤكد برينر أن نمو التجارة لا ينبغى أن ينتج أزمة تؤدى إلى ذوبان الإقطاع. لا يستطيع أصحاب الأرض تحويل أنفسهم إلى رأسماليين ريفيين ببساطة بسبب الفرص المتنامية لبيع منتجاتهم من إقطاعياتهم وشراء مواد تجارية، كما لن يوجد

لديهم الدافع لتحرير العبيد وذلك ببساطة لأن التجارة كانت فى توسع، وبرينر محق دون شك حين يقول إن المكانة الاجتماعية لأصحاب الأرض لم تكن منفصلة عن نوع الخدمات التى قدمها لهم العبيد والمستأجرون. كما أن التوسع فى الفرص التجارية لا يمكن أن يقود معظمهم لتغيير أسلوب حياته. على الجانب الآخر، لو قدمنا الأزمة التى حدثت فى القرن الرابع عشر فى الصورة وهى الأزمة التى هبط فيها تعداد سكان الريف ودخل طبقة أصحاب الأرض فمن ثم تفقد مجادلة برينر قوتها. لا يستطيع أصحاب الأرض الحصول على العمالة الكافية للحفاظ على مستوى الدخل وأسلوب المعيشة بدون تكيف جدى. مع تسليمنا بتوسع التجارة والتبادل التجارى يبدو من المحتمل أن أصحاب الأرض قد دُفعوا لزيادة إنتاجهم من أجل البيع ولتخفيض النفقات وتنظيم الإنتاج كوسيلة للحفاظ على نظامهم الاجتماعى. أضف إلى ذلك، أن هناك دليلاً قويًا على أن أزمة القرن الرابع عشر أدت إلى تغيير العلاقات الاجتماعية فى ريف أوروبا الغربية مع إفساح العبودية الطريق أمام زراعة الإيجار التى كان يطلب فيها هذا الإيجار نقداً.

أدت أزمة القرن الرابع عشر إلى سقوط العبودية - ليس فى الحال وليس فى كل مكان وليس كليًا - مع تزايد قوة (أو طبقة) الفلاحين فى مناخ كانت فيه عمالة الفلاحين نادرة. نحن (وبرينر) نتحدث عن القوة النسبية لطبقتى أصحاب الأرض والفلاحين، وقد أعطت الأزمة قوة أكبر للطبقة العاملة كى تقاوم طلبات أصحاب الأرض حيث إنهم يمثلون عمالة غير مدفوعة الأجر كما يوفرون منتجات تنمو على أرضهم. اكتسب الفلاحون قوة أمام أصحاب الأرض مما أجبرهم على الاستعانة بعمالة بعيدة والقبول بالإيجار النقدى. ولكن ما أعطى الإيجار النقدى معنى هو الاقتصاد الذى كان يسير باتجاه التجارة، كانت هناك سوق لإنتاج الفلاحين كما كانت هناك سوق أمكن فيها لأصحاب الأرض أن يشتروا أشياء مقابل النقود المدفوعة لهم كإيجار. وباختصار، فإن تحويل اقتصاد العصور الوسطى إلى اقتصاد مبنى على التجارة أسهم كثيراً فى انهيار العبودية وبالتالى الإقطاع.

يؤكد برينر على مجادلته مستخدمًا أسلوبًا بسيطًا وهو ما يطلق عليه "التحليل المقارن"، وهو أسلوب غير عميق لأن كل المناطق التى يقارنها ببعضها البعض تقع فى شمال أوروبا (على وجه التحديد الشمال الغربى)، والمقارنة الحقيقية يجب أن تنظر إلى كل الحالات الممكنة لنوع معين ثم مقارنتها بأوروبا البحر المتوسط وآسيا وإفريقيا ولكن برينر لا يفعل هذا(١٨). فهو يوضح بطريقة صحيحة أن العبودية زادت فى أوروبا الشرقية خلال هذه الفترة عندما توسعت التجارة والتبادل التجارى فى أوروبا أى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار كى تكون دليلاً إيجابيًا على عدم وجود علاقة محددة بين انهيار العبودية ونهضة التجارة. يمكن للعبودية أن تنهار بشكل توافقى مع نهضة التجارة فى إقليم ما (أوروبا الغربية) بينما تزداد مع نهضة التجارة فى إقليم آخر (أوروبا الشرقية). الرد على هذه المجادلة سهل.

انهيار العبودية حدث فى أوروبا الغربية فى القرن الرابع عشر، وحين نقارن هذا مع نهضة العبودية بعد مائتين أو ثلاثمائة سنة فى إقليم مختلف تمامًا يعد ذلك غير عادل بالمرة. أخذت التجارة تشق طريقها فى أوروبا الغربية بشكل تدريجى فى إقليم يعد متطورًا زراعيًا وفى وجود تعداد سكانى كثيف، أما فى أوروبا الشرقية فكان الوضع البيئى والاجتماعى مختلفًا جدًا. لم يكن تعداد السكان بنفس الكثافة ولم تكن الزراعة على نفس الدرجة من التوسع، الأمر الذى تطلب توسعًا مكانيًا فى الرقعة الزراعية. عندما تزايد طلب أوروبا الغربية على الحبوب فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أدى ذلك إلى تنشيط الزراعة فى الإقليم الشرقى وواجه أصحاب الأرض نقصًا شديدًا فى العمالة ووجدوا الحل فى تكثيف الضغط على الفلاحين من خلال استعبادهم. لذا لا يمكن لبرينر أن يقارن بدقة بين هذين الإقليمين المختلفين دائمًا والادعاء بأنه أثبت أن لا علاقة بين انهيار العبودية ونهضة التجارة(١٩). حقًا، كانت نهضة التجارة فى العصور الوسطى مختلفة من حيث الكيف عن نهضة التجارة فى أوائل الفترة الحديثة بعد اكتشاف أمريكا والتوسع الكبير لاقتصاد أوروبا الذى جاء نتيجة لهذا الحدث الهام.

كيف إذاً يفسر برينر هذا التحول، أى سقوط الإقطاع وصعود الرأسمالية؟ يمكن أن نبدأ بوضع نظرية برينر فى موقعها الجغرافى والتاريخى.

أولاً: الجغرافيا. بالنسبة لبرينر لم يتورط العالم خارج أوروبا فى هذا التحول على الإطلاق. حقًا، هو يتهكم على فكرة أننا يجب أن ننظر إلى العالم غير الأوروبى ويهاجم كتاباً مثل والرشتاين وفرانك الذين يجدون ضرورة لذلك[٢٠]. لا يذكر برينر شيئًا عن طبيعة المجتمعات الإفريقية والأوروبية فى العصور الوسطى، فهو لا يعتبرها ضرورية فى المقارنة بين المجتمعات الأوروبية وغيرها حتى يتعرف على الأسباب التى دفعت المجتمعات الأوروبية لإفراز الرأسمالية بينما لم يتأت هذا لغيرها، كما لا يذكر أى تأثيرات لإفريقيا وآسيا على أوروبا، ويتجاهل التجارة فى أواخر العصور الوسطى بين أوروبا وآسيا وإفريقيا؛ أى أن نهضة الرأسمالية هى حقيقة أوروبية خالصة.

إنها حقيقة "أوروبية غربية". لم يتضمن التحول جنوب أو شرق أوروبا: بل الغرب فقط. لم يناقش جنوب أوروبا وكان دور أوروبا الشرقية (كما رأينا هو) "المقارنة" بالغرب. ولكن داخل أوروبا الغربية نجد أن إنجلترا مركزية فى هذا التحول. نوقشت فرنسا ببعض التفصيل ولكن برينر يقوم بذلك (كما سنلاحظ) حتى يوضح – وهى "مقارنة" أخرى – كيف أن التحول حدث فى إنجلترا وليس فرنسا. أى أن انهيار الإقطاع وصعود الرأسمالية هى "حقيقة إنجليزية".

هناك قيد جغرافى آخر. لم يكن للمدن الصغيرة أى دور هام. يعتقد برينر (بخلاف سويزى ومعظم المؤرخين) أن التطور الداخلى الأوروبى فى الحياه المدنية لم يكن مهمًا لصعود الرأسمالية كما لم تكن المدن الصغيرة تمثل مأوى هامًا للعبيد الفارين، كما لم تكن التجارة بين الريف والحضر على أى درجة من الأهمية، أى أن صعود الرأسمالية حقيقة "إنجليزية ريفية".

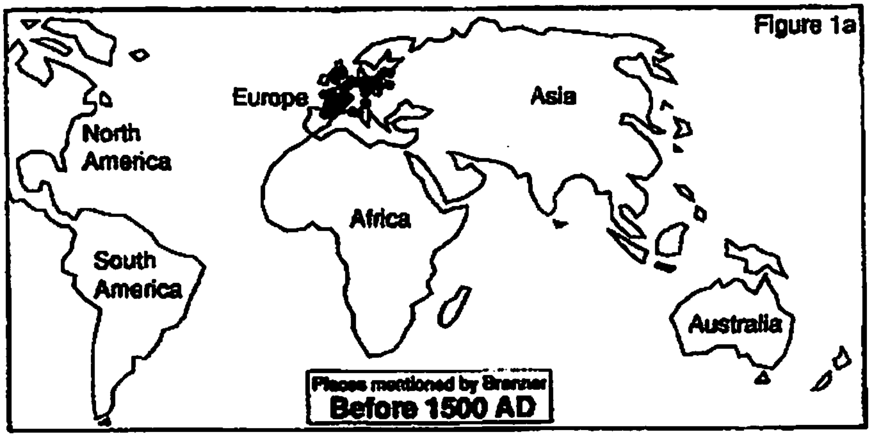
إذاً نظرية برينر لديها هذه الجغرافيا البسيطة: هناك خلل فى العلاقة والمسافة كلما كبرنا المقياس، من إنجلترا الريفية إلى إنجلترا ككل، ثم إلى غرب أوروبا ككل، ثم إلى أوروبا ككل، ثم إلى العالم ككل. المكان الذى به انتهت الإقطاعية وولدت الرأسمالية كان حقًا إقليمًا صغيرًا جداً: إنجلترا الريفية[٢١].

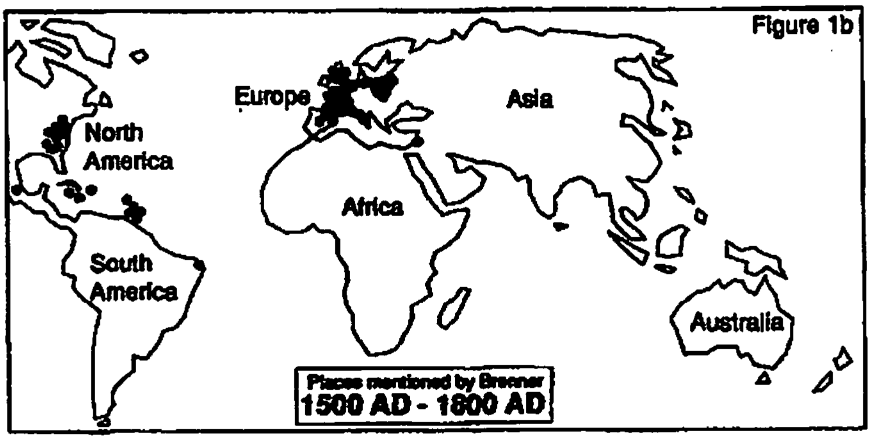
جغرافيا نظرية برينر عن أصل وصعود الرأسمالية من السهل أن نراها على الخريطة. أحد الوسائل التصنيفية البسيطة تستخدم لاختبار النماذج المكانية المرتبطة بهذه النظرية (نفس المنهج سوف يستخدم كجزء فى التحليل فى الفصل السادس لنظرية مايكل مان عن سير التاريخ باتجاه الغرب). طريقة مفيدة لإدراك الجغرافيا الواضحة والضمنية فى كثير من النصوص التاريخية أن نحدد أسماء الأماكن القديمة المذكورة على الخريطة (Dated-Place name Mentions DPMs). قد يشير نص على سبيل المثال إلى "أثينا". نموذجيًا، عندما يشير النص إلى أثينا، فهو يقوم بهذا فى إطار سياق زمنى واضح: لنقل القرن الخامس قبل الميلاد. هذا هو ما نعنيه بتحديد أسماء الأماكن القديمة المذكورة أو (DPM)، كل تلك الأماكن يمكن تحديدها على الخرائط. نحن نمهد لنص تاريخى محدد، الخرائط التى تصور العالم أو جزءًا من العالم فى فترات معينة أو فترات تاريخية معينة. بعد ذلك نقوم بوضع نقاط على كل خريطة لكل أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMs) أو عينة لها والتى تذكر فى تلك الفترة التاريخية. هذا يدلنا بصورة حقيقية على مدى الاهتمام والوضوح الذى يوليه المؤلف للعالم أو أجزاء مختلفة منه لفترة تاريخية معينة(٢٢).

الأماكن بأسمائها الصحيحة مذكورة فى نصوص برينر ومعظم الأسماء المذكورة مؤرخة بصورة واضحة أو ضمنية: أحيانًا إلى السنة وأحيانًا إلى القرن، وأحيانًا إلى العصر التاريخى: عصر النهضة أو أوائل الفترة الحديثة. الشكل الأول يوضح خريطتين لأسماء الأماكن القديمة المذكورة فى رواية برينر عن أصل وصعود الرأسمالية الأولى. إحدى الخريطتين شكل (١ أ) يوضح كل أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMs) التى ارتبطت بالعصور الوسطى، والثانية شكل (١ ب) يوضح كل أسماء الأماكن القديمة المذكورة التى ارتبطت بأوائل الفترة الحديثة. (أسماء الأماكن القديمة المذكورة "DPMs" لأقاليم كبيرة جدًا، "أوروبا" و "غرب أوروبا" على سبيل المثال لا نجدها على الخريطة، ولكنى أسرد تكرار أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMs) فى قائمة كل تلك الأقاليم فى التعليق على الشكل ١).

واستخدم ١٥٠٠ بعد الميلاد كنقطة فاصلة بين العصرين فى الخرائط فى الشكل الأول. نجد أن هذا التاريخ كذلك هو بالتقريب النقطة الفاصلة فى نظرية برينر. وكما سنرى فيما بعد فى هذا الفصل، يجادل برينر بتأكيد أن ميلاد وصعود الرأسمالية الأولى كانت عملية أوروبية داخلية، لم تتأثر بصورة هامة "بالاكتشافات" الأولى للاستعمار والأحداث والمؤثرات خارج أوروبا؛ ولذا نجد جزءًا كبيرًا من مجادلته مصممًا لتوضيح أن العمليات الهامة فى أصل وصعود الرأسمالية – والحداثة – حدثت قبل ١٥٠٠ ولذا فهى لم تكن نتيجة للأحداث التى جاءت بعد "لاكتشاف" أميركا فى ١٤٩٢ ونتيجة لذلك.

جميع أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMs) فى الشكل ١ تقع داخل أوروبا، وبصورة أخرى، الأماكن خارج أوروبا لم تذكر نهائيًا فى فترة العصور الوسطى(٢٣). أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMs) فى أوائل الفترة الحديثة والموضحة فى الشكل ١ب ما تزال متركزة فى شمال غرب أوروبا ولكن نجد إعطاء بعض الأهمية الآن لشرق أوروبا ويذكر العالم غير الأوروبى عدة مرات. تعكس هذه التغيرات فى النموذج وجهة نظر برينر أن الرأسمالية بدأت فى الانتشار خارجيًا إلى بقية العالم بعد مولدها فى شمال غرب أوروبا، كما أن هذه التغيرات أيضًا هى جزء من الرد على فرانك ووالرشتاين عندما ذكرا بعض الأماكن فى شرق أوروبا والبحر الكاريبى وغيرهما فى عرض نظريتهما عن "العالم الثالث" بخصوص مصادر وصعود الرأسمالية الأولى. إذا أخذنا الخريطتين معًا نجدهما يشيران بوضوح إلى أن نظرية برينر هى التاريخ النفقى الكلاسيكى للمركزية الأوروبية.





(الشكل ١) أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMS) في رواية روبرت برينر عن مصدر وصعود الرأسمالية. شكل ١أ: (DPMS) أسماء الأماكن القديمة المذكورة بتواريخ قبل ١٥٠٠ بعد الميلاد. شكل ١ب (DPMS) أسماء الأماكن القديمة المذكورة للفترة (١٥٠٠–١٨٠٠) بعد الميلاد. وما لا يظهر على الخرائط هى أسماء الأقاليم الكبيرة جداً: "أوروبا" (٤٢ مرة)، "غرب أوروبا" (٣١)، "شرق أوروبا" (٢٣)، "القارة الأوروبية" (٧)، "أمريكا الجنوبية" (٣)، "الشرق" (٣)، "أميركا الشمالية" (٢)،"شمال شرق أوروبا" (٢)، "أفريقيا" (١)، "العالم الأطلنطى" (١). أما أسماء المناطق القديمة غير الأوروبية المذكورة فتعود إلى الفترة ما بعد ١٥٠٠. أهمية إنجلترا أو فرنسا لا تنكشف بجلاء من خلال نموذج النقاط: "إنجلترا" تظهر ٩٢ مرة، وأماكن داخل إنجلترا ٢١ مرة، فرنسا تظهر ٧٣ مرة، وأماكن داخل فرنسا ٤٨ مرة، ولذا تمثل الأماكن فى فرنسا وإنجلترا ثلثى أسماء الأماكن القديمة المذكورة (DPMS) على الخريطتين. المصادر: برينر (١٩٧٧)، (a١٩٨٥)، (b١٩٨٥).

إذا كانت جغرافيا نظرية برينر واضحة ومحدده جداً، فإن تاريخها متسع وغير محدد. حدث التحول بالنسبة لبرينر على مدار أربعة قرون. قد يتفق الكثيرون على أن العملية كانت انتقالاً بطيئًا وطويلاً من إقطاعية القرن الرابع عشر إلى رأسمالية القرن الثامن عشر. ولكن برينر لا يجادل بتلك الطريقة. الحدث الهام هو وصول الزراعة الرأسمالية فى الريف الإنجليزى أثناء عصر ثورى قصير فى منتصف القرن الخامس عشر أو الجزء الأخير منه تقريبًا. ولكن برينر يختزل الكثير من التاريخ فى هذه الفترة المختصرة دافعًا فيها بأحداث من القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر معاملاً تلك الأحداث على أنها متاخمة، حتى أنه يدعى أسباب القرن السابع عشر لآثار سابقة(٢٤).

نأتى إذًا للنظرية نفسها. يفسر صراع الطبقات لماذا انهارت الإقطاعية ونهضت وانتصرت الرأسمالية. أثناء العصور الوسطى فى غرب أوروبا انخرط اللوردات والفلاحون فى صراع لا ينقطع على التحكم فى وسائل الإنتاج والفائض من العمالة. بالرغم من وجود طبقات أخرى فى هذا المجتمع الإقطاعى، فإن الطبقات المتنازعة الأساسية كانت اللوردات والفلاحين، وعلى وجه الخصوص اللوردات والعبيد. يجادل برينر أن صراع الطبقات فى الإقطاع أسفر تدريجيًا عن أزمة لا يمكن تخطيها وبهذا أفسح الطريق لأسلوب جيد جديد ألا وهو الرأسمالية.

لكن الباحثين لا يتفقون بأى وسيلة من الوسائل على زمن الأزمة ولا كيف ولماذا حدث التحول. تتمثل صعوبة بالغة فى حقيقة أن أزمة القرن الرابع عشر الخطيرة أدت إلى نهاية نظام القنانة الكلاسيكى (بسرعة فى بعض الأماكن، وببطء فى غيرها)، ولكن ليس نهاية الإقطاع كنظام عام: بقى اللوردات هم الطبقة الحاكمة، بقى الفلاحون إلى حد ما نازحين تحت نير قبضتهم القانونية (على سبيل المثال، لم يكن بإمكانهم ترك العزبة بدون تصريح اللورد)، واستمر الصراع بين الفلاحين واللوردات لبعض الوقت بعد ذلك. انتهت الإقطاعية كنظام سياسى وقانونى رسميًا (وبمعنى رمزى) فى ١٦٨٨ فى بريطانيا، وبعد ذلك فى معظم مناطق غرب أوروبا. لم تظهر الرأسمالية الصناعية حقًا حتى نهاية القرن الثامن عشر. حتى أن الرأسمالية الريفية لم تصبح هامة إلا بعد ١٦٠٠.

السؤال هو: ماذا حدث بعد أزمة القرن الرابع عشر؟ لم بقيت الإقطاعية على قيد الحياة؟ هل انهارت تدريجيًا بدون أى أزمات أخرى أم أنها حولت نفسها ببساطة وبصورة تدريجية إلى الرأسمالية؟ لو أن أزمة القرن الرابع عشر لم تقض على الإقطاع، من المسؤول عن هذا إذًا؟

يخلط برينر مراحل العملية المختلفة، وهو بهذا يمزج أحداث قرون عديدة معًا، مفترضًا أنه كان هناك تحول جذرى حدث تقريبًا فى أواخر القرن الخامس عشر، واصفًا هذا التحول الجذرى بأنه يحتوى على عمليات نعرف أنها خصائص القرون الرابع عشر والسادس عشر والسابع عشر وليس الخامس عشر(٢٥). قد يبدو غريبًا أن يقع مؤرخ فى هذه الأخطاء، ولكى نفهم ذلك يجب أن نقدر خاصية إضافية أخرى فى نظرية برينر، فهى ليست برمتها نظرية إمبيريقية، إذ أنها فهى تحتوى على الكثير من الصوفية.

برينر مثل بعض الماركسيين يتبنى مفهومًا صوفيًا عن الرأسمالية. تفهم الرأسمالية على أنها كينونة، أو باعتبارها شيئًا حيويًا وضروريًا، عندما تصل فهى تصل مكتملة وكاملة وكأنها إله ينزل من جبل الأولب ليحكم شئون البشر. لذا لا نفكر فى "تحول" للرأسمالية: يأتى نوع من اللحظة الصوفية عندما تأتى وتتمكن من مقاليد الأمور. الرأسمالية التى (وفقًا لبرينر) ظهرت فى إنجلترا الريفية فى أواخر القرن الخامس عشر هى نفس الرأسمالية الحيوية التى تحكم إنجلترا اليوم(٢٦). جوهرها هو نفسه. مع الوقت تتطور بصور متعددة - على سبيل المثال، تمد نفسها بالصناعة ولكنها تبقى نفس الكينونة. كما أنها تحافظ على نفس خصائصها الهامة وبعضها صوفى، وتجلب معها عقلانية فورية، وتظهر فجأة القدرة على الاختراع والابتكار اللذين لم يوجدا فى عصر الإقطاع كما يقول برينر(٢٧). وفجأة نجد العمال "أحرارًا" أى أنهم يبدءون فى اتخاذ قرارات عقلانية اقتصادية فى سوق عمل حرة. وفجأة أيضًا نجد للمجتمع (المجتمع الإنجليزى) "اقتصادًا"(٢٨). وما هو أكثر من ذلك. هذا المفهوم الصوفى للرأسمالية يقوم مقام نظرية إمبيريقية عن التحول: قد توحى الحقائق

الإمبيريقية الصرفة بتحول بطيء وطـويل مع الكثـير من الأحـوال المعقـدة والمتضاربة، بما فيها بعض التقهقـر إلى الإقطـاعية الكلاسيكية. فى لحظـة تاريخية صـوفية (سنة أو بضعة عقود) تظهر الرأسمالية وتحول إنجلترا الريفية.

هنا يكمن جوهر نظرية برينر، فقد فاز الفلاحون الإنجليز فى القرن الرابع عشر بحريتهم. استبعاد القنانة أدى إلى تحريك عدد من العمليات التى كان من شأنها الإطاحة بالإقطاع؛ وحيث إن الفلاحين أصبحوا الآن أحراراً، فيمكن أن تتحسن أو تسوء مكانتهم الاقتصادية وفقاً لأمور مثل حجم ممتلكاتهم. كانت هذه عملية تمييز الفلاحين فى مجموعات ذات مكانة وشيئاً فشيئاً أصبحت طبقات. أما الفلاحون الأقل نجاحاً فبقوا كمزارعين أو فقدوا ممتلكاتهم وأصبحوا عمالة بلا أرض. أما المزارعون الأكثر نجاحاً فتمكنوا من التفاوض مع اللوردات وأصحاب الأرض للحصول على عقود إيجارية لممتلكات كبيرة تتطلب العمالة المؤجرة وتؤهلهم لإنتاج ربح ومن ثم تراكم رأس المال[٢٩]. كانت العوامل الرئيسية فى هذه العملية: أولاً القضـاء على القنانة، الأمر الذى حرر عقل الفلاح حتى يبدأ بطريقة عقلانية التفكير فى طـرق لتحسـين الإنتاج الزراعى. ثانياً: أصبح التحرر من القنانة يعنى أن يتحرك العمال الزراعيون فى سوق العمل بين الأعمال ذات العائدات المجزية[٣٠]. هذان هما الملمحان الرئيسيان للرأسمالية: العقلانية الرأسمالية تؤدى إلى الابتكار التكنولوجى، والعمالة الحرة تؤدى إلى جهود لتقليل النفقات ورفع كفاءة العمل. وأصبح الفلاحون الكبار الآن صغار رجال الأعمال ويستأجرون الأرض من اللوردات ويستأجرون العمالة ويتنافسون فيما بينهم ويراكمون رأس المال أو - إذا لم ينجحوا - يتركوا هذا العمل، وباختصار، هى قائمة مواصفات مشروع تجارى صغير حديث.

هناك عدد من المشاكل الكبيرة فى تلك النظرية أكبرها هو التوقيت. انتهت القنانة فى القرن الرابع عشر، ولكن الزراعة الرأسمالية - النموذج الذى نظرنا إليه الآن - لم تكن معروفة تقريباً قبل حوالى ١٥٢٠ ولم يصبح منتشراً إلا بعد مئة سنة أو أكثر. حقاً، عندما يدخل برينر فى التفاصيل عن الخصائص المفترضة للزراعة الرأسمالية فى إنجلترا الريفية فإنه يتجه كثيراً إلى وصف أنواع المزارع التى اتصف بها القرن

الثامن عشر - أى حوالى ٤٠٠ سنة بعد انهيار القنانة. يتجلى الخطأ على نحو أكبر عندما تأخذه الحماسة فى وصف العقلانية الجديدة وما أنتجته من ابتكارات تكنولوچية. فهو يتحدث عن "الابتكارات الجذرية"، ولكن لم توجد تلك الابتكارات حتى قرون مقبلة[٣١]. يؤسس برينر مجادلته على أساس مرجع واحد هو كيردچ KERRIDGE. كما أن هناك آخرين كثيرين ينكرون أنه كانت هناك ثورة على الأقل فى أمور تتعلق بالتقنية الزراعية، وبعضهم يدعو لفكرة أن العهد الثورى الحقيقى كان هو القرن الثامن عشر أو أنه لم يحدث أى شىء ثورى فى إنجلترا الريفية قبل الثورة الصناعية[٣٢].

دعونا نفرغ محتويات هذه المشكلة حتى نتمكن من التعامل مع أجزائها. أولاً، بالنسبة للتوقيت فإن الثورة الزراعية فى القرن السادس عشر لدى كيردچ متأخرة قرنًا كاملاً، وبالتالى فهى لا تتفق مع نظرية برينر: أفسحت القنانة الطريق أمام المستأجرين "الأحرار" قبل نهاية القرن الرابع عشر. ثانيًا: يجادل برينر أن التطورات التكنولوچية بعد تحرير الفلاحين أدت إلى توسيع الممتلكات وخلق المزارع الرأسمالية. ولكن تلك التطورات التكنولوچية التى كان لها هذا الأثر حدثت بعد قرنين: وبهذا نجد أن الأثر يسبق السبب. اثنان من التطورات التكنولوچية التى ناقشها برينر لم تكن ثورية بأى شكل من الأشكال. نجده يستشهد بابتكار فى تكنولوچيا الرى (امتلاء المروج بالمياه) ولكن ذلك لم يكن ابتكارًا (حيث إن الرى فن قديم) وليس مهمًا[٣٣]. ثم يستشهد برينر بعد ذلك بنظام جديد للدوران (فى إنجلترا) يتطلب التبادل بين المراعى الجيدة والأراضى الزراعية ("الزراعة المتحولة"). ولكن هذا لم يكثف الإنتاج (أنواع أخرى أقدم من الدوران كانت أكثر تكثيفًا) بالرغم من أنه يعتبر تقدمًا رائعًا فى مجال تكنولوچيا المراعى، لم يكن تقدمًا ثوريًا حيث إنه كان مستخدمًا فى إقليم فلاندرز(*) - منطقة ليست ببعيدة - فى أوائل القرن الرابع عشر[٣٤]. إذًا المجادلة برمتها عن الظهور الفورى "للعقلانية" ثم بعدها مباشرة بدايات التقدم التكنولوچى الجذرى، هى فى الحقيقة، مجادلة جوفاء.

(*) FLANDERS إقليم فى شمال غرب أوروبا (أجزاء من بلچيكا وفرنسا وهولندا). (المترجمة)

يبدو أن برينر كان يفكر فى التقدم التكنولوچى الرائع السريع الذى صاحب الرأسمالية أثناء وبعد الثورة الصناعية، العملية التى عرفها ماركس باعتبارها ملمحًا أساسيًا للرأسمالية الحديثة، حيث أصبحت التكنولوچيا الجديدة إستراتيجية حيوية للمؤسسات فى تنافسها مع غيرها. يؤكد برينر (وهو يستشهد نصًا بماركس) أن "عقلانية" التكنولوچيا الثورية خاصية أساسية للرأسمالية، ثم يلقى بكل هذا إلى الوراء حيث إن التقدم التكنولوچى الثورى لم يكن قد حدث بعد. إن صوفية مفهومه عن الرأسمالية تجعله يتجاهل الحقائق ويدفع بالقرن الثامن عشر إلى الوراء، إلى القرن الخامس عشر.

ثم بعد ذلك هناك صعوبة جدية فى مفهوم برينر لتكنولوچيا العصور الوسطى، فلديه صورة متناقضة جدًا عن الفلاحة. إنه يظن أن فلاحى العصور الوسطى لم يكونوا مبتكرين تكنولوچيًا ولكن هناك بعض الفلاحين الذين أصبحوا مبتكرين عندما مستهم عصا الرأسمالية السحرية. إن التفكير هنا أن الفلاحين محافظون وتقليديون طالما امتلكوا وسائل الإنتاج، والأرض واعتمدت معيشتهم على ذلك[٣٥]. لو كانوا عبيدًا كما يقول برينر فلن يكون لديهم أى حافز للتفكير فى تطورات تكنولوچية جديده حيث إن اللوردات هم من سيحصدون عائد تعبهم، ولكنهم يصبحون تقدميين ومبتكرين عندما تصبح الأرض سلعة، ويجب أن ينتجوا من أجل البيع حتى يستطيعوا الوفاء بإيجار الأرض.

بدون سبب واضح يعتقد برينر أن العبيد امتلكوا وسائل الإنتاج (وخلال كل مجادلته نجده يصف الفلاحين فى العصور الوسطى أو الفترة الحديثة وكأنهم كانوا ملاك الأرض، ولكن معظمهم فى الواقع لم يكن من الملاك فى أى وقت من تلك الفترة فى إنجلترا أو فى أى مكان آخر فى شمال غرب أوروبا)[٣٦]. وإذا نحينا تلك الحقيقة جانبًا، فإن الفلاحين لم يكونوا ضيقى الفكر أوتقليديين. نستطيع أن نستنتج هذا من البحث الحديث الذى لا يوافق على موقف منظرى "الحداثة" الأوروبيين المتهكم تجاه الفلاحين ولاعقلانيتهم وتقليديتهم المزعومة، وهو الموقف الذى يشاركهم برينر فيه. نعرف هذا أيضًا من البحث الذى كشف المجموعة العريضة لابتكارات الفلاحين التكنولوچية فى العصور الوسطى.

يقدم برينر مجادله خاطئة مشابهة عن أصحاب الأرض الإقطاعيين الذين كما يقول ليس لديهم أى دافع للابتكار التكنولوجى لاكتفائهم بمكانتهم الاجتماعية[٣٧]؛ وهنا يرتكب برينر خطأين. أولاً: كانت هناك أزمات متكررة فى العصور الوسطى، وواجه أصحاب الأرض مراراً عجزاً فى تقديم فائض الإنتاج والحاجة إلى زيادته. ويتخيل برينر أن الأسلوب النموذجى لذلك هو الضغط على الفلاحين بقوة وليس محاولة تحسين وسائل الإنتاج فى مزارعهم أو مزارع الفلاحين[٣٨]. مع التسليم بأن اللوردات الإقطاعيين كانوا خبراء فى الضغط على الفلاحين، فإن الكثير من العزب، والكنيسة أو غيرها، قاموا مع ذلك بجهود هامة لتحسين وسائل الزراعة وإنتاج تكنولوچيا جديدة. خطأ برينر الثانى هو افتراض أن الضغط ليس له حدود: فهو لا يلاحظ أن العبيد فى أى مكان فى العصور الوسطى كانوا يعانون من الاستغلال أحياناً لدرجة تفوق الاحتمال وتهدد الحياة. حقيقة أخرى عن عملية الضغط نفسها التى يتجاهلها برينر: عندما أُجبر الفلاحون على زيادة فائض الإنتاج، كانوا تحت ضغط هائل لزيادة مستويات إنتاجهم ومن ثم كان من الممكن (وقد قاموا بذلك) أن يبتكروا تكنولوچياً بطرق أخرى لزيادة الإنتاج. بمعنى آخر، من الخطأ ان نقول أنه لم يكن لدى العبيد (وأيضاً أصحاب الأرض) أى دافع للابتكار. ثانياً: يستبعد برينر واحدة من المجادلات الشائعة للنظرية الماركسية: فى كل المجتمعات الطبقية، نجد الطبقة الحاكمة دائماً ما تسعى وراء زيادة ثروتها، فهى دوماً غير راضية، كما أن النظام دائماً فى حالة عدم استقرار أو توازن. يعتقد برينر أن المجتمع الإقطاعى محكوم بقوانين مختلفة جداً عن تلك التى تنطبق على المجتمع الرأسمالى. لم يكن لديه "اقتصاد". كان به استغلال بسيط نسبياً. ومن المفترض أن الطبقة الإقطاعية الحاكمة كانت راضية بمستوى معين من الدخل من الفلاحين أو ما يكفى لكى تكون لديها الرغبة للضغط على الفلاحين لأقصى درجة ولا تحاول زيادة الإنتاج الكلى. وبوجه عام يصف برينر هذا المجتمع "بالركود"[٣٩].

نأتى الآن لأكثر فرضيات برينر غرابة. إنه يعلم أن نظريته ماركسية كما أنها مبنية على فكرة صراع الطبقات. فى النظرية الماركسية يتجه صراع الطبقات إلى أن ينتج تقدمًا في التطور الثقافي وذلك بسبب خسارة المستغل. بالنسبة لبرينر، خسرت الطبقة الحاكمة لدرجة أن الفلاحين تمكنوا من تأمين حريتهم من العبودية. ولكن هذا لم يفسر انهيار الإقطاع كأسلوب إنتاج. حدث هذا (فى إنجلترا) بعد مئة سنة تقريبًا طبقًا لبرينر وقد حدث لأن الطبقة الحاكمة انتصرت فى صراع الطبقات. ويجادل برينر بأنه لو كان الفلاحون قد فازوا حقًا فى القرن الرابع عشر، فستكون النتيجة مجتمعًا من الملاك الأحرار وليس الرأسمالية الريفية، وذلك لأن الفلاحين الملاك (فى تقدير برينر) غير مبتكرين، وراضون بوجودهم الريفى والرعوى فى أملاكهم، ولا يمكن لهذا الشكل من المجتمع أن يكون قد مر بتحول يفضى به إلى الرأسمالية.

يشير الآن برينر إلى فرنسا ويقدم أحد مقارناته المحدودة (وغير الصحيحة). يقول (وهو غير دقيق) أن الفلاحين فى فرنسا قد فازوا ولذا فأصحاب الأملاك منهم أصبحوا يتحكمون فى المجتمع وأقاموا علاقات حميمة مع الملك ضد اللوردات وبالتالى تمكنوا من المحافظة على وضعهم[٤٠]. وهذا يفسر عدم صعود الرأسمالية فى فرنسا. فى إنجلترا على الجانب الآخر، خسر الفلاحون. لقد أمنوا نهاية العبودية، ولكنهم لم ينجحوا فى الفوز بالامتلاك الكامل لأرضهم: فقد ظلوا مستأجرين لنفس اللوردات[٤١]. وعليه كما يقول برينر فقد ظهرت هناك طبقة فرعية من الفلاحين الذين استغلوا الإيجار فى الرأسمالية الزراعية. تفاوضوا على الإيجارات مع أصحاب الأرض، وقاموا باستئجار ممتلكات أكبر وأكبر واستأجروا العمالة وبذلك أصبحوا مزارعين رأسماليين، ووضعوا جزءًا من أرباحهم لأصحاب الأرض تمامًا مثل أى عامل صغير حديث عندما يدفع الإيجار لملاك المصانع والمكاتب. بالنسبة لبرينر كان هذا هو الوعاء الحقيقى الذى أنضج الرأسمالية[٤٢]. إذًا فإن كون الفلاحين الإنجليز خسروا فى صراعهم هو التفسير الهام لنهاية الإقطاع ونهضة الرأسمالية. وهذا يقلب نظرية صراع الطبقات رأسًا على عقب.

يريد برينر أن يلقب فرانك ووالرشتاين ورفاقهم بـ"الماركسيين السميثين الجدد" "NEO - SMITHIAN MARXISTS" وذلك لاهتمامهم الكبير بالتجارة والتبادل والمدنية. هو لا يبعدهم أبدًا عن مصطلح "ماركسي" ولكننا نجد هذا ضمنيًا فى مجادلته كما أوضح المعلقون على نظريته(٤٣). بالطبع لم يهمل ماركس التجارة والتبادل والمدنية. ولكن ماركس أعطى سلطة سببية أساسية لصراع الطبقات. يدعى برينر نفس الشيء أيضًا. بالنسبة له ترك سويزى وفرانك ووالرشتاين صراع الطبقات لمصلحة التجارة والتبادل والمدنية. وهذا ظلم بالنسبة لسويزى الذى يضع نصب عينيه صراع الطبقات المدنى، كما أنه كذلك بالنسبة لفرانك ووالرشتاين اللذين يلاحظان وجود صراع الطبقات فى أمريكا اللاتينية مثل أوروبا. ولكن هذا خارج الموضوع الحالى. تعطى نظرية برينر فى الحقيقة دورًا ثانويًا لصراع الطبقات.

مثل غيره الذين يكتبون عن أصول الرأسمالية فى العصور الوسطى، يقدم برينر تقريرًا عن الصراع بين العبيد واللوردات ويسجل حقيقة أن تغييرًا فى المجتمع كان فى طريقه للظهور ولكنه لا يذهب أبعد من هذا. جوهر نظريته هو المجادلة بأن طبقة المزارعين المستأجرين ذات العقلية التجارية ظهرت فى إنجلترا فى خضم كل تلك التغيرات، وكما يقول فإن صغار الفلاحين المستأجرين كانوا نتيجة لصراع الطبقات مع اختلافها أيضًا. ولكن هذا الصراع بين العبيد وملاك الأرض - حدث فى أماكن كثيرة وليس فى إنجلترا الريفية فقط، افتراض برينر الهام هو أن المزارعين المستأجرين الإنجليز تطوروا حتى أصبحوا مزارعين رأسماليين - أوائل الرأسماليين - وذلك ليس لأنهم كانوا فى صراع مع أحد ولكن لعدم تمكنهم من الحصول على ملكية الأرض. وهذا يوحى لبرينر بأنهم لم يقعوا فريسة للتيار المحافظ غير المبتكر الذى (كما يعتقد) يصيب الفلاحين الملاك. وبما أنهم لم يمتلكوا الأرض ولم يكونوا عبيدًا فقد كانوا "أحرارًا" ليراكموا الثروة، (بهذا المفهوم يعتبر أصحاب الأرض "غير أحرار")(٤٤). كل هذا يمهد لإمكانية وجدوى، والرغبة فى النشاط الرأسمالى "على أعلى مستوى من التكنولوچيا"(٤٥).

والآن يتحول برينر إلى نظرية غير ماركسية لتفسير - حقيقةً لتفسير - صعود الرأسمالية. هذه هي فكرة العقلانية التكنولوچية التي تظهر بالنسبة لبرينر في هذه الطبقة وهذا المكان الفريد (وهنا يتجاهل وجود الإيجار في صورة الأموال السائلة والعمالة الزراعية بأجر في أقاليم وقارات أخرى). هذا الرأى ليس ماركسيًا بقدر ما هو ڤيبرى، ونظرية برينر الأساسية هي أقرب لڤيبر منها لماركس. يختلف برينر عن ڤيبر في اعتقاده بأن تلك العقلانية ليست صفة دائمة للشعب الأوروبي وإنما هبطت على أوروبا فجأة (إذا جاز التعبير) وصلت فجأة، كاملة التشكيل، في لحظة سحرية عندما بدأت طبقة المزارعين المستأجرين صغار الملاك الإنجليز (ذوي العقلية التجارية) في تراكم الثروة. ولكن هذا ليس بعيدًا عن ڤيبر الذي يؤكد أيضًا على أهمية العقلانية الرأسمالية وازدهارها المفترض في لحظة سحرية (في وقت الإصلاح الديني). بما أن الناس يمكن أن يلقبوا بألقاب، فدعونا نطلق على برينر "الماركسي الأوروبي الڤيبرى الجديد" على سبيل المزاح.

آراء أخرى

لا علاقة بتوصيف الناس وموقف برينر لأنه لو كانت "نظرية العالم الثالث" قد استبعدت لحساب "السميثية الجديدة" فإن المنطقة الماركسية قد يبدو وكأنها خُصصت لبرينر، ولكن هذا لم يحدث. لسبب وهو أن الماركسيين كانوا يتناظرون لوقت طويل، وما زالوا، حول السؤال عن أهمية القوى الريفية أو المدنية في إحداث التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية. لا يحاول برينر أن يضلل أحدًا عن حقيقة أنه يكمل مناظرة دوب - سويزي[٤٦] DOBB- SWEEZY الشهيرة مقدمًا رأى دوب أو رأى دوب الجديد على رأى سويزي وعلى كل باقي الماركسيين الذين يظنون أن نهضة المدنية كانت نتيجة، مثل الانهيار المعاصر للإقطاع في الريف. ولكن الكثير من القراء نسوا المناظرات القديمة (التي تعود إلى عدم تأكد ماركس نفسه من الأمر) وقرروا الدفاع عن آراء ماركس ضد نظرية "العالم الثالث" لدعم مفهوم برينر عن أصول الرأسمالية.

تتعلق المناظرة جزئيًا بالمكان. هل برينر على حق عندما يضع السبب فى الأرض التى يعمل بها المزارعون المستأجرون وليس أصحاب الأرض[٤٧]؟ فى إنجلترا الريف لا المدينة؟ فى إنجلترا وليس فى فرنسا أيضًا[٤٨]؟ فى غرب أوروبا وليس شرقها أيضًا[٤٩]؟ وليس أيضًا جنوب أوروبا[٥٠]؟ وليس آسيا[٥١]؟ وليس أفريقيا[٥٢]؟

كل الخصائص الهامة للمجتمع الإنجليزى الريفى فى أواخر العصور الوسطى بما فيها من صراع طبقات كانت موجودة فى نفس الفترة فى أماكن كثيرة، ويشمل ذلك الفلاحة التعاونية والإيجار فى صورة أموال سائلة والعمالة بأجر فى الريف والإنتاج على نطاق واسع لأغراض البيع وصراع الفلاحين، وغيرها كثير - ولا نستبعد سرعة معينة للابتكار الزراعى. الأدلة التى توضح كل ذلك كثيرة[٥٣]. وبالمثل فإنه من الواضح أن العمليات المدنية، أو القريبة منها بما فيها الإنتاج الكبير للتجارة لم تكن أقل تقدمًا فى جنوب أوروبا وآسيا من شمال أوروبا فى تلك الفترة[٥٤]. الأمر غير الواضح هو الأهمية النسبية لانهيار أو تحلل أسلوب الإنتاج الإقطاعى أو أسلوب الإنتاج الثانوى إنتاج زراعى طبقى فى الأقاليم التى يتحكم فيها أصحاب الأرض - فى مقابل تطور الإنتاج المدنى، العمليات الطبقية المدنية وطبقة من أصحاب الأرض البادئة فى الاستثمار فى مشاريع غير زراعية داخل وخارج البلاد. أشك فى أن كليهما كانا جوانب لعملية تاريخية واحدة. ربما لا يوجد تناقض بين دوب وسويزى على مستوى تحليل قائم على نظام عالمى.

لهذه الأسباب أجادل بأن شمال غرب أوروبا لم يكن بأى حال من الأحوال أكثر تطورًا أو أكثر امتلاءً بإمكانيات التطور من غيره من الأقاليم الكثيرة قبل ١٤٩٢. يبدو أن أزمة الإقطاع فى أواخر العصور الوسطى أو الاقتصاد الثانوى كانت تحدث فى أقاليم كثيرة. العملية التى خص بها برينر شمال غرب أوروبا كانت تحدث فى أماكن أخرى. (قدمت تلك المجادلة فى الجزء الأول).

بما أن الغالبية العظمى من الطبقة المنتجة كانوا فلاحين، فقد كان الاستغلال الريفى وصراع الطبقات قريبًا أو فى قلب الحدث. ولكن تركيبة الحقائق والعمليات

المدنية والقريبة من المدنية بما فيها الطبقة البرجوازية المدنية والطبقة العاملة المدنية وأنشطة التجارة، وأنشطة التصنيع وانتقال السلع لمسافات كبيرة والشركات ودرجة متنوعة ولكنها دائمًا هامة من الاستقلال السياسى - كانت مهمة فى حد ذاتها: البلدة الصغيرة لم تكن تابعة للريف فقط كما يلمح برينر كما لم تكن نتيجة بسيطة للأزمة البادية فى الإقطاع الريفى.

كانت الظواهر المدنية والقريبة من المدنية غير هامة فى شمال أوروبا قبل فترة الذروة فى العصور الوسطى، ولكنها كانت على درجة كبيرة من الأهمية فى جنوب أوروبا وأجزاء من إفريقيا وآسيا منذ وقت قديم. التركيبة المدنية فى أواخر العصور الوسطى مع أسلوب الإنتاج الجديد الذى كان يظن أنه بداية للرأسمالية أو رأسمالية مراهقة أو إرهاصات الرأسمالية - فهى ليست شكل من أشكال الإقطاع، كما لم تكن "إنتاج سلعى بسيط" - وجدت فى أجزاء كثيرة فى النصف الشرقى من الكرة الأرضية. كان الكثير من المدن غير الأوروبية فى الطريق باتجاه الإنتاج الرأسمالى والعلاقات الطبقية الرأسمالية والتجارة الرأسمالية مثل معظم مدن أوروبا المتقدمة، ولكنها كانت متصلة بواسطة شبكة انتشار متشابكة تغطيها كلها(٥٥).

ولكن كان أسلوب الإنتاج الذى يتطلب استخدام العمالة الريفية بأجر فى إنتاج السلع منتشراً كذلك فى هذا النصف من الكرة الأرضية، فى بعض الأحيان فى مناطق تقترب من المدينة والأماكن البعيدة من المدن وفى أحيان أخرى فى أقاليم ريفية صرفة. هناك نقد ذو شقين لموقف برينر فى كل هذا. يعد برينر مخطئًا فى بحثه عن التحول الريفى الأساسى فى شمال أوروبا فقط: يجب أن يبحث أيضًا فى فوچيان Fujian وفيچاياناجار Vijayanagar وكيلوا Kilwa ووادى النيل ووادى النيجر، وهكذا. وهو مخطئ كذلك فى استبعاد التحول المدنى فى أواخر العصور الوسطى وهى تحولات فى الطبقة والإنتاج، والأكثر من ذلك التحولات التى كانت تحدث بإيقاع سريع فى جنوب أوروبا وآسيا وأفريقيا.

جادل عدد من الكتاب الماركسيين وغير الماركسيين بالموقف الذى لخصته: إن عمليات التغيير من الإقطاع أو أسلوب الإنتاج الثانوى باتجاه شيء مثل الرأسمالية كانت تحدث فى أقاليم كثيرة فى أواخر العصور الوسطى وليس فقط فى إنجلترا والبلدان المنخفضة كما كانت تحدث فى الأقاليم المدنية والريفية على حد سواء. رأيى وهو ليس مختلفًا عن آراء أندريه جندر فرانك وچانيت أبو لغد Janet Abu Lughod وسمير أمين Samir Amin(٥٦)، إن التحول كان بنفس السرعة والمستوى فى القارات الثلاث فى ١٤٩٢.

إذا كانت عمليات التغير التاريخى من الإقطاع باتجاه الرأسمالية (أو ما يشبهها) تحدث بالفعل فى أجزاء مختلفة من نصف الكرة الشرقى فى أواخر العصور الوسطى ولم يكن شمال غرب أوروبا بأى معنى من المعانى قائدًا، فكيف لنا إذًا أن نفسر حقيقة نهوض أوروبا وعدم نهوض آسيا وإفريقيا، وكيف تسنى لشمال غرب أوروبا تطوير الرأسمالية الصناعية والإمبراطورية؟ ترتكز وجهة نظرى مرة أخرى على المكان، على الموقع وسهولة الاتصال. نبدأ بمفهوم عن نصف الكرة الشرقى ومراكز بحرية تجارية كلها فى طور التطور وكلها مترابطة بصورة مباشرة أو غير مباشرة. المراكز الأيبيرية كانت أقرب، كما كان الوصول إليها من أمريكا أكثر سهولة من أى مراكز تنافسية أخرى(٥٧). الثروة من إنتاج الذهب الأمريكى وإنتاج الفضة وإنتاج المزارع، واستغلال العمالة الأمريكية والأفريقية والأوروبية فى تلك العملية والقيمة الإضافية من العالم المستعمر والتراكم المترتب عليه فى أوروبا سمح للأوروبيين - طبقة رأسمالية أولية، ريفية ومدنية، بداية للبرجوازية - بالبدء فى إذابة الإقطاع فى أوروبا والبدء فى هدم المجتمعات الرأسمالية الأولية الأخرى المنافسة. مهدت هذه العملية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لمجموعة من التغيرات الداخلية فى أوروبا أدت إلى التحول السياسى فى القرن السابع عشر وبالتالى إلى الثورة الصناعية والرأسمالية الصناعية. كانت عملية صعود الرأسمالية على نطاق عالمى.

الهـــوامـــش

(١) انظر الفصل الأول من الجزء الأول.

(٢) Brenner, "Agrarian Class Structure and Economic Development in PreIndustrial England" (1985a), originally published in 1976; "The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism" (1977); "The Agrarian Roots of European Capitalism" (1985b), originally published in Past and Present (1982).

(٣) Aston and Philpin, eds. The Brenner Debate: Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe (1985).

(٤) انظر على سـبـيل المثـال Torras, "Class Struggle in Catalonia" (1980); Hoyle, "Tenure and the Land Market in Early Modem England: Or a Late Contribution to the Brenner Debate" (1990); Katz, "Karl Marx on the Transition from Feudalism to Capitalism" (1993); Overton, Agricultural Revolution in England (1996).

(٥) أراء فرانك الحالية لا تتبع نظرية التبعية Dependentista. انظر ReORIENT (1998).

(٦) M. Cooper, "Town and Country in the Great Transition: Adam Smith et at. on Feudalism and Capitalism" (1980), pp. 81-82.

(٧) Browett, "Into the Cui de Sac of the Dependency Paradigm with A. G. Frank" (1980), p. 111.

(٨) Macfarlane, "The Cradle of Capitalism: The Case of England" (1988), p. 191.

(٩) انظر على سبيل المثال Corbridge, Capitalist World Development: A Critique of Radical Development Geography (1986), pp. 38-44; O'Brien, "Path Dependency, Or Why Britain Became an Industrialized and Urbanized Economy Long Before France" (1996).

(١٠) لفترة متأخرة (القرنان السابع عشر والثامن عشر) وفي سياق مختلف (مجادلة برينر بأن التأخر لم يكن حتميًا بالنسبة للعالم المستعمَر) هناك ذكر سريع بربادوس وشمال أميركا المستعمرة باختصار في "الأصول" لبرينر.

(١١) فى عمل برينر "الجذور الزراعية": "كما لا يمكن أن يكون هناك سؤال ولكن النموذج المالثوسى فى حد ذاته ينطوى على منطق قهرى. كان نموذج مالثوس صحيحًا، ليس بالنسبة للاقتصاد الصناعى الوليد الذى كان يحلله، ولكن بالنسبة للمجتمع الراكد المتخلف الذى ظهر فيه "(p.14)". باستخدام فرضياتها الخاصة وعدد المتغيرات الصغير الذى يتضمنها، تبدو المالثوسية المدنية أكيدة ومثبتة "(p.15)" قد عزل منظرو المالثوسية نموذجًا هامًا لتطور واستقرار اقتصادى طويل المدى "(p.18)" أزمة [القرن الرابع عشر] فى الإنتاج أدت إلى أزمة ديموغرافية، تدفع بالسكان إلى حافة البقاء "(p.33)". الانحدار الديموغرافى [الملحوظ]... سيطر على معظم أوروبا.... وهى، المرحلة ب، الشهيرة فى المالثوسية "(p.51)" [الـ] تعداد السكانى المتنامى... [والأسعار] فى القرنين السادس عشر والسابع عشر [أديا] ببساطة إلى تجديد الدائرة المالثوسية القديمة للتأخر "(p.61)" فى برينر، "الهيكل الطبقى الزراعى": "هدفى [فى مقال ١٩٧٦] لم يكن إنكار وجود دوائر [مالثوس] ذات المرحلتين، ولكن غرضى كان كشف أوجه القصور فى النماذج المالثوسية الجديدة المرتبطة بالنماذج الريكاردية Recardian... فى تفسير النماذج الطويلة الأمد "(p.217)" لا يستطيع أحد إنكار أن التزايد الديموغرافى المستمر فى وجه إنتاجية العمالة المتناقصة الآن أو لاحقًا سيؤدى إلى عدم توازن بين السكان والموارد، وبالتالى إلى الفقر والمجاعة والموت "(p.223)". "[الـ] مفسرون الديموغرافيون.... [لا يستطيعون] إخبارنا لماذا أثبتت فرضيتهم المالثوسية بتأخر القوى الإنتاجية صحتها بالنسبة لحقبة كاملة، ومن ثم لم تستطع ذلك فيما بعد" (PP.224-225). "المركزية السياسية عطلت الآلية المالثوسية، العادية، لتوازى بين السكان والإنتاج" (PP.241-242) "النمو السكانى المطرد كان يجب أن يسفر عن انتشار الفقر والمجاعة" (P.265). "التعجيل بالمركزية السياسية... أسرع بالتكيف المالثوسى" (P.270) "الزراعة الهولندية لم تتجه نحو التطور المدفوع بالديموغرافيا... النموذج المالثوسى المعروف" (P.320). الاقتصاد الإنجليزى فى القرن السابع عشر كانت له "القدرة على المحافظة على الزيادة الديموغرافية لأبعد من الحدود المالثوسية القديمة" (P.325). انظر كذلك Brenner, "Agrarian Roots," pp. 27 and 46; Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 227, 230, 236, 269; Brenner, "Origins," p.35.

(١٢) من بين هؤلاء الباحثين إيريك جونز، جون هول، وديفيد لاندز الذين سنناقش أراءهم لاحقًا فى فصول أخرى من هذا الكتاب.

(١٣) Brenner, "Agrarian Roots," p.17; "Origins," pp. 28-29, 40, 42, 45-49, 61, 83.

(١٤) Brenner, "Agrarian Roots," p.25; "Agrarian Class Structure," pp.241, 274; "Origins," p.47.

(١٥) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 38-39; "Origins," p. 47.

(١٦) Blaut, "Where Was Capitalism Born?"; Colonizer's Model, Volume 1.

(١٧) انظر نقد هذه المناقشة فى الكتاب.

(١٨) انظر Brenner, "Agrarian Roots," pp. 21, 30; "Agrarian Class Structure," pp. 220, 221, 260.

(١٩) انظر in criticism of Brenner on this matter: in Aston and Philpin, Brenner Debate:
Wunder, "Peasant Organization and Class Conflict in Eastern and Western
Germany" (1985), pp. 91-100; and Le Roy Ladurie, "A reply to Robert Brenner"
(1985), pp. 101-106. انظر أيضًا Dodgshon, The European Past: Social Evolution
and Spatial Order .1987), p.12.

(٢٠) Brenner, "Origins," pp. 27-33,38-41,53-63,67-68,82-92.

(٢١) يجب ألا يُفترض أن تأكيد برينر القوى على الأماكن الأوروبية يعكس ببساطة حقيقة أن مقالاته "الماضي والحاضر" تحتوى "أوروبا" فى العنوان. عناوين ومضمون تلك المقالات تعكس حقيقة أن برينر ينظُر بأن الرأسمالية والحداثة ظهرا فى أوروبا، وحدها. فى مقال برينر فى New Left Review - 1977، التى تحمل العنوان الكاشف "أصول التطور الرأسمالى" ليس هناك أى ذكر لأماكن غير أوروبية فى الفترة قبل القرن السابع عشر. أوروبا و"تنظيمها الطبقى المتطور تاريخيًا" كانت وستظل مركز التطور (P.91). "ديناميكية التطور الرأسمالى [هى] عملية للتراكم الرأسمالى تكبر ذاتيًا عن طريق الابتكار فى المركز". (P.29). القلب أو المركز هو العالم الأوروبى.

(٢٢) يناقش هذا الإجراء فى Blaut, "Mapping the March of History" (1993b)، حيث أصف المنهج وأطبقه على كتب تاريخ العالم وأطالس تاريخية متعددة. سوف تضمن هذه المقالة بعد مراجعتها فى الجزء الثالث من نموذج المستعمر للعالم.

(٢٣) أسماء الأماكن الفرنسية مذكورة بنفس القدر الذى ذكرت به الأماكن الإنجليزية، وذلك بسبب أن مجادلة برينر هى أن الرأسمالية لا يمكن أن تظهر فى فرنسا. سأناقش هذه "المقارنة" بين إنجلترا وفرنسا فى مكان لاحق فى هذا الفصل.

(٢٤) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 35, 46-54; "Agrarian Class Structure," pp. 215, 252,274,276,282,294-297,200-206,309-311,314-316.

(٢٥) أبنى هذا على اختبار دقيق لكتب برينر فى Aston and Philpin, Brenner Debate، ملاحظًا لكل حقيقة تاريخية التاريخ الواضح أو الضمنى لها.

(٢٦) Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 234-236, 275, 293, 295-301; "Origins," pp. 30-32, 61, 67-68, 78.

(٢٧) Brennet, "Agrarian Roots," pp. 29, 31, 33, 50, 59, 63n; "Agrarian Class Structure," pp. 214, 233-236, 290,303,206-316; "Origins," pp. 26,42-43,46,68.

(٢٨) Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 227, 228n, 233; "Origins," p. 30, 37. يشترك الكثير من الماركسيين المركزيين الأوروبيين فى هذا الرأى العجيب وهو أن الإقطاع لم يكن له اقتصاد، أى أن الاستغلال كان يحدث تحت رعاية السياسة والدين وليس الاقتصاد.

(٢٩) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 30-63; "Agrarian Class Structure," pp. 274-327.

(٣٠) Brenner, "Agrarian Class Structure", p. 33.

(٣١) Brenner, "Agrarian Class Structure", pp. 32-33, 46, 49-51, "Agrarian Roots," 214-215,296-297,306,308-311,315-316. See the critique by J. Cooper, "In Search of Agrarian Capitalism" (1985), pp. 141-143.

(٣٢) Eric Kerridge, The Agricultural Revolution (1967). للمزيد عن آراء معارضة انظر على سبيل المثال Titow, English Rural Society, 1200-1350 (1969). لنقد موقف برينر انظر على سبيل المثال Overton, Agricultural Revolution,; Croot and Parker, "Agrarian Class Structure and the Development of Capitalism: France and England Compared" (1985), pp. 79-90; J. Cooper, "In Search". يعتقد بعض المؤرخين الاقتصاديين أنه لم تكن هناك ثورة زراعية في العصور الوسطى، حتى فترة الثورة الصناعية، حينما ارتبط التصنيع والمدنية والنمو السكاني في إنجلترا في الوقت والمكان مع زيادة الإنتاجية الزراعية وتقديم تكنولوجيا زراعية جديدة وعلى وجه الخصوص أسمدة جديدة وأدوات صلب معدلة، وبهذا يظل السؤال مفتوحًا: أيهما كان السبب في الآخر؟، انظر Clark, "Renting the Revolution" (1998) and "What Was Real Agricultural Output in England in 1700 Compared to 1850 or 1860?" (1999); Grantham, "Contra Ricardo: On the Macroeconomics of Pre-Industrial Economies" (1999). يقبل كثير من المؤرخين الاقتصاديين مفهوم الثورة الزراعية في إنجلترا ولكنهم يؤرخون لها بعد الفترة التي ادعى برينر وكيردج ظهورها فيها. انظر على سبيل المثال Overton, Agricultural Revolution; Beckett, The Agricultural Revolution (1990).

(٣٣) انظر Brenner, "Agrarian Class Structure," p. 309; Brenner, "Origins," p. 42; Croot and Parker, "France and England," pp. 79-90.

(٣٤) Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 309, 316; Brenner, "Origins," p. 42; also see Croot and Parker, "France and England," p.80.

(٣٥) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 59, 63n; "Agrarian Class Structure," pp. 234136, 306,311,313,; "Origins," pp. 36, 43.

(٣٦) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 48--49; "Agrarian Class Structure," pp. 228230, 243-244, 265, 306. للاطلاع على آراء معارضة عن ملكية الأرض في هذه الفترة انظر Cooper (1985), pp. 151-152 and elsewhere; Wunder, "Peasant Organization," pp. 91-100. Also see Hoyle, "Tenure" (1990), and Overton, Agricultural Revolution.

(٣٧) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 31, 43-44. في أواخر العصور الوسطى استثمر بعض مالكي الأرض بكثافة في مشاريع جديدة غير زراعية، بما فيها مغامرات ما وراء البحار، انظر Cain and Hopkins, "Gentlemanly Capitalism and British Expansion Overseas: Part 1. The Old Colonial System, 1688-1850" (1986).

(٣٨) Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 234-235 and elsewhere.

(٣٩) Brenner, "Agrarian Roots," p. 41.

(٤٠) "Agrarian Roots," pp. 29, 54-55, 59-61; Brenner, "Agrarian Class Structure," pp. 290, 307-311. لنقد انظر Croot and Parker, "France and England"; Bois, Against the Neo-Malthusian Orthodoxy" (1985), pp. 107-118; and J. Cooper, In Search, p.185n.

(٤١) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 48-49, 61; "Agrarian Class Structure," pp. 307-311. انظر Grantham, "Agricultural Supply During the Industrial Revolution: French Evidence and European Implications" (1989), and his "Divisions of Labour: Agricultural Productivity and Occupational Specialization in Pre-Industrial France" (1993).

(٤٢) Brenner, "Agrarian Roots," pp. 49-53; "Agrarian Class Structure," pp. 293, 296-302,315-318. انظر Brenner, "Agrarian Roots," pp. 49-53; "Agrarian Class Structure," pp. 293, 296-302,315-318. (يبدو برينر مثل الدافع المحافظ عن قوانين الذرة، P.189).

(٤٣) انظر على سبيل المثال Macfarlane, "Cradle," p. 191; Taylor, "The World-Systems Project" (1989), pp. 342-343.

(٤٤) انظر Hoyle, "Tenure," عن التراكم بواسطة أصحاب الأرض.

(٤٥) Brenner, "Origins," p. 32.

(٤٦) Hilton, ed., The Transition from Feudalism to Capitalism (1976).

(٤٧) Hoyle,."Tenure."

(٤٨) Bois, "Neo-Malthusian Orthodoxy."

(٤٩) Wunder, "Peasant Organization"; Wallerstein, The Modern World System, "Vol. 2 (1980).

(٥٠) J. Torras, "Catalonia."

(٥١) Abu-Lughod, Before European Hegemony: The World System A.D. 1250-1350 1989).

(٥٢) في نموذج المستعمر للعالم أطرح (ولا أحاول أن أجد إجابة) لسؤال ما إذا كانت حضارات أفريقية عديدة في ١٥٠٠ وراء الحضارات الأوروبية والآسيوية مثلما يجادل المجال البحثي الأكاديمي المعاصر.

(٥٣) انظر Blaut, "Where Was Capitalism Born?" (1976) and Volume1.

(٥٤) انظر على سبيل المثال Abu-Lughod, Before European Hegemony; Frank and Gills, "The Five Thousand Year World System: An Interdisciplinary Introduction" (1992); Frank, ReORIENT.

(٥٥) Blaut, "Where Was Capitalism Born?"; Abu-Lughod, Before European Hegemony.

لا أجادل بأن النظام الناشئ كان يتحرك بصورة غائية تجاه نوع من الرأسمالية ظهرت بعد ذلك فى غرب أوروبا. الاتجاه الذى أعتقد أنه كان تطوريًا غير وجهته بقوة بعد غزو أمريكا؛ كما لا أستبعد الدور الذى لعبه ملاك الأرض من ذوى العقلية التجارية باعتباره غير مهم: انظر Cain and Hopkins, "Gentlemanly Capitalis".

(٥٦) Frank, "Fourteen Ninety-Two Once Again"; Abu-Lughod, Before European Hegemony; and Amin, Eurocentrism (1989).

(٥٧) كانت المراكز الحديثة فى غرب أفريقيا فى ١٤٩٢ تقع فى الداخل، كما كانت معتادة على التجارة البرية ولم يكن لها أى وجهة بحرية. كل المراكز الأخرى التى كان لها هذا التوجه البحرى - مثل تلك فى شرق أفريقيا وآسيا - كانت أبعد من نصف الكرة الأرضى الغربى أكثر من المراكز الأيبيرية. انظر مناقشة هذه الأمور فى الجزء الأول.

الفصل الخامس

إيريك چونز

المعجزة الأوروبية

لم يعترض أحد بجدية على تاريخ المركزية الأوروبية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، الفترة المناهضة للاستعمار، الفترة التى قال فيها أميلكار كابرال Amilcar Cabral تعليقه الساخر الشهير إن الشعوب المستعمرة "دخلت التاريخ مرة أخرى". الآن بدأ الباحثون من العالم الثالث والقليليون من العالم الأوروبى فى التساؤل بشأن المبادئ الأساسية لتاريخ المركزية الأوروبية. ومن ثم انتشر تأثير هذا النقد بسرعة، وليس غريبًا أن يرد مؤرخو المركزية الأوروبية التقليديون مستخدمين مجادلات مضادة فى كتب (ليس غريبًا أيضًا) أن تكتسب شعبية كبيرة وانتشارًا واسعًا.

كانت بعض هذه الكتب قصائد مدح تتغنى بنغمة منتصرة عن تفوق الأوروبيين فى الماضى والحاضر، وتأثير أوروبا على بقية العالم أثناء وبعد فترة الاستعمار. أشهر تلك الكتب كان كتاب روستو W. W. Rostow الصادر فى ١٩٤٠ "مراحل النمو الاقتصادى" الذى قدم رؤية شاملة عن تاريخ العالم من منظور مركزى أوروبى[1]. فى نفس الوقت كان بعض المنظرين التاريخيين يحاولون إعادة صياغة المبادئ التقليدية لتقويتها وسد ما بها من فجوات. بعض هؤلاء المنظرين ومن بينهم لين وايت ومايكل مان وچون هول (انظر الفصول الثانى والسادس والسابع) طوروا نظريات ڤيبرية جديدة عن التقدم الفريد للأوروبيين وعقليتهم ذات القدرة على الاختراع. وآخرون ومعظمهم من التيار

الرئيسى من المؤرخين الاقتصاديين مثل دوجلاس نورث Douglass North والمؤرخين المـاركسـيـين مـثل روبرت برينر (الفـصل الرابـع) وإيريك هوبزباوم Eric Hobsbawm قدموا نظريات تاريخية ممعنين النظر بصورة أقل إلى فكرة العقلانية الأوروبية، ومركزين على الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية الملموسة فى أوروبا والتى من المفترض أنها أدت إلى "نهضتها" الفريدة. وعلى الرغم من ذلك كان الفرق بين الفريقين من مؤرخى المركزية الأوروبية مشوشاً: فقد استخدم كل فريق مجادلات الآخر بدرجة ما.

كان كتـاب إيريك ل. جونز الصـادر فى ١٩٨١ بعنوان "المعجـزة الأوروبيـة"(٢) أول محاولة منظمة لجمع كل تلك المجادلات الجديدة عن تفوق أوروبا فى الماضى والحاضر، بالإضافة إلى المجادلات التقليدية، وذلك فى إطار بيان شامل لكل الأسباب التى أهلت الأوروبيين لأن يكونوا أصحاب السبق على غيرهم على الدوام. من المؤكد أن هذا الكتاب كان نقطة تحول فى كتابة تاريخ المركزية الأوروبيـة الحديث. كـان تأثيره هائلاً. حـتى ١٩٩٨ وهى السنة التى صدر فيها كتاب ديڤيد لاندز "غنى وفقر الأمم: لماذا البعض غنى جداً والبعض فقير جداً" - عرض أكثر توسعاً وتفصيلاً لتاريخ المركزية الأوروبية وعلى نفس الدرجة من التطرف - كان المعجـزة الأوروبية هو بحق المعمـول به. يعتـبر المعجزة الأوروبية نصاً هاماً لأى نقد عام لتاريخ المركزية الأوربية وهو ما سوف أناقشه هنا بالتفصيل، وأوليه اهتماماً أكثر من أى عمل آخر سابق عليه أو لاحق.

كُتب "المعجزة الأوروبية" بصـورة غير رسـمـية وقد سـجل مـعظم مواقف المركزية الأوروبية على أنـها حقـائق لا ينازعـها شك مـضللاً القارئ غير الحذر بأنه يوجد دليل مضاد ضعيف أو حتى لا يوجد حول هذه الأمور فى أدبيات البحث فى هذا الأمر. مرة أخرى يجب ألا نتعجب إن وصل هذا الكتاب إلى مرتبة القانون: فقد طبع عدة مرات، واستخدم فى كثير من المناهج بالجامعات. والعجيب، إذا كنا نفكر بالتاريخ الاجتماعى للأفكار، أنه قـوبل باسـتـحـسـان من قـبل المؤرخـين الذين كـانوا على علم بأخطائه وتسطيحاته، واعتبروا رسالته هـامة لدرجة يمكن معها تجـاهل كـل تـلك السقطـات أو التغـاضى عنها(٣).

كان هناك بالطبع بعض النقد المهذب من قبل المجتمع الأكاديمي: فهو يتجاوز وبخاصة في تصريحاته السلبية المتطرفة والمحرجة عن الآسيويين، عن شخصيتهم وتاريخهم، يحاول أن يجعل التاريخ يبدو وكأنه علم ويؤكد بصورة زائدة العوامل الصعبة، مثل الاقتصاد والبيئة، ويقلل من دور العوامل الثقافية، وهكذا. أجاب چونز على هذا النقد في ملحق صغير تحت عنوان "النمو من جديد: التغير الاقتصادى فى تاريخ العالم". في هذا الكتاب (١٩٨٨) أعاد مجادلته الأساسية بإيجاز ولكن مع بعض التغييرات اللافتة للنظر. كان كتاب "المعجزة الأوروبية" قد استخدم أسلوبًا مهينًا في وصفه لغير الأوروبيين، وهي اللغة التي كان يمكن أن تُفهم باعتبارها أنها عنصرية. من الأمثلة الملحوظة: الآسيويون خانعون وكسالى، وغير مبدعين[٤] (P.167-161, 231) ويبدو أن "التزاوج" بالنسبة للآسيويين كان "مفضلاً على السلع" (P.15). لم يكن لأفريقيا تأثير حقيقي على التاريخ ما عدا كونها مصدرًا للعبيد (P.153) وكان الأفارقة في الفترة الهامة صيادين "جزء من النظام البيئي وليسوا أعلى منه" (P.154). أما أوروبا فكانت على العكس "حضارة الطفرة" (P.45)، "مجتمعًا مبتكرًا على نحو مميز" (P.227). في كتاب "النمو من جديد" هناك القليل من هذه النبرة المتعالية، وهناك بالفعل رأى أكثر معرفة وتعاطفًا مع الآسيويين وليس الأفارقة. ثانيًا، أعاد چونز النظر في بعض – وليس كل – مجادلاته عن تفوق الأوروبيين التاريخي. من الواضح أن چونز في فترة السبع سنوات بين نشر الكتابين كان قد قام ببعض القراءات التي كان يجب أن يقوم بها قبل نشر الكتاب الأول، وقد نقد نفسه في كثير من الأمور[٥]. ثالثًا، أعلن بوضوح أن مجادلاته ليست عنصرية. رابعًا، أعاد التعبير عن بعض مجادلاته مستخدمًا مصطلحات احتمالية وليست مطلقة، وذكر استثناءات لعديد من تعميماته السابقة: والأكثر خطورة أنه تراجع عن فكرة أن أوروبا كانت هي المجتمع المتقدم بحق، مجادلاً على العكس من ذلك بأن النمو الاقتصادى التقدمى كان قد حدث بالفعل لقرون عدة إبان فترة سونج Song في الصين ولفترة وجيزة في اليابان. ما حققه الأوروبيون بالفعل ليس هو النمو الاقتصادى وإنما "النمو من جديد".

فى هذا الفصل سوف أحلل مجادلة المعجزة الأوروبية موضحًا خطأها من البداية للنهاية. وباختصار أكبر سوف أحلل المجادلة فى النمو من جديد. لقد قررت التقدم بهذه الطريقة لما للمعجزة الأوروبية من تأثير هائل حيث إنه مازال يُستشهد بها وتُستخدم أكثر من الكتاب اللاحق. تحليل المجادلة فى المعجزة الأوروبية هو أمر بالغ الأهمية لأى نقد للمركزية الأوروبية فى التاريخ المعاصر.

الأدوات

المعجزة الأوروبية مثال صرف لتاريخ المركزية الأوروبية، وهو على وجه الخصوص مثال على درجة عالية من التعقيد. فهو يقدم المجادلة غير الكفء التى تدعى بتفوق أوروبا فى كل الأزمنة فى التاريخ على من سواها من حضارات فى مختلف أبعاد الثقافة التى تتعلق بالتطور الاقتصادى، والتقدم والحداثة؛ أما تعقيدها يتمثل فى الأدوات التى يستخدمها چونز حتى يظهر موقفه وكأنه حقيقى وإمبيريقى وعلمى وبحثى وبالتالى مقنع للقراء النقاد. أستخدم كلمة "أدوات"، وهى كلمة محملة بالكثير من المعانى بدلاً من "منهج" أو "إجراء" وذلك لأن ما يقوله چونز فى هذا الكتاب لا يمت بصلة لكونه حقيقيًا وإمبريقيًا وعلميًا أو بحثيًا: فهو مصنوع ليأخذ هذا الشكل من خلال المجادلة. يبدو أن تلك هى الظاهرة المألوفة لمؤرخ مركزى أوروبى مقتنع جدًا بتفوق أوروبا حتى أنه ينحى قوانين البحث العلمى جانبًا ويقدم دليلاً لتوضيح ما هو واضح وليس للتدليل.

يحتوى شكل المجادلة فى المعجزة الأوروبية على الأدوات التالية من بين أخرى عديدة: أولاً، فى شرح تفوق أوروبا والأوروبيين، يؤكد چونز بشدة ما يبدو أنه أسباب مادية جامدة وأمور تتعلق بالبيئة الطبيعية وغذاء الإنسان والمرض، الديموغرافيا وغيرها. كما يؤكد التفوق السيكولوچى والثقافى للأوروبيين خلال الكتاب كله؛ ولكنه (على خلاف ڤيبر) يقدم تلك الأشياء باعتبارها عوامل سببية فقط حيثما تستلزم الضرورة وبحذق شديد. أداة چونز الثانية هى بناء دعم لمجادلاته المختلفة من خلال

تجميع كل المعتقدات التقليدية عن التفوق الأوروبى متجنبًا المعتقدات التى تم دحضها، وهو يؤكد تلك المعتقدات دون أى مناقشة كما لو كانت حقائق مطلقة وليست تأكيدات غير مؤسسة وفى الغالب متحيزة. يبدو كم تلك التأكيدات وكأنه يعكس وجود أدلة كثيرة جدًا تدعم مجادلة چونز عن التفوق الأوروبى: الأداة الثالثة: هى المظهر الخارجى لتحليل مقارن بين الثقافات. فى المعجزة الأوروبية يكرس چونز اهتمامًا كبيرًا لمجادلات عن وجود الحضارات الآسيوية فى مرتبة ثانية كما يفعل مع تفوق أوروبا. وهو يصف ذلك على أنه مقارنة بين الحضارات. فى الواقع، وعلى الرغم من ذلك، فإن مجادلاته عن مرتبة الحضارات الآسيوية الثانوية - يستبعد أفريقيا فى أربع صفحات مستخدمًا تعليقات سلبية - تستخدم نفس الأداة من وضع الأعداد الكبيرة من المعتقدات المشكوك فيها والتقليدية الخاطئة عن الآسيويين والمجتمعات الآسيوية موحيًا بانطباع خاطئ بوجود أدلة كثيرة تدعم مجادلاته مع أنه لا يمكن أن نطلق كلمة دليل على ما يقدمه. الأداة الرابعة هى الادعاء بأن التأكيد قد "تم توضيحه" على أنه حقيقى، أى تم "تأسيسه" متبوعًا باستشهاد بمصدر مغمور أو لا قيمة له كوسيلة تجعله يبدو وكأنه حقيقة علمية مؤسسة فى التيار السائد. أما الأداة الخامسة فهى المعروفة باختزال التاريخ بطريقة المركزية الأوروبية المميزة لها. فى بعض الحالات، تقارن أوروبا الحديثة - الغنية والصناعية والمتطورة بالفعل - بآسيا القديمة، وبذلك تؤكد فكرة تفوق أوروبا. فى حالات أخرى يوضَح فقر وتدنى المجتمعات الآسيوية تحت نير الاستعمار باعتباره الصفة الدائمة لتلك المجتمعات حتى يستطيع چونز بعد ذلك أن يدعى أن أوروبا، فى أى فترة، كانت متفوقة على آسيا التى فى الحقيقة لم تكن موجودة فى الفترة محل النقاش.

مجادلة المعجزة الأوروبية مقدمة بأسلوب منظم ومباشر. الجزء الأول فى الكتاب عبارة عن قائمة بكل الأسباب المفترضة لتفوق الأوروبيين على مدار التاريخ، أما الجزء الثانى فهو قائمة بكل الأسباب المفترضة لاحتلال آسيا المرتبة الثانوية. دعونا الآن نستعرض القائمتين بنفس الترتيب الذى قدمه چونز تقريبًا، وندحض الخرافتين: أن أوروبا كانت متفوقة، وأن آسيا وغير أوروبا بشكل عام فى مرتبة تالية.

"صفـة الأوروبيـة"

يبدأ الكتاب بتلخيص لما يطلق عليه چونز "صفة الأوروبية" بهذه الكلمات:

> لم تنفق أوروبا هبات بيئتها "بسرعة كمـا اكتسبتها في مضـاعفـة هوجاء للحياة العامة" (P.3)

لدينا هنا ثلاث فرضيـات هامـة وهـى الموضـحـة بالتـفصـيل فى كتـاب المعـجـزة الأوروبيـــة:

(١) أن أوروبا كانت لديها "هبات" بيئية فريدة، أى أن البيئة الطبيعـية منحت أوروبا التفوق.

(٢) أن غير الأوروبيين أهدروا مواردهـم على النمو السكانى وليس على التطور، فقد "أنفقوا" تلك الموارد على "مضاعفة الحياة العامة".

(٣) أن السماح بالنمو السكانى بهذا الشكل الخارج عن السيطرة وبالتالى إهدار الموارد وإضاعة الفرصة فى التطور الاقتصادى يعد عملاً "أهــوج": غير الأوروبيـــين، فى كلمة واحدة، غير عقلانيين. يقدم چونز تأكيدات أخرى كثيرة فى هذا الكتاب ولكن هذه الثلاثة – التفوق البيئى والتفوق العقلى والتحرر من كوارث مـالثوس السكانية – ربما تكون أكثر التعميمات أهمية.

بعـد ذلك لدينا سلسلة من التـأكيدات التى صـممت لإرسـاء حـقيـقة تفـوق أوروبا التـاريخى على غيرها قبل أن يبدأ چونز فى التسـاؤل بشـأن أسباب هذا التفوق. هذه التـأكيـدات خـاطئـة وفـى بعض الأحـيـان غريبـة. يصـرح چونز بسطـحـيـة أن "الطاقـة الإنتـاجية" للأوروبيين أعلى مما لدى غيرهم فى ١٥٠٠ (P.3)، مما يعنى أن الأوروبيين فى حقب سابقة كانوا أكثر حيوية وأفضل تغذية. كان "الأجر الحقيقى" فى أوروبا أعلى إذا عدنا إلى ١٣٠٠ (P.3). فى آسيا، كان مستوى المعيشة، على العكس، منخفضًا. آسيا القديمة كما يقول چونز كانت تبدو غنية ورائعة ولكن ذلك كان وهمًا حيث كانوا يعتمدون على الأعمال الرائعة للهندسة المدنية وحياة الرفاهية للطبقة الحاكمة فيها.

هناك فى الحقيقة، دليل قوى على أن حضارات آسيا التاريخية كانت على قدم المساواة مع الحضارة الأوروبية وربما متفوقة عليها، كانت مستويات المعيشة عالية مثل أوروبا وكانت حياة الرفاهية للطبقات الحاكمة مؤشراً على غنى المجتمع(٦). بالرغم من ذلك، سيكرر جونز مجدداً التأكيد بأنه كان هناك ثمة شيء بربرى ومنحل فى حياة الأغنياء فى آسيا. سيتم التأكيد على هذا كجزء من مجموعة المعتقدات التى يمكن أن نعتبرها الخرافة الكلاسيكية "الاستبداد الشرقى" التى ناقشناها فى الفصل الثانى. كانت الحضارات الآسيوية فى تلك الخرافة مُركب من الفقر المدقع للجماهير ورفاهية مثيرة للاشمئزاز للحكام. كان الحكم مطلقًا ومستبداً. كانت الأموال تؤخذ عنوة من الفلاحين من أجل الأعمال العامة ورفاهية الطبقة الحاكمة. استطاع الحكام "استخلاص الدم من الحجر أى الفلاحين وذلك لتوافر الأحجار بكثرة" (P.5). كانت أوروبا، على العكس، تتمتع بالديمقراطية دائمًا. كان الفقراء أفضل، وكانت الطبقة الحاكمة تظهر بصورة أقل "تألقًا"(P.5). خرافة الاستبداد الشرقى فى الحقيقة قديمة جداً، فهى مركب من مواقف فترة الحداثة الأولى تجاه الهند والإمبراطورية العثمانية والمعتقدات المعتدة بالذات عن الطبيعة الديمقراطية الدائمة والمزعومة لأوروبا. هذه الخرافة خاطئة كليًا، ويكررها جونز بشكلها التقليدى.

تبدأ المجادلة المنظمة التى صممت لتفسير تفوق أوروبا الأبدى بسلسلة من التحريفات والقضايا الخاطئة عن البيئة الطبيعية. مستشهداً بكتابات بيئية قديمة وضعيفة وكأنها ذات وزن، يدّعى جونز أن بيئة أوروبا كانت متميزة عن تلك فى آسيا وإفريقيا. وهى فى الأساس المجادلة بأن البيئات فى خطوط العرض المتوسطة أفضل من تلك الاستوائية. يقول جونز إن "الطاقة البشرية" تقل فى المناخات الحارة (P.6). وهناك بحق مشكلة رهيبة مع المرض. إن الخرافة القديمة التى تدعى العلاقة بين درجة الحرارة وإنتاجية الطاقة البشرية كانت قد استبعدت منذ نصف قرن مضى(٧). فكرة أن الأقاليم الاستوائية تعتبر غير صحية خرافة كبيرة. صحيح أن بعض الأمراض تشتد ضراوتها عندما لا يكون هناك فصل الشتاء لقمع بعض الكائنات الحية، ولكنه صحيح أيضًا أن معظم الأمراض الخطيرة لديها ظروف وبائية مختلفة. بعضها خطير

فى الطقس البارد أكثر منه فى الدافئ. المواسم الجافة فى معظم الأقاليم الاستوائية لها نفس الأثر القمعى مثل المواسم الباردة فى أماكن أخرى. أضف إلى ذلك أن الحيوانات الأليفة والجرذان المصادر الأساسية للعدوى بأمراض خطيرة، والتعامل مع هذه الحيوانات هو بنفس الكثافة فى الأقاليم الباردة مثله فى الأقاليم الدافئة، ويؤكد چونز أن عدم صحة الأقاليم الاستوائية يحد من التطور الحضارى بشكل ما، ولكن هذا يعتبر خرافة قديمة وغير مؤكدة. لم يكن للمرض هذا التأثير(٨). كما ازدهرت الحضارات الاستوائية أثناء نفس الحقب تقريبًا وبنفس الدرجة فى حضارات خطوط العرض المتوسطة قبل الفترة الحديثة.

نلاحظ فى كل هذا أسلوب چونز فى التأكيد على الخرافات باعتبارها حقائق مؤكدة:

> اتضح أن الصحة المعتلة والحرارة وسوء التغذية فى الأقاليم الاستوائية تنقص إنتاجية العمالة لكل شخص بنسبة ٧٨ ٪ إلى جانب أنها ترفع نسبة الغياب (P.7).

لم "يثبت" أى من ذلك. مرجع چونز الوحيد لهذا التصريح مثال غريب وهزلى بعنوان "لعنة الأقاليم الاستوائية"(٩). وهو المفهوم بأن الأجساد البشرية (والعقول) تعمل بكفاءة أقل فى البيئات الاستوائية عنها فى الباردة، ولكنه مفهوم مرفوض منذ ذلك الوقت.

قُدمت مجادلات بيئية أخرى عديدة فى المعجزة الأوروبية. (أعيد ذكر بعض هذه المجادلات فى "النمو من جديد" ولم يرفض أى منها). يعترف چونز، كما يجب، أن التربة الأوروبية ليست منتجة فى زراعة تعتمد على مياه الأمطار مثل التربة المعتمدة على مياه الرى فى آسيا والتى لديها مياه كافية. ثم يتحول هذا إلى مجادلة باطلة عن التفوق الأوروبى. يؤكد چونز أن الرى يتطلب عمالة كثيرة وذلك للحفاظ على أعمال المياه. الزراعة التى تعتمد على مياه الأمطار بالرغم من كونها أقل إنتاجية فإنها تتطلب عمالة أقل، وعليه فإن المزارعين الأوروبيين أكثر إنتاجية "عدم عملية الزراعة الهيدروليكية حررت جزءًا من الطاقات الأوروبية لأهداف أخرى.... أمضى [الأوروبيون]

وقتاً أقل على كل جوانب العمل فى المزرعة من الذى أمضاه [الآسيويون] على التحكم فى أعمال المياه وحدها". (P.8) مرة أخرى لدينا مصدر مجهول ولا قيمة له)(١٠). المعنى الضمنى الذى يراه چونز هو أن الزراعة الأوروبية كان لديها مقدرة على إنتاج فائض أكبر من احتياجات المزارعين وبهذا وفرت رأس المال لاستثماره فى الابتكارات وبالتالى تكون النتيجة هى التقدم لأوروبا والجمود لآسيا. لو كانت نظرية چونز عن الزراعة المعتمدة على الأمطار مقارنة بتلك المعتمدة على الرى صحيحة لاستطاعت الزراعة الأوروبية أن تدعم أشخاصاً أكثر فى كل وحدة أرض أكثر من نظام المزارع المعتمدة على الرى فى آسيا، ولكن العكس كان هو الحال، ولكان لدى المزارعين الأوروبيين الوقت الذى يؤهلهم لبناء هياكل اجتماعية ومادية أكثر من المزارعين الآسيويين، مرة أخرى العكس كان هو الحال. فى الواقع، لا يوجد ثمة دليل ولا منطق فى تلك المجادلة أن الزراعة المعتمدة على الرى تتطلب عمالة أكثر حتى تنتج أكثر من الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار.

يعتقد چونز أن السبب الأساسى والوحيد للتفوق الأوروبى على مدار التاريخ كان هو قدرة الأوروبيين الرائعة على التحكم فى تعداد السكان إذا ما قورنوا بسلوك الآسيويين المضاد لذلك. يقول چونز: لا يضيع الأوروبيون أى تقدم يحرزونه فى إنجاب أطفال أكثر مثل الآسيويين، بل أنهم على العكس يستثمرون ثمار هذا التقدم كرأس مال فى تطور مستقبلى. جذور هذه المجادلة هى الفرضية الكلاسيكية بأن الأوروبيين أكثر رشداً من غيرهم: فهم من الذكاء الذى يؤهلهم للتحكم فى النسل، أما غيرهم فهم إما أغبياء جداً أو أنهم مثل الوحوش فى البرية لا يستطيعون التحكم فى رغباتهم الجنسية والتى تجعلهم يغضون الطرف عن أى اهتمام عقلانى بالتحكم فى تعداد السكان. قدمت هذه المجادلة بصورة أكثر لطفاً فى "النمو من جديد" ولكنها لم تُستبعد كليًا: غير الأوروبيين على نفس الدرجة العقلانية للأوروبيين فى الشئون الاقتصادية وليس فيما يتعلق بالأمور الديموغرافية.

العرق، لدى مالثوس وڤيبر، هو مصدر تلك العقلانية الأوروبية الفريدة فى الأمور التى تتعلق بالإنجاب. من أين أتت بالنسبة لچونز؟ تبدأ القصة مرة أخرى مع البيئة

الطبيعية. لم تسمح البيئة الأوروبية بالزراعة المعتمدة على الرى، ولهذا السبب مارس الأوروبيون نوعًا غير مكثف من الزراعة منذ أوائل العصر الحجرى القديم قبل آلاف السنين. كانت الطبيعة لديهم كما يقول جونز هى الغابة، مع وجود حقول ومراعى متناثرة على مسافات واسعة وقد هاجرت السلالات الأساسية من الأوروبيين إلى أوروبا من أسيا منذ آلاف السنين وحذوا حذو الآسيويين فى أسلوب المعيشة فى قرى مشتركة، ثم أدت الظروف البيئية الجديدة إلى تغيير فى نماذج الاستقرار، وذلك لأن الزراعة كانت واسعة وليست مكثفة لذا اتجهت أعـــداد السكـان إلى التناثر وانفصلت القرى فى وحدات عائلية ممتدة ثم وحدات أسرية نووية مع ممتلكات منعزلة مبعثرة. وهذا، كما يقول جونز، كان له أثران هامان على المجتمع وهى الآثار التى تفسر التفوق الأوروبى فيما بعد. أولاً: لقد أنتج هذا:

> نظام المعيشة الخلوى ذو الطاقة العالية والاستهلاك الكبير والاتجاهات الفردية للقبائل السلتية والجيرمانية... تكمن الصفة الأوروبية فى شكل الاستقرار الأصلى،... شكل لا مركزى، مغامر، فرع رعوى جزئيًا وتنويعة من المجتمع الآسيوى الغربى الزراعى الذى شكلته الغابة [P.13].

وفقًا للزعم بأن الأوروبيين عاشوا فى مجتمعات مبعثرة طبقًا للظروف البيئية، فقد تمكنوا من تجنب القدر القهرى للفلاحين الآسيويين. وتمكنوا من التمسك بحريتهم حيث لم تكن معيشتهم فى تكتلات متلاصقة يسهل للحاكم التحكم فيها. كان هؤلاء الأوروبيين الأوائل إذن غير مهذبين وأفظاظًا ولكنهم كانوا أحرارًا ومبتكرين ومغامرين - بمعنى رأسماليين صغار - وقد أصبح هذا أحد جذور "الأوروبية" كصفة لهم.

و لكن الأخطاء كثيرة فى هذه المجادلة، فقد كانت معظم أماكن الإقامة الأوروبية إما نووية أو طولية، فى أودية الأنهار، بطول السواحل وهكذا، أما البيوت المنعزلة فقد كانت بالتأكيد نادرة؛ وقد تراجع نموذج القرى الصغيرة التى لا تخضع للملوك أو ملاك الأرض على نطاق واسع أمام قوة سيطرة الإمبراطورية الرومانية. يريد جونز أن يقنعنا بأن الجذور القبلية الأوروبية الشمالية أكثر أهمية فى تاريخ الثقافة الأوروبية من الجذور

فى منطقة البحر المتوسط، التى تأسست على أساس من اختلاف الطبقات ومعرفة القراءة والكتابة، والحكومات اليونانية والرومانية وغيرها. هذه المجادلة ليس مشكوك فيها فحسب ولكن حتى بالنسبة للمناطق الچيرمانية ومناطق اللغات الأندوأوروبية مثل أيرلندا وويلز يتطلب الأمر أن نأخذ بعين الاعتبار أن الثقافة الأساسية كانت قد تشكلت قبل الأزمنة الرومانية وأوائل الأزمنة الإقطاعية، وهى مختلفة على نحو ما عن الثقافة القبلية فى أى مكان آخر.

كذلك فإن صورة أعداد السكان الغفيرة من المزارعين المعتمدين على الرى فى أودية الأنهار الكبيرة ليست صحيحة بالنسبة لمعظم الأقاليم فى آسيا وأفريقيا. مارس الفلاحون فى أقاليم كثيرة فى آسيا الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار تمامًا مثل معظم (وليس كل) الفلاحين الأوروبيين، كما كانت الزراعة المعتمدة على الرى تمارس بصورة متكررة فى أنظمة وأقاليم صغيرة وليس فى أودية الأنهار الكبيرة مثل أنهار النيل ودجلة والفرات[١١]. أى أن، نموذج المجتمع الآسيوى الذى يستخدمه چونز ليس نموذجًا دقيقًا؛ فلو كانت هناك حقًا علاقة سببية بين الزراعة المعتمدة على الأمطار فى المرتفعات والآثار الثقافية المعقدة والمتنوعة مثل الفردية، العدوانية، وشكل الأسرة لوجدنا الآثار نفسها وبالدرجة نفسها فى الأجزاء التى لا تعتمد على الرى فى آسيا (وأفريقيا) مثل أوروبا. المجادلة برمتها خاطئة وغير مدعمة بالأدلة فيما عدا مرجعًا واحدًا بخصوص فوائد الزراعة "المعتمدة على مياه الأمطار"، ولا تظهر المجادلة فى كتاب "النمو من جديد".

ويحسب چونز هناك مصدر آخر فى المعجزة الأوروبية نجده فى الأسرة النووية ذاتها، إذ يؤكد أن الأسرة النووية كانت تمثل شمال أوروبا منذ العهد الحجرى القديم عندما وكانت كما يدعى تتطلب البيئة نموذجًا سكنيًا من البيوت المتفرقة. ثم يدعى بعد ذلك أن الأسرة النووية، بما أنها وحدة منزلية واجتماعية، كانت هى الصفة الثقافية الأساسية للأوروبيين. فهى تناسب التقدم الاجتماعى أكثر من الأسر الممتدة وتشجع على الادخار، وبالتالى تراكم رأس المال، والأكثر أهمية أنها تشجع تنظيم النسل.

بالرغم من أن چونز لا يخبرنا عن السبب الذى يجعل الأسرة النووية تحد من عددها بينما لا تفعل ذلك الأسرة الممتدة. فى "المعجزة الأوروبية" تفوق الأسرة النووية كمصدر للتقدم فكرة مؤكد عليها، فهناك الادعاء بأنها صفة للأوروبيين وأن لها أصولاً قبلية قديمة فى أوروبا. وهى تتناقض مع الأسرة الممتدة (أو المشتركة)، وبيوت الأسر الممتدة فى آسـيا.

"نظام [الـ] أسرة الهندية المشتركة كان حائلاً ضد الحفاظ أو الحد من تنظيم النسل وذلك لأن الفرد لم يكن متأكداً من أى مكاسب له أو لأقرب الأقربين (P.193). حقًا، يجادل البعض هذه الأيام (وهم على صواب فى هذا) بأن العائلة الممتدة ليست أقل ملاءمة للادخار والطموح من الأسرة النووية. لماذا؟ كل الأفراد يساعدون بعضهم البعض، فهم يتعاونون، خسارة عمل بالنسبة لفرد منهم لا يعنى كارثة، كما أنهم يستطيعون مداومة الادخار من خلال المجموعة الكبيرة، معطين بذلك الفرصة لاستثمار أكثر فائدة. الطموح لا يتضمن فقط هدف قيادة الزوج أو الزوجة والأطفال لحياة أفضل، بل أنه يؤدى فى الحقيقة لمجتمع صغير، مع كل الفخر والهيبة الاجتماعية التى يوحى بها. حقًا، من بين الكثير من المجموعات المهاجرة مثل الصينيين تعد العائلة الممتدة هى أصل العمل الناجح. فى "النمو من جديد" يقبل چونز جزءًا من هذه المجادلة، ولكنه يحتفظ بالفرضية غير المدعمة بأن الأسر النووية تمثل أوروبا كما أن لديها دافعًا أقوى لممارسة تنظيم النسل. ويطور هذه النظرية فى شكل تفسير أساسى لما يرى هو على أنه الصفة الأساسية "للأوروبية": مقاومة كثرة عدد السكان. وهو يحتفظ بوجهة النظر المالثوسية هذه فى "النمو من جديد"، كما سنرى لاحقًا.

يبدو أن العائلات الممتدة كانت هى النموذج فى معظم أوروبا القديمة. لم يعش الأوروبيون الأوائل فى منازل متفرقة: لو فعلوا ذلك لكان أمرًا خطيرًا جدًا. وكانت الأسر تعيش فى المزارع فى مستوطنات متكتلة أو طولية وقريبة من بعضها البعض. لم يكن نموذج الأسرة النووية شائعًا فى أوروبا قبل بدايات الفترة الحديثة كما كان الحال خارج أوروبا. هناك أدلة قليلة على أن الأسر النووية كانت أكثر شيوعًا فى شمال غرب

أوروبا قبل أوائل عصر الحداثة. لم تكن الأسرة النووية نموذجاً فريداً بالنسبة لأوروبا، كما لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون لها الآثار التاريخية التى يدعيها لها چونز.(١٢)

فى صياغة المجادلات عن آثار النماذج الثقافية الأولى على التاريخ القديم - وهى نماذج غير مثبتة، كما رأينا، وكذلك الآثار الوهمية - يبدو چونز على علم بأن بعض الأكاديميين سيقومون بالاعتراض بأن الثقافة تتغير كلما تقدم التاريخ والنماذج القديمة لا يمكن أن يكون لها آثار ممتدة لأوقات لاحقة. ولكنه فى "المعجزة الأوروبية" يصر على صلابة النماذج الثقافية الثابتة وأثرها الدائم على مر التاريخ. فهو يقول ما مفاده، إن ثقافة شمال أوروبا القديمة احتوت صفات ومؤسسات كانت مناسبة للتقدم والتطور والتفوق. لذا نجد أن الأوروبيين شهدوا التقدم والتطور والتفوق فى التاريخ بعد ذلك. (فى"النمو من جديد" نجده يقلل من أهمية الثقافة فيما عدا الثقافة الاقتصادية)، كما نجده يعبر عن الفرضية فى شكلها النقيض لغير الأوروبيين: كانت لثقافتهم صفات ومؤسسات فى الأزمنة القديمة من شأنها أن تعطل التطور فيما بعد. فهم يتكاثرون مثل الحيوانات. "سمح" [لتعداد السكان] بالنمو بدون... قيد متعمد. "يبدو أنهم فضلوا التزاوج على السلع"، يعانون من نير الاستبداد بدلاً من الحصول على الديمقراطية (وبهذا يمثلون "الطفولية السياسية"، P.10) صحيح أن الثقافة مهمة، كما أن الثقافات تستمر، ولكنها تقوم بذلك فى أسيا وأفريقيا بنفس القدر الذى تقوم به فى أوروبا.

بعد الكشف عن الأصول القديمة والأسس البيئية لتفوق أوروبا، يبدأ كتاب "المعجزة الأوروبية" بعد ذلك فى كشف منظم للقوى التى أزرت وزادت من هذا التفوق على مدار العصور المتعاقبة حتى وقتنا الحاضر. وهى كما يجادل چونز:

- قدرة متواصلة على الابتكار والإبداع التكنولوچى، وهى قدرة فريدة فى أوروبا ولا تضاهيها فى ذلك أى حضارة أخرى:

- رغبة فريدة فى التوسع والمغامرة والاستكشاف والاكتشاف.

- اقتصاد سوق متقدم فريد يناسب صعود الرأسمالية.

- شكل فريد للحكومة ونظام الدول، يناسب التقدم الدائم والرأسمالية.

ويوجد فصل واحد فى "المعجزة الأوروبية" مخصص لكل من هذه المجادلات على حدة. دعونا نختبر كل منها تباعًا.

التكنولوچيا

طبقًا لچونز، الأوروبيون خارقون تكنولوچيًا. وهنا بعض الطرق التى يصف بها هذا المبدأ فى المعجزة الأوروبية:

> كانت أوروبا حضارة طافرة فى تراكمها المستمر للمعرفة التكنولوچية (P.45)
>
> (على) الجبهة التكنولوچية (يبدو) تاريخ أوروبا مثل تقدم جارف..... مقارنة بالطبيعة البطيئة للحضارات الأخرى. (P.56).
>
> (كان) اقتصاد (أوروبا) دائمًا اقتصادًا ابتكاريًا. (P.59).
>
> الشغف اللانهائى هو الصفة المحركة للثقافة (الأوروبية) (P.62).
>
> (مع التسليم) بالشغف بالبحث والاستطلاع لدى الكثيرين فى مجتمعات أخرى الذين يبدو وكأنهم قد أمضوا أوقات الفراغ فى الجرى وراء المتعة أو على أحسن تقدير فى التفلسف الذى لا طائل منه وذلك لأحادية تفكيرهم، لذا نجد التقدم (التكنولوچى) المثابر (فى أوروبا) غير مستغرب (P.63, 64).
>
> كانت أوروبا مجتمعًا ابتكاريًا مميزًا (P.227).

ترجع العبقرية التكنولوچية لأوروبا وكما توضح هذه الاستشهادات إلى العقلانية والقدرة على الاختراع والابتكار، المميزة للعقل الأوروبى. رأى چونز فى "المعجزة الأوروبية" يشبه آراء ماكس ڤيبر ولين وايت، بالرغم من اختلافه عنهم فى بحثه عن السبب البيئى المادى للظاهرة. فى كتابه "النمو من جديد" نجده يبعد نفسه عن قصد عن فكرة ڤيبر بأن صفات العقلانية مميزة للأوروبيين على نحو ما. فنجده يجادل أولاً أن مفهوم العقلانية ينبغى أن يركز على العقلانية الاقتصادية وأن كل الناس فى كل المجتمعات عقلانيين فى تجاوبهم مع الظروف التى تؤثر على السلوك الاقتصادى،

والقضية الأساسية هى أن تلك الظروف كانت أفضل فى أوروبا من غيرها. ثم يجادل ثانيًا أن العوامل الثقافية غير الاقتصادية مثل الدين والقيم الثقافية، التى يستخدمها معظم مؤرخى المركزية الأوروبية (متبعين ماكس ڤيبر) كتفسيرات لفقدان غير الأوروبيين القدرة على الابتكار، هى فى الحقيقة غير مهمة كعوامل فى التغيير الاقتصادى أو عدمه.

ولكن جونز لا يخبرنا عن سبب كون الأوروبيين مخترعين ومبتكرين، فهو يؤكد فى "المعجزة الأوروبية" أن تلك الصفة وجدت لديهم "منذ زمن قديم" (P.46) كما يربط بينها وبين الثقافة الفردية المحبة للحرية التى يدعيها كصفة للثقافة الأوروبية فيما قبل العهد الرومانى، والتى ارتكزت على الزراعة غير المعتمدة على الرى (فى "النمو من جديد" يعود بها إلى أوقات العصور الوسطى بدون نفى أو إثبات لصحة مجادلته السابقة عن نماذج الاستقرار القديمة وما شابه)؛ فيجادل أن ثقافات الزراعة خارج أوروبا كانت مثقلة بزيادة عدد السكان (قيد ديموغرافى غير كاف)، والحاجة إلى الرى، والاستبداد الشرقى، بينما كان الأوروبيون أحرارًا وتغذيتهم جيدة ومتطورين، وبالتالى مبتكرين تكنولوجيًا. يجب أن نذكر مرة أخرى أن تلك كلها خرافات محضة. كانت القبائل الأوروبية القديمة مثلها مثل القبائل الآسيوية والإفريقية القديمة فى جميع مناحى المناقشة الحالية. كانوا كلهم محبين للحرية وغيرها من الصفات الأخرى. كان الرى مستخدمًا فى أجزاء معينة من آسيا وإفريقيا، كما أن أنظمة الزراعة القائمة على الرى لم تحكم على ممارسيها بما يخالف ذلك؛ والحقيقة أن معظم الابتكارات التكنولوجية الرئيسية فى الفترة ما بين أواخر العصر الحجرى وحتى الحقبة الرومانية (أو بالأحرى الحقبة الرومانية – الغانية – المورية فى الهند – أو إبان حكم الهان فى الصين) جاءت من الحضارات القائمة على الرى: الكتابة، بناء الطرق، العمارة، وغيرها الكثير. لم تعد الأسرة النووية تمثل أوروبا أكثر من غيرها فى عصور ما قبل الفترة الحديثة، ويبدو أن استخدام وسائل تنظيم النسل كان موجودًا فى مناطق كثيرة على مستوى العالم.

إبان الفترة الرومانية فى شمال غرب أوروبا أدى السلام إلى نمو عدد السكان "وحتى نساند هذا التعداد المتنامى أعطيت الشعوب الجيرمانية دافعًا للتحول للاختراع

والابتكار التكنولوچى" وكانت النتيجة انطلاق التكنولوچيا الزراعية التى أعطت أوروبا دفعة هائلة للأمام. نلاحظ أولاً أن چونز يرى النمو السكانى دافعًا للابتكار فى أوروبا، بينما يعتبره عاملاً مثبطًا فى حال الحضارات الآسيوية (P.158, 169, 201, 215, 219) السبب الأساسى مرة أخرى هو العقلانية التفاضلية. الأوروبيون الأوائل كما يقول:

> كانوا مؤهلين لمقايضة.... الأطفال بالبضائع.... [على عكس الذكور من أسيا] لم يمارس الذكور الأوروبيون هذا التقسيم الفورى لغنائم الحب. وهم بهذا القيد (حجموا) تعداد السكان... [فى أسيا] سمح لتعداد السكان بالنمو بدون أى قيد متعمد. يبدو أنهم فضلوا التزاوج على البضائع التجارية.. (التأكيد مضاف P.15).

من الواضح أن الآسيويين تزاوجوا بدون قيد، لم يفهموا تنظيم النسل، ولذا عانوا ويلات النمو السكانى التى (على نحو ما) إما منعت التغير التكنولوچى أو ابتلعت كل آثاره. يقدم چونز المجادلة نفسها ولكن مستخدمًا لغة مقيدة فى "النمو من جديد":

> فى اليابان وأوروبا فقط يمكن الادعاء بأن الفلاحين تحكموا فى حجم العائلة، مفضلين الدخل على الطفل الإضافى... لم تسجل القيود السكانية المتعمدة فى مجتمعات مثل الأجزاء اليابسة فى أسيا... إذًا ربما كانت الديموغرافيا القروية شباك المصيدة التى وقع فيها طواعية معظم العالم فيما قبل فترة الحداثة (P.127).

مرة أخرى:

> كان القيد [الديموغرافى]... غائبًا بصورة واضحة من الهند وأجزاء أخرى من أسيا (P.212).

كل ذلك ليس صحيحًا(١٣). عبارات مثل "الادعاء" و"لم تسجل" تعنى، ببساطة، جهل چونز بالأدبيات وثيقة الصلة بالموضوع.

لا يقدم چونز تفسيراً لهذا الاختلاف المزعوم بين الأوروبيين العقلاء والآسيويين الفاقدين لتلك الصفة. نجده يقترب من هذا التفسير فى نظريته غير المدعمة بالأدلة عن

الأسرة الأوروبية. من المفترض أن الأوروبيين (الشماليين) مارسوا تنظيم النسل وكان لديهم أسر صغيرة فيما قبل الحقبة الرومانية. وهذا يوحى بنموذج ثقافى نجد فيه الأهداف الاقتصادية فى مرتبة أعلى من أهداف زيادة عدد الأطفال بصورة مطلقة، ومن المفترض كذلك أن الثقافات الآسيوية لم تعرف هذا النموذج؛ وفى الحقيقة، يبدو أن تنظيم النسل يعد عاملاً مشتركًا فى الثقافة، وليس هناك من سبب يجعلنا نفترض أن الأوروبيين مارسوه فى الماضى بصورة أكثر نجاحًا من غيرهم. كما أن المجادلة أن الأسر الصغرى لديها طموحات اقتصادية أعلى هى مجادلة خاوية من أى معنى. يعلن چونز مباشرة أن الأوروبيين وحدهم هم الذيُن حافظوا على حجم الأسر الصغيرة منذ القدم. "نحن بحق نظن كما يقول" أن هذا النموذج يعود إلى الألفية الثانية قبل الميلاد "بالرغم من تجنب الأدبيات الديموغرافية لهذا الموضوع" (P.15, 16) – هنا مرة أخرى نجد ذريعة لتجنب الاعتراف بعدم وجود دليل.

يضيف چونز تفسيراً مزعومًا للعبقرية التكنولوچية الدائمة للثقافة الأوروبية. فهو يدعى أن الكوارث الطبيعية شائعة فى آسيا ولذا وجب على الأسر القروية إنجاب أطفال كوسيلة دفاع ضد الكارثة. فكرة أن الأسر القروية فى آسيا كان لديها عدد أطفال أكثر، بصورة غير واعية، كرد فعل للكوارث الطبيعية، أى الاستجابة "لآثار الكارثة" عن طريق التناسل فى أقصى درجاته (P.20)، تعد ببساطة تكهنًا. على أية حال فإن الادعاء بخصوص الكوارث الطبيعية ليس صحيحاً. حيث إن المساحة المأهولة بالتعداد السكانى المستقر فى آسيا تبلغ حوالى ثلاثة أضعاف مثيلتها فى أوروبا، ولذا يجب أن نتوقع أن يكون عدد الكوارث الطبيعية فى آسيا أكثر منه فى أوروبا بأربعة أمثال.

فى النهاية إذاً، لا نجد چونز يطور مجادلته عن الأصول القديمة (ما قبل الرومانية) لصفة قديمة جداً بالنسبة له، ألا وهى العقلانية التكنولوچية الأوروبية. بناءً على هذه الحقيقة يمكن لنا أن نستنتج أن چونز وجد ضالته فى تلك الصفة "الأوروبية" وليس فى البيئة الطبيعية.

تشترك العقلانية الأوروبية مع البيئة الأوروبية فى نفس الدرجة الرفيعة فى مناقشة چونز عن الحيوية التكنولوچية فى الفترة ما بعد الرومانية فى عصور الظلام وأوائل العصور الوسطى. "لقد أعطى هطول الأمطار وفصول الصيف المحتملة" شمال غرب أوروبا ميزة بيئية مفترضة لإنتاج مجموعة متنوعة من محاصيل الغذاء بالإضافة إلى الماشية وكانت النتيجة "نظامًا غذائيًا متنوعًا" ومزايا [غذائية] على الأنظمة الغذائية القائمة على الحبوب فى الحضارات الأقدم (P.48, 49). ووصف ذلك بأنه بيئة فريدة تفضل "نظامًا غذائيًا متنوعًا" فإنه يعد خطأ. (يبدو أن أصل هذه الفكرة هو لين وايت)، فى البداية نجد لدى چونز صورة مشوهة عن الزراعة الآسيوية ("الحضارات الأقدم")، التى وفرت تنويعة كبيرة من الأغذية مثل الزراعة الأوروبية. "مساحات زراعة الأرز" كما يقول "غير متمايزة" (P.212) وتمنع التقسيم الإقليمى للعمالة والتجارة. ولكن الحال لم تكن كذلك. يسيطر الأرز على مساحات معينة وذلك لأنه غذاء له قيمة غذائية وتجارية عالية مما يجعله المحصول المفضل لدى المزارعين. تزرع محاصيل أخرى بجانبه إما بالتبادل أو على قطعة أرض قريبة غير مروية، كما أن الماشية تتغذى على الجزامة أو العشب فى المرتفعات. وفرت المساحات المزروعة بالأرز فى آسيا القديمة تغذية متنوعة كمًا وكيفًا وبصورة ليست أقل منها من المساحات التقليدية فى ريف أوروبا. على أية حال، لا تسيطر زراعة الأرز على الأراضى فى آسيا، فلا يوجد مثل هذا المحصول فى أى مكان.

إنه تحيز كلاسيكى من جهة الأوروبيين (الشماليين) أن يتخيلوا أن بيئتهم فريدة من حيث إنتاج الزراعة، لدرجة أن معدل سقوط الأمطار المرتفع وفصول الصيف المعقولة والتى طالما امتدحها چونز كانت فى الغالب تعنى التربة المليئة بالماء حتى وقت متأخر من الربيع أو أوائل الصيف وبالتالى يكون لديهم موسم زراعى قصير لكثير من المحاصيل. بعض الأقاليم لم تكن لديها الإمكانية لزراعة المحاصيل قبل استقدام البطاطس المحبة للرطوبة من أمريكا الجنوبية. ومن الواضح أن معدلات الإنتاج الزراعى الخضرى تتأثر سلبًا بمعدل سقوط الأمطار المرتفع؛ فصول الصيف الباردة، ضبابية غرب أوروبا إذا ما قورنت بأقاليم أكثر دفئًا مثل شمال ووسط الصين المعتدلة،

وشمال الهند، وأقاليم استوائية مثل جنوب الصين ومعظم الهند وجميع جنوب شرق أسيا. المناخات التى تسمح بإنتاج زراعى خضرى كبير وبالتالى محصول وفير وهى أقاليم استوائية وشبه استوائية وليست مناخات خطوط العرض البحرية المتوسطة فى شمال غرب أوروبا.

يبدأ چونز الآن تقريرًا عن الابتكارات التكنولوچية الوفيرة المزعومة والتى غمرت العصور الوسطى، التى دفعت أوروبا قدمًا نحو تقدم دائم مكتسح ("مقارنة بالطبيعة البطيئة للحضارات الأخرى") وهو التقدم الذى من المفترض أنه استمر بلا انقطاع حتى العصر الحديث. من الأهمية بمكان فى هذا المقام أن نبين فرقًا هامًا بين نوعين من التقارير عن تكنولوچيا العصور الوسطى. صحيح أنه كان هناك تقدمًا تكنولوچيًا، ونستطيع أن نسرد تلك العملية ونضيف بعض الصفات الرومانسية ويصبح لدينا ما يبدو أنه وصف لثورة تكنولوچية حقيقية. (هذا ما فعلة بالضبط لين وايت وروبرت برينر كما رأينا فى الفصلين الثالث والرابع) أو من الممكن أن نستخدم صفات مختلفة بحيث تبدو العملية برمتها وكأنها بطيئة وغير مؤثرة. كلا النوعين يستخدم الحقائق نفسها. إذًا يبقى السؤال: كيف لنا أن نؤسس المعيار الذى يبين لنا ما إذا كان هذا التقدم التكنولوچى بطىء أم سريع، ثورى أم لا. لدينا معياران هنا. أولاً: إذا كان لنا أن نثبت أن تغيرًا ثقافيًا عميقًا حدث نتيجة التغيرات التكنولوچية فى العصور الوسطى، إذا فقد كانت تلك التغيرات ثورية بحق. ثانيًا: إذا كان من الممكن أن نعقد مقارنة صحيحة مع مجتمعات أخرى بحيث يمكن القول أن أوروبا كانت تتقدم للأمام بسرعة بينما كان غيرها من المجتمعات يتحرك ببطء أو لا يتحرك بالمرة، إذًا، مرة أخرى، يكون لدينا عملية ثورية. يقدم چونز على المحاولتين ويفشل.

فهو أولاً: يؤكد بداية أن التقدم التكنولوچى فى العصور الوسطى كان أحد المصادر الهامة للتقدم الاقتصادى لتلك الفترة (كانت السياسة هى المصدر الثانى)؛ وهو هنا يقدم مجادلة لين وايت الأساسية بالرغم من محاولته تحسين الحالة حين يأخذ فى اعتباره الاعتراضات التى قدمت على نظرية الحتمية التكنولوچية لوايت فى خلال

العقدين اللذين مرا على نشر كتاب وايت "تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى". يقدم چونز قائمة وايت عن فوائد الوفرة التكنولوچية ويضيف البعض الآخر من عنده[١٤]. يعترف چونز أنه من الصعوبة بمكان تحديد ما إذا كان التقدم التكنولوچى عاملاً مستقلاً (كما أصر وايت) أو كان أثرًا لأشياء مثل الاستقرار السياسى المتزايد ونتائجه الاقتصادية، كما نجده يخلص إلى أن التكنولوچيا كانت إلى حد كبير، وليس كليًا، عاملاً مستقلاً. لأهدافنا هنا نرى أن شكوكه بخصوص هذا الأمر لا محل لها من الاهتمام، وذلك لأن چونز يفسر العمليات السياسية والاقتصادية - كما سنرى بعد قليل - فى ضوء نفس العقلانية الأصلية "للأوروبية"، تمامًا مثلما يفعل مع العمليات التكنولوچية. وباختصار: يرى چونز التغير الاجتماعى فى العصور الوسطى باعتباره عملية ديناميكية معقدة، دفعت قدمًا بواسطة التكنولوچيا وعوامل أخرى، تعد هى نفسها أعراض للعامل الأساسى ألا وهو العقلانية الأوروبية.

ثانيًا: يحاول چونز توضيح أن تقدم التكنولوچيا الأوروبية الثابت نحو الأمام لم نجد مثيلاً له فى أى مكان آخر وقد كان بحق عنصرًا فى "المعجزة الأوروبية" فى العصور الوسطى. عندما كان ڤيبر يكتب عن تلك الأمور كانت هذه المهمة سهلة وذلك لأن الأوروبيين فى بداية القرن العشرين كانوا يعتقدون أنه لم يتم اختراع شىء ذا أهمية تذكر فى القارات الأخرى خلال العصور الوسطى. حتى عندما كتب وايت "تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى" (١٩٦٢) كانت هناك أبحاث مثيلة عن التاريخ التكنولوچى والعلمى لآسيا وأفريقيا، مما أمكن غض الطرف عنه وذلك لأن معظم ادعاءاته عن الاختراعات التكنولوچية الأوروبية فى أوائل العصور الوسطى ظهرت على أنها غير صحيحة على أساس أن تلك المخترعات كانت قد اخترعت فى مكان آخر. لم يكن چونز من جانبه على علم بالبحث الهام عن أصول التكنولوچيا غير الأوروبية ولكن لم يكن فى إمكانه تجاهل وجود مثل هذا العمل كليًا، ولذا فهو يستخدم بعضًا من أدواته اللغوية.

لدينا بداية تعميم مفاده أن كثيرًا من الابتكارات التكنولوچية التى ظهرت فى أوروبا فى عصور الظلام والعصور الوسطى كانت بالفعل قد اخترعت فى مكان آخر

وانتشرت فى أوروبا ولكن "أوروبا هى التى فعّلتها واستخدمتها إنتاجيًا على نطاق واسع وبوجه عام تفوق التلميذ على الأستاذ" (P.58)(١٥). يعد هذا الرأى مضللاً فى نواح عدة. لو كان التلميذ الأوروبى قد تفوق عدة قرون لاحقة، إبان الفترة الحديثة وعلى الأخص منذ بداية الثورة الصناعية، إذًا لما استحق أوروبيو العصور الوسطى أيًا من الثناء: لم يكن هناك "معجزة" فى العصور الوسطى. ونجد چونز يقدم مثالاً ملزمًا، وهو اختراع الصين للبارود. فهو يعتقد كما يعلمون الأطفال الأوروبيين فى المدرسة أن يعتقدوا، أنه بالرغم من أن الصينيين هم من اخترعوا البارود فإن الأوروبيين فى الحقيقة هم الذين حولوا هذا الاختراع من لعبة إلى شىء جاد: المفرقعات للاستخدام العسكرى. ولكن نيدهام Needham وغيره أوضحوا أن الصينيين لم يخترعوا البارود فحسب ولكنهم استخدموه فى المدافع، على الأقل فى نفس الفترة التى استخدمه فيها الأوروبيون(١٦). يبدو أن المدافع الأوروبية والصينية الأولى ظهرت فى نفس العقد ولا يمكن طرح إمكانية انتشار المنظومة ككل من الصين لأوروبا جانبًا. ولكن الأوروبيين بالفعل حلقوا بالتكنولوچيا فى آفاق أرحب بعد العصور الوسطى. بعد التسليم بأن بعض الاختراعات التكنولوچية الجديدة كانت قد أُخترعت خارج أوروبا، يناقش چونز بعض الاختراعات باعتبارها تمت حقًا فى أوروبا تاركًا انطباعًا بأن كل الاختراعات الهامة حقًا قد تحققت – أو حُسنت – فى تلك القارة؛ ولدينا قائمة طويلة معظمها لم يخترع فى أوروبا أو لم يقدم فى أوروبا فقط. القائمة طويلة. وتبدأ بالبنود الهامة فى قائمة لين وايت: المحاصيل البقولية، المحراث الثقيل ولجام الخيل وغيرها. ثم تأتى الأدوات الميكانيكية: يبدو أن چونز يعتقد أن كل تكنولوچيا الهندسة الميكانيكية كانت أوروبية صرفة. طاحونة الهواء وطاحونة الماء. (كلاهما كان منتشرًا فى العالم القديم وربما لم يخترعا فى أوروبا) أما بالنسبة للساعات فنجده ينضم لمؤرخى المركزية الأوروبية مثل كارلو كيبولا وديڤيد لاندز فى الادعاء خطأ بأن الساعات لم تستخدم فى الوقت نفسه أو فيما قبل ذلك فى الحضارات الأخرى: على سبيل المثال يؤرخ نيدهام للساعات فى الصين(١٧). (نناقش هذا الأمر فى الفصل التاسع) المدفع. آلة الطباعة. يسلم چونز بالأصل الصينى لآلة الطباعة (فى الواقع قد يكون كوريًا) ولكنه يدعى خطأ أن التقنية الصينية الأولى

"لم تكن فى مرونة تقنية جوتنبرج.... إنتاج الجملة كان يمكن أن يكون صعبًا" (P.62). وهذه هى نقطة الانطلاق لچونز بقفزة تؤهله لاستنتاجات هامة عن أثر الطباعة "على عقول البشر" – الأوروبيون فقط، وليس الصينيين، هم الذين فى الحقيقة قرءوا الكتب أيضًا فى هذا الوقت.

هناك وسيلة أخرى يستخدمها چونز لتشويه تاريخ التكنولوچيا لجعله يبدو وكأن الأوروبيين هم وحدهم صناع المعجزة فى العصور الوسطى. إنها وسيلة قديمة، بعثت فيها الحياة على يد مؤرخى المركزية الأوروبية. عرف الأوروبيون لفترة طويلة أن حضارات الشرق الأولى كانت أكثر تقدمًا من الحضارات الأوروبية الأولى فى مناح عدة، بما فيها التكنولوچيا. وكان الحكم الكلاسيكى هو: "على نحو ما فقد وصلوا لتلك المراتب بدون فوائد المسيحية، وبدون إرشاد الرب كان لابد لحضاراتهم أن تتوقف عن التقدم وبالفعل تعود القهقرى وتتحلل. فبإرشاده تفوقنا عليهم". بقول آخر، لم تسفر الإنجازات الشرقية عن شىء، وقد كان هذا إصرارًا على أن الشرقيين قد توقفوا عن التقدم فى نقطة معينة من التاريخ وبالتالى تقهقروا للوراء. اليوم يستخدم چونز وآخرون شكلاً آخر حديثًا ومدنيًا ومعقدًا من مجادلة الركود القديمة. أينما عرف بحدوث التقدم التكنولوچى بحيث لا يمكن إنكاره، يضيفون بسرعة: "ولكنه توقف". على سبيل المثال، طورت الصين بعض التقنيات المعقدة لصناعة المنسوجات فى العصور الوسطى، لم يؤد هذا إلى ثورة صناعية، إلى صناعة منسوجات حقيقية كالتى تطورت فى أوروبا – بعد ٥٠٠ سنة –. ونجد بعض مؤرخى المركزية الأوروبية لا يكتفون بالقول "بأنه كان خطوة للأمام" ويتركوا الأمر عند هذا الحد، فهم يستخدمون هذه الحقيقة باعتبارها دليلاً على أن الصينيين لم يعرفوا كيف يحافظون على التكنولوچيا متقدمة للأمام. معظم الأمثلة التى يستخدمها چونز فى مجادلاته عن ركود التكنولوچيا خارج أوروبا هى من هذا النوع. فهم يتساءلون عن سبب عدم استمرار آسيا فى العصور الوسطى فى التقدم للوصول لثورة صناعية، متجاهلين حقيقة أن الثورة الصناعية الحقيقية حدثت بعد قرون وذلك بعد قهر آسيا بواسطة الغزو الأوروبى أو إخضاعها تحت ظروف الاستعمار الحديث.

بوجه عام فإن مناقشة چونز عن التكنولوچيا قد صممت لتوضح أن الأوروبيين وليس غيرهم قدموا تطورات تكنولوچية فى العصور الوسطى، ويقدم ذلك باعتباره جزءًا هامًا من الأساس لنظريته عن "المعجزة الأوروبية" ولكننا نجده يفشل فى إثبات موقفه.

التوسعية

وفقًا لچونز يتمتع الأوروبيون بما يمكن أن نطلق عليه اتجاهًا طبيعيًا لتوسيع حدود مجتمعهم عن طريق الاكتشاف والاستكشاف والغزو كان عصر الاكتشافات، عصر كولومبس وفاسكو دا جاما كان مجرد مرحلة فى:

> محاولة قديمة لاختراق العدم... كان المجتمع الأوروبى ينبض بالحركة ويسبر أغوار حدوده لفترة طويلة قبل ذلك، على الأقل منذ القرن العاشر.... أو قبل ذلك إذا ما قبلنا بالبداية منذ عبور الڤايكنج للمحيط الأطلنطى الشمالى (P.70).

هذا الرأى، كما ينبغى أن نلاحظ، عادة ما نواجهه فى كتابات المركزية الأوروبية التاريخية. وعادة ما يُرى على أنه بعد "العقلانية" الأوروبية: فلدى الأوروبيين النزعة للاختراع وللابتكار وللتقدم وبالتالى للبحث والاستكشاف والاكتشاف. لم يكن چونز هو أول من ادعى أن توسع أوروبا فى أمريكا وأفريقيا وآسيا كان انعكاسًا، ليس للظروف التى سادت على نطاق نصف الكرة الأرضية الشرقى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكن لاتجاه قديم داخل "الثقافة الأوروبية" التوسعية الحيوية (P.75). وذلك لأن أوروبا كانت (حسب كلمات چونز) "هذا النوع من المجتمع" (P,71). أضف إلى ذلك أن چونز يعد تقليديًا عندما يشير إلى الڤايكنج والحملات الصليبية والتوسع شرقًا نحو سيبيريا وإعادة غزو أيبريا وغيرها كلحظات فى "متسلسلة التوسع" (P.72).

لا يحاول چونز أن يفسر نزعة أوروبا للتوسع. استنتج من ذلك أنه يراه فى نفس ضوء فكرة عادة أوروبا العامة على الاختراع والابتكار. يبدأ مناقشته عن التوسع مع

القرن العاشر رابطًا بين بداية الحروب الصليبية وبداية السلام فى شمال غرب أوروبا بعد عصور الظلام. ظهرت النزعة التوسعية نفسها فى ذروة العصور الوسطى ومتروك لنا أن نستنتج أنه كان كامنًا قبل ذلك الوقت.

يسلم چونز أن "العالم الإسلامى" (بدون تفرقة) كان أيضًا توسعيًا، مضيفًا إلى عملية الغزو التركى لمصر، دخول المغول فى الهند، وغزو المورسكيين لأسبانيا. ولكنه يطرح ذلك جانبًا باعتباره غير مهم على أساس: أولاً، إن الإسلام توسع فى مناطق ذات موارد أقل من العالم الجديد (هو محق فى هذا). ثانيًا، لم يكن الإسلام من تلك المجتمعات التى تستخدم غنائم الغزو خطأ، وثالثًا، على أية حال، فإن المجتمع الإسلامى تدهور، وهنا نجد اللازمة العادية المكررة: "ولكنه توقف". يتجاهل چونز كلية حقيقة أن المجتمع الصينى وكثير من المجتمعات غير الأوروبية توسعت أيضًا عندما كانت الظروف الداخلية والخارجية مواتية: قوة سياسية، تقدم اقتصادى، طبيعة المجتمعات على حدودها وهكذا. يناقش التوسع الصينى وكأنه كان هجرة ريفية بطيئة. رحلات الاكتشافات العظيمة التى قادها الأدميرال چنج هى Zheng He أو (شنج هو Cheng Ho) فى الفترة ما بين (١٤٣٣-١٤١٧) ذكرت فى سياق مختلف، ما يهم چونز هو ما يعتقد أنه الدليل على الركود الصينى وعدم تقدمهم فى حقيقة توقف هذه الرحلات: "أنهم توقفوا". إذًا هو يتركنا مع صورة لأوروبا على أنها نوع خاص من المجتمعات، منذور لمعجزة الاكتشاف الدائم والتوسع. إذا ما عقدنا مقارنة سليمة بين المجتمعات الأوروبية وغيرها من مجتمعات نصف الكرة الأرضية الشرقى فى العصور الوسطى فسيظهر لنا جليًا أن كل المجتمعات القوية والمتقدمة كانت أيضًا توسعية أينما كان ذلك ممكنًا. لم تعكس الحملات الصليبية توجهًا توسعيًا لا يمكن وصفه: فقد كانت لديهم أهداف ملموسة محددة. كان الڤايكنج مثلهم مثل غيرهم من البحارة الطوافين مثل البولونيز. اكتشاف العصور الوسطى لبعض جزر الأطلنطى (الأزور والكنارى وغيرها) له مثيله فى المحيط الهندى والمحيط الهادى. أما مجادلة أن التوسع الأوروبى كان توسعًا فريدًا من نوعه (وربما معجزًا) فهى مجادلة واهية.

اقتصاد السوق الحرة

منذ صعود الرأسمالية فى أوروبا ومنذ تقدمها لديها اقتصاد سوق. سوق حرة بمعنى أن الصفقات فيها ثابتة والعاملون أحرار فى الحركة بدون تدخل كبير من السلطة السياسية، مما لا يترك مجالاً للجدل بأن تطور اقتصاد السوق الحرة حدث خلال العصور الوسطى فى أوروبا، وأنه يعد جزءاً من النمو العام للاقتصاد التجارى، والبزوغ التدريجى للرأسمالية من رحم الإقطاع، أى أنه كان تطوراً لنظام سوق واقتصاد سوق. يخصص جونز فصلاً واحداً فى "المعجزة الأوروبية" لنمو السوق الحرة، وهدفه هو توضيح أن هذا النمو كان فريداً و(مجازاً) معجزاً.

أصل هذه المجادلة هو فكرة أن المجتمع الأوروبى القديم كان مشبعًا بالفردية (الـ"تفضيلات الفردية للقبائل الجيرمانية والإندوأوروبية... اللامركزية والعدوانية" "P.13") بالإضافة إلى العقلانية. من أول كتاب "المعجزة الأوروبية" وإلى آخره نجد مراراً وتكراراً أن الأوروبيين، حسب عادتهم ومنذ وقت قديم، كانت لديهم صفات مثل الفردية والقدرة على الابتكار والمبادرة، لدرجة أنه يمكن اعتبارهم رأسماليين بالفطرة. فى الحقيقة لا يقول جونز إن غير الأوروبيين ليسوا رأسماليين بالفطرة، ولا يوظفون الحسابات الاقتصادية العاقلة، ولكن نجد لدينا الانطباع أنه يشعر بأنه كانت هناك نزعة تجاه الرأسمالية تسرى فى عروق كل البشر، ولكن الأوروبيين كانوا أكثر نضجًا من غيرهم. وقد عبر عن هذه الفكرة بدرجة ما فى "النمو من جديد" حينما جادل بأن العقلانية الاقتصادية مشترك ثقافى كونى ولكن البيئة والدولة تتآمران لمنع الأفراد العقلاء من السير قدمًا فى المناطق غير الأوروبية (نتحدث عن هذا الأمر لاحقًا). يسلم جونز، كما ينبغى له، بامتلاك الثقافات الأخرى للتجارة الواسعة من وقت قديم، ولكنه يؤكد أن تلك النوعية من التجارة لم تكن لتؤدى بهم للرأسمالية. ويرى جونز، أن التجارة الأوروبية كانت "حرة" بحق منذ العصور الوسطى وما بعدها. فى المقابل، كانت التجارة والأسواق الآسيوية ترزخ تحت نير التحكم السياسى طوال الوقت. فى الفصول المخصصة لآسيا (نناقشها لاحقًا) يمدنا بحكايات من المفترض أن توضح أن الطغاة الأسيويين تحكموا،

وتلاعبوا، واستنزفوا بشدة التجارة التى حدثت داخل أو فيما بين إمبراطورياتهم، ولكن كل هذا يعد تاريخيًا خطأ. فى كل مجتمعات العصور الوسطى كان هناك تدخل من اللوردات والملوك فى التجارة بدرجة ما، وبالتأكيد لم تكن أكثر وضوحًا فى آسيا وإفريقيا من أوروبا. چونز على علم بالدرجة الحقيقية التى على أساسها استطاع التجار الأوروبيون مباشرة تجارتهم بالرغم من التدخل السياسى، داخل وفيما بين حدود حكوماتهم معًا. ويبدو على غير علم بأن التجار الآسيويين والأفارقة فعلوا الشىء نفسه (ولا أجد أى تحسن فى "النمو من جديد"). الدليل فى هذا الشأن قوى حقًا[١٨]. (يمكن أن نتذكر التعليق الشهير لتوم پيريس Tomé Pires، المؤرخ البرتغالى فورًا بعد التعامل مع التجار الهنود: "هم رجال يفهمون البضاعة، فهم منغمسون فيها" و"ومن يريد من شعبنا أن يصبح بائعًا أو وكيلاً تجاريًا [أى تاجر] يجب أن يذهب إليهم ويتعلم، وذلك لأن العمل التجارى يعد علمًا")[١٩].

يكرر چونز أيضًا الخطأ التقليدى بأن التجارة الأسيوية محدودة بالمواد الصغيرة الحجم، عظيمة القيمة، مواد الرفاهية. بينما احتوت التجارة الأوروبية على البضائع الكبيرة ذات المنفعة. يستخلص أن تلك البضائع كانت أقرب للاحتياجات الحقيقية لاقتصاد يتطور من بضائع الكماليات التافهة، لذا فالتجارة الأوروبية كانت تنطوى على بوادر للرأسمالية بعكس التجارة الآسيوية. (عدل ذلك تعديلاً بسيطًا فى "النمو من جديد": إبان حكم سونج فى الصين كانت التجارة على هذا الشكل، لكن تجارة آسيا الدولية - يعتقد أنها تجارة داخل الإمبراطورية - لم يكن لها صفات التجارة التطورية مثل تجارة أوروبا الدولية فى أى وقت مضى). كما يوحى أيضًا أن تجارة الكماليات فى آسيا كانت مرتبطة إلى حد ما بتدهور الحياة وانحلالها لدى الطبقة الحاكمة هناك وعدم رغبتهم فى تشجيع التطور الاقتصادى، هذا أيضًا خطأ. تجارة البضائع الكبيرة كانت موجودة فى آسيا مثلما كانت أوروبا. انتقل الأرز من الهند للعراق ومن جنوب الصين إلى شمالها والخشب من بورما إلى المالايا والحديد من شرق أفريقيا إلى الهند وهكذا[٢٠].

قُدمت البيئة فى هذه المرحلة وذلك للتأكيد على نظرية چونز عن تفرد اقتصاد السوق "الحرة" الأوروبى. منذ وقت بعيد "ظهرت مزايا التجارة الأوروبية بسبب الفرص البيئية (P.90). يقول چونز إن البيئة الأوروبية كانت متنوعة فى المناخ والچيولوچيا والتربة، موفرة بذلك للتجارة عناصر مكملة من الموارد الطبيعية؛ كما كانت تكاليف النقل أقل بسبب امتلاك أوروبا لخط ساحلى طويل متعرج بالنسبة لمساحتها ... وأنهار صالحة للملاحة" (P.90). فى الماضى عندما كانت الحتمية البيئية مسيطرة على الجغرافيا، كانت تلك المجادلة واسعة الانتشار كتفسير لعظمة أوروبا ولكن لا يمكن قبولها بعد ذلك، والحقيقة أن تنوع البيئات فى أوروبا ليس أكثر منه فى الصين والهند وأفريقيا، والشرق الأوسط. فى الصين يرتبط التنوع فى درجات الحرارة من الشمال للجنوب بتغير فى أنواع المحاصيل بنفس الدرجة على الأقل فى أوروبا (التى ليس لها فى الواقع ظروف استوائية مثل هانيان "Hanian"، ولا صحراء مثل زينچيانچ "Xinjang" ولا زراعة المرتفعات مثل يونان Yunnan، والتبت (Tibet). فى الهند والصين هناك اختلاف حاد بين أقاليم القمح (الأبرد والأجف) وأقاليم الأرز. فى أوروبا كان القمح على العكس من ذلك يزرع فى أى مكان، كان يمكن زراعته فى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب. نكتفى بهذا القدر فيما يتعلق بالمجادلة الخاطئة عن التنوع الفريد للبيئة الأوروبية والدافع المزعوم الذى أعطته للتجارة الأوروبية.

أما عن مجادلة أشباه الجزر والأنهار (التى أطلق عليها الجغرافيون "نظرية الرؤوس والخلجان"): يبدو أن معظم حركة البضائع فى أوروبا (ما عدا فى إقليم البحر المتوسط) فقد كانت عن طريق البر وليس البحر كما كان الحال فى آسيا (فيما عدا تلك على امتداد السواحل الطويلة الكبيرة فى الهند، مناطق اليابسة فى جنوب شرق آسيا والصين والأرخبيل فى جزر جنوب شرق آسيا). كما أن أنهار أوروبا ليست أقل ولا أكثر نفعًا للتجارة من أنهار آسيا: الجانج، الميكونج، اليانج، وغيرها. إذًا، مرة أخرى، المجادلة التى تدعم فيها الحتمية البيئية "المعجزة الأوروبية" لا وزن لها. فى "النمو من جديد" يذكر چونز القليل عن هذا الأمر، ولكن يبدو أنه لم يعدل عن آرائه البيئية.

أعتقد أن اقتصاد السوق في أوروبا تبلور بطريقة مماثلة وبنفس إيقاع اقتصاديات السوق في آسيا وإفريقيا تقريبًا. بدأ التباعد بعد ١٤٩٢ عندما جلب غزو أمريكا الثروات للقطاعات الرأسمالية الأولية في أوروبا مما أعطاها السلطان والقوة لبدء عملية هزيمة المجتمعات التجارية المنافسة لها في أفريقيا وآسيا. لم يكن اقتصاد أوروبا في العصور الوسطى فريدًا كما لم يكن معجزًا بأى صورة من الصور.

الدول والأمم

تم استيعاب التطور السياسي الأوروبي في العصور الوسطى وأوائل الفترة الحديثة كما أنه لا يعتبر محل نزاع في خطوطه العامة. ولكن چونز يلوى عنق الحقائق ليجعلها تبدو وكأن ذلك التطور السياسي كان معجزًا، صحيح أنه كان الأقرب من "قلب المعجزة الأوروبية" (P.124). فهو يدعى أن الدولة الأوروبية الحديثة والنظام الحديث للدول كان في جوهره موجودًا بصورة جلية في فترة العصور الوسطى. ولكن المشهد السياسي في الحقيقة، كانت تعمه الفوضى في العصور الوسطى: فسيفساء من مئات الكيانات السياسية أشباه دول عديدة، وما من شيء يمكن أن نطلق عليه نظام دول.

هناك اتفاق واسع وليس إجماعًا حول العملية الأساسية التي أدت إلى تبلور نظام الدول وتشكيل الدول/الأمم الحديث. هناك ربط بين تلك العملية وعملية صعود الرأسمالية. يجادل معظم المؤرخين بأن ظهور التطور الاقتصادي من رحم الإقطاع قد تم التمهيد له من خلال بنية تحتية سياسية ذات صفات معينة. كان من المهم، كما لم يكن ضروريًا، أن تكون هناك مساحة يمكن للتفاعلات الاقتصادية أن تتحرك خلالها دون حدود خطيرة، "اقتصاد قومي" يتكون من نطاق واحد لتداول العمالة، سوق كبير للبضائع، وهكذا. كان مهمًا أن تكون الدولة التي تحوى هذا الاقتصاد قوية للدرجة التي تؤهلها لحماية الاهتمامات الاقتصادية لمواطنيها. أصبح مهمًا، في أواخر تلك العملية، التحام المواطنين مع بعضهم البعض في مجتمع مشترك، إن لم يكن ثقافة مشتركة، له قيم راسخة تفضل التطور الاقتصادي للرأسمالية، وبذلك دولة – أمة[٢١]. ظهر نظام الدول

من جهة بسبب الحاجة لتحديد قواعد الاتصال بين تلك الكيانات السياسية المتكاملة وبالتالى لحفظ السلام، ومن جهة أخرى لإرساء قواعد للتحرك الدولى للناس والبضائع. ولكن ذلك كله حدث بعد ١٥٠٠ بفترة طويلة، بعد نهاية العصور الوسطى.

لا يتفق چونز مع ذلك. فنجده يجادل بأن نظام الدول الأوروبى كان فى جوهره موجبًا من قبل البيئة الطبيعية لأوروبا منذ بداية العصور الوسطى، وهى صفة أوروبية صرفة: أى أن طبيعة الدولة وشكل التفاعل فيما بين الدول كان شيئًا لم يوجد له مثيل فى أى حضارة أو قارة أخرى. فقد كان قريبًا من "قلب" المعجزة الأوروبية، وليس نتاج عوامل تاريخية أخرى، وبالتأكيد لم يكن تطورًا متأخرًا يعكس نهضة الاقتصاد الرأسمالى.

تمضى مجادلته كالتالى: تنقسم بيئة أوروبا طبيعيًا إلى مناطق بيئية مركزية، وهى بوجه عام مناطق صغيرة ذات تربة عالية الخصوبة، تطور بها تعداد السكان المكثف فى أزمنة ما قبل التاريخ وقبل الحقبة الرومانية. إلى هنا فالمجادلة تقليدية فيما بين علماء الجغرافيا والأثريين والمؤرخين(٢٢). ولكن چونز ينحرف عن المتفق عليه فى ثلاث قفزات كبيرة فى مجادلته.

أولاً: تلك المناطق المركزية القديمة أصبحت فى الحقيقة دويلات صغيرة فيما بعد: التطور اللاحق كان ثانويًا إلى حد ما أو ربما سبق تحديده فى المراكز القديمة.

ثانيًا: نجده يقفز بطريقة غير منطقية من حقيقة أنه كانت هناك مناطق مركزية كثيرة إلى فرضية وجود مراكز قليلة وطبيعية إلى حد ما للدول الأوروبية الحديثة، حتى يتسنى له أن يجادل فى أن نموذج وموقع وحتى حدود الدول الحديثة تحظى بتحديد دائم إلى حد ما فى البيئة الطبيعية (يقدم صورة رومانسية للدول عندما تنمو وتتوسع خارجيًا فى الغابات والمستنقعات البرية حولها حتى تلتقى بدول مجاورة تقوم بالفعل نفسه).

ثالثًا: لدينا تحول سحرى حقيقى: تنمو المناطق المركزية بصورة ما بنفس المعدل تقريبًا حتى يظهر لنا ما يطلق عليه چونز "شبكة" الدول؛ والتى بدورها تفسر ما يعتبره چونز ثلاثة ملامح أساسية للنظام السياسى الأوروبى المتطور: حقيقة ظهور الدول

القوية، حقيقة بقاء تعددية الدول وبدلاً من دوله أوروبية واحدة مقارنة بالإمبراطوريات الصينية (على سبيل المثال)؛ ثم الحقيقة (المزعومة) بأن الدول الأوروبية شكلت نفسها فى نظام داخلى حقيقى، "نظام دول" بصورة دائمة ومنذ زمن قديم.

> لا يظهر أى سبب وراء وجوب تقديم نظام الدول للتطور الاقتصادى الدائم للعالم... [نحن] فى حاجة إلى أن نفسر وجود مثل هذا النظام فى أوروبا، وأوروبا وحدها..... يبدو أنه تأسس على خاصية البيئة. كان ذلك... تناثر الأقاليم المليئة بإمكانيات الاستصلاح الزراعى فى قارة من الأرض القاحلة والغابات. كانت تلك الأقاليم هى "المناطق - المركزية". (P.102)

> نشأ عدد كاف من الدول حول مركزها وكانت كلها على درجة من القوة تكفى لمقاومة... الغزو والاندماج: دولة أوروبية واحدة متحدة..... (كان) هناك عدد كاف من الدول الكبيرة المتشابهة تقريباً حتى تحفظ الائتلافات المتحولة التى عارضت تحكم القوة الواحدة بنجاح. (P.107)

تم تصميم كل ذلك لإرساء الأساس لنظرية سوف تشرح الدور المركزى الذى لعبته السياسة فى المعجزة الاقتصادية لتطور أوروبا. النظرية التى يطورها جونز فى "المعجزة الأوروبية" ويعيد تقديمها فى"النمو من جديد" بسيطة فى الواقع. لم تكن أوروبا لتتقدم مثلما فعلت لو أنها كانت موحدة سياسيًا تحت ظل إمبراطورية واحدة مثل الإمبراطورية الصينية. على الجانب الآخر، كان يتحتم وجود أشكال معينة من الوحدة بين أجزاء القارة بما يسمح بالتطور وانتقال آثاره داخل أوروبا. يجادل جونز بأن ما يطلق عليه "نظام الدول الأوروبى" ظهر قديمًا وثبت فى مكانه بقوة، كآلية سياسية تسمح لأوروبا بأن تملك كل مزايا الوحدة بدون مثالبها (كما يتفهمها جونز) كما فى النظام السياسى الإمبراطورى.

هذه نظرية تقليدية فى الحقيقة، ترتكز على الفكرة القديمة "للاستبداد الشرقى"، فكرة أن الحضارات الآسيوية حُكمت بنظام القناة بواسطة حكومات إمبراطورية مركزية مستبدة، أبقت المواطنين فى فاقة، مع قرارات غير عقلانية متقلبة نابعة من البيروقراطية، ومنعت الطبقة الحاكمة الفاسدة، الجشعة، والمنحلة أى تقدم للأمام باتجاه

الحداثة والتطور الاقتصادى. من الواضح، كما يقول چونز، أن أوروبا لم تكن لتتطور لو أنها وجدت دولة إمبراطورية تستهلك كل براعم النمو. يمكن لطريقة التفكير هذه أن تكون غير مثيرة إذا ما جرت المجادلة كالتالى "النمط الوحيد من النظام السياسى الذى يمكن أن يسمح بالتطور كان هو النظام السياسى الذى ألمح إليه": أى أن ما حدث وأيًا ما كان، كان لابد أن يحدث بنفس الطريقة التى حدث بها. هذه هى نواة مجادلة چونز فى الحقيقة بالرغم من التحسينات. وهى تلك التى تتمحور حول مفهومين: الشىء الرائع الذى يسمى "نظام الدول" والشىء البغيض الذى يسمى "إمبراطورية".

وفقًا لچونز كانت العناصر الأساسية فى المعجزة الأوروبية هى أولاً: القيد على المواليد. ثانيًا: القدرة على الابتكار التكنولوچى، وصفات أخرى عقلانية وتقدمية تملكها الأوروبيون بتفرد. ثالثًا: هبة من الموارد الطبيعية. رابعًا: (بالتالى) بيئة اجتماعية شجعت أو على الأقل لم تتدخل فى اتجاه ورغبة الأوروبيين الطبيعية فى التقدم، والحداثة والتطور مع استخدام تلك المنح العقلية والطبيعية. تهتم نظرية "نظام الدول الأوروبى" بالأخيرة.

هنا يقرر چونز أنه يتفق مع من يقول إن أفضل بيئة اجتماعية للتقدم هى تلك التى لا يوجد بها قيد على النشاط الاقتصادى، أى سياسة "دعه يعمل" Laissez - Faire، وهذه كما يقول كانت طبيعة اقتصاد أوروبا فى العصور الوسطى: كانت حرة بالمقارنة. هذه الحرية للرأسمالية الوليدة كانت أيضًا حرية عامة إلى حد ما، أى أنها كانت ديمقراطية سياسية وليدة.

بعد ذلك يقول چونز ما فحواه إن من الواضح أن الإمبراطوريات لم تكن لتسمح للرأسمالية بهذا النوع (الضرورى) من الحرية السياسية، وعليه فقد منعت الدولة الإمبراطورية التطور الاقتصادى؛ وعليه أيضًا فإن كل الحضارات غير الأوروبية التى كان يمكن لها أن تتطور لم يتأت لها هذا، وذلك لكونها إمبراطوريات.

(يغير هذا القول إلى حد ما فى "النمو من جديد": ليس كلاً، ولكن الكل ما عدا الصين فى عهد سونج وبعد ذلك اليابان أثناء فترة توكوجاوا Tokugawa) دعمه هذا

التأكيد هو محاولة لتوفير الدليل على أن الإمبراطوريات لم تسمح بالتطور الاقتصادى. ولكن بدلاً من الدليل يقدم لنا قائمة كئيبة لكل تحيزات الأوروبيين ضد النظم السياسية لدى غيرهم فى الفترة القديمة والعصور الوسطى والحديثة. هنا ما يقوله عن طبيعة الحكومة الإمبراطورية بوجه عام:

> السياسة الإمبراطورية لم تكن مستقرة بطبيعة الحال. وقد بقى تأثير غير قابل للرقابة، غير متجاوب وغير ممثل للغالبية فى يد هؤلاء الذين تولوا أمر الإمبراطور الصغير وكانوا فى الغالب طبقة الخصيان. كان الجو العام فى القصر هو زخم من الرذائل والخيانة والتفاهة وكان من السهل... تلفيق التهم بسبب سيطرة الأطفال المدللين الفاسدين المصطبغين بصبغة السلطة المطلقة. [ديفيد] لاندز [David] Landes يعلق على التاريخ الإسلامى، "لقد كان الحكام الذكور نسخة شرقية من سلالة الميروفينچ Merovingian"(*). أحاط بالأباطرة مجموعة من المتملقين. كان لديهم زوجات عدة، ومحظيات وحريم صغيرات السن، وهى الظاهرة التى تدل على تأكيد السيطرة فى العلاقات أكثر كونها متعة إضافية للغنى والقوة أى النزوع لاستخدام الناس كأشياء. كثرة البيوت التى يملؤها العبيد لأغراض استعراضية أكثر من العمل قد يكون له نفس الدلالة الأخلاقية. كان هناك اهتمام كبير برموز الخضوع والإذعان والركوع والسجود والانحناء حتى تلامس الجبهة الأرض كدليل على الهيمنة الشخصية التامة للإمبراطور. (P.109)

ثم يضيف چونز إن هناك بعض الأشياء "المقابلة" من هذا القبيل فى أوروبا، ولكن "مع قراءة أدبيات هذا الموضوع" نجده يكون "الرأى" الذى يمكن تقديمه حسابيًا على النحو التالى:

> الاستهلاك الزائد عن الحد والفسوق والرعب كانت أكثر انتشارًا فى إمبراطوريات آسيا والعالم القديم منه فى دول أوروبا. (P.110)

(*) Merovingian هم الأسرة الفرنجية الأولى التى حكمت بلاد الغال (٤٤٨-٧٥١ م). (المترجمة)

هناك أكثر من تلميح فى كل ذلك إلى أن چونز يعتبر الحكام الشرقيين فاقدين للرشد (أو مجانين). فى فصول "المعجزة الأوروبية" التى تناقش آسيا فى حد ذاتها – سنناقشها بعد قليل – نجدنا أمام تعليقات أكثر من هـذا النوع العام ومفاهيم أوروبية كلاسيكية خاطئة عن آسيا قدمت وكأنها تصريحات ذات ثقة مبنية على الملاحظة العلمية.

لم تكن الطبقات الإمبراطورية الآسيوية الحاكمة مختلفة فيما يتعلق بالفسوق وما شابه عن الطبقات الأوروبية الحاكمة فى أى حقبة، مع الأخذ فى الاعتبار حقيقة أن الحضارات الآسيوية كانت أكبر حجمًا وأغنى اقتصادًا من الأوروبية فى العصور الوسطى. وبالتالى اتجه حكامها لأن يكونوا أكثر إسرافًا فى أسلوب حياتهم وأكثر حرية فى النزوع والانغماس فى النزوات من الطبقات الحاكمة الأوروبية. من البساطة أن نجمع عدداً من الصفات الآسيوية التى بدت كريهة للأوروبيين (فى بعض الأحيان هى كريهة فعلاً)، ثم نؤكد خطأ الاعتقاد بأن تلك الصفات تمثل آسيا ثم ندعى أن الصورة التى رسمت هى بالفعل الصورة الحقيقية لآسيا على مدار تاريخها. هذه وسيلة قديمة تم استخدامها من قبل چونز بشكل تقليدى جداً. كما أنها الأساس الجوهرى لنظريته عن الأسباب السياسية وراء المعجزة الأوروبية. لو قامت إمبراطورية فى أوروبا، كما يقول چونز، لوجدت كل هذه الأشياء البغيضة فيها وكان من الممكن أن تعرقل تطورها الاقتصادى. كيف ذلك؟ يرسم لنا چونز صورة لما هو فى الحقيقة خيال: عرقلت الحكومات الآسيوية المستبدة أنشطة التجار وأصحاب المشاريع.

> [هؤلاء] الذين كانوا يسعون للقيام بأعمال تجارية فى ظل تلك الأنظمة تكبدوا الكثير ولم يحمهم القانون وكانوا يواجهون مخاطر يومية. (P.122)

ليس من الخطأ أن نجادل، مثلما يفعل چونز هنا، أن الحكومات الإمبراطورية فى آسيا – ودعونا لا ننسى أفريقيا، بالرغم من إغفال چونز لها – كانت أكثر عداء للنشاط الاقتصادى الخاص من الممالك المعاصرة فى أوروبا. هذا خطأ قديم طالما نُحى جانبًا من قِبل البحث العلمى(٢٣). حتى أوائل الفترة الحديثة، لم تكن أنشطة المجتمعات

فى أوائل الرأسمالية فى بلاد مثل الهند والصين تعوقها عراقيل سياسية بدرجة أقل أو أكبر من مثيلاتها فى الممالك الأوروبية. والحقيقة أن چونز لم يستطع أن يقدم أمثلة ملموسة على العكس. أقرب مثال قدمه هو الإشارة العابرة لقرار اتخذه بلاط الإمبرطور مينج Ming فى ١٤٨٠ وذلك بعدم تجديد رحلات المسافات الطويلة التى استمرت قرابة نصف القرن تحت إمرة الأدميرال شنج هى، ولكن تلك الرحلات كانت مشاريع دول وليست مشاريع خاصة. كانت التجارة الخاصة الداخلية والخارجية تتم بمعدل سريع تحت إمرة أباطرة مينج الذين لم تتمكن مجهوداتهم المتفرقة للتحكم فى التجارة الدولية من قمع المشاريع القوية الخاصة والتطور الاقتصادى الذى كان فى طور التكوين فى الصين خلال تلك الفترة.

فى أى نقطة من نقاط المناقشة الخاصة بالفرق بين الإمبراطوريات الآسيوية و"نظام الدول الأوروبى" لا يذكر چونز حقيقة أن كثيراً من المجتمعات غير الأوروبية كانت تحكمها حكومات غير إمبراطورية، وعادة ممالك مثل الممالك الأوروبية. كانت هناك ممالك، كبيرة وصغيره، مدن - دول مع أشكال حكم قانونية مختلفة ولكنها تخضع لتحكم المجتمعات التجارية بصورة ملموسة، حتى القليل من الجمهوريات(٢٤). لو كانت مجادلة چونز بأن الإمبراطوريات تعد طاردة للتطور الاقتصادى صحيحة، بالرغم من خطأ هذا، لكان لنا أن نسأل: لماذا لم تحظ الدول الآسيوية والأفريقية غير الإمبراطورية بمزايا دول أوروبا؟

نأتى بعد ذلك لـ"نظام الدول" الأوروبى. يقول چونز: لم تحمل أوروبا عبء الإمبراطورية الواحدة لأسباب ثلاثة، اثنان جليان وواحد ضمنى. السبب الضمنى الذى نوقش بالفعل، هو الديموغرافيا الآسيوية اللاعقلانية ("حلقات الوصل بين اقتصاديات السيطرة" - جشع الحكومة - و"النمو السكانى")(٢٥). أحد الأسباب الواضحة هو بيئة أوروبا الطبيعية، التى طبقًا لچونز تنقسم إلى مناطق مركزية طبيعية محاطة بأرض بور، تلك المناطق المركزية التى تشكل المراكز لدول مستقبلية بصورة طبيعية. صورة المناظر الطبيعية التى ترسم هنا هى لقارة بها حدود كبيره تفصل "مناطقها المركزية" المختلفة، ويجب أن نلاحظ قبل أن نكمل حديثنا أن هذا محض خيال. حقًا تعد جبال الألب والبرانس

حداً بين إقليم البحر المتوسط وباقى أوروبا، ولكن ليس هناك حدود ذات آثار ملحوظة – مع الأخذ بعين الاعتبار تكنولوچيا النقل والعسكرية لكل فترة تاريخية – فى شمال ووسط أوروبا، من فرنسا إلى ألمانيا إلى روسيا وجنوبًا حتى حوض الدانوب فى البلقان أو، لنكون أكثر دقة: هناك سلاسل جبال منخفضة وبعض المستنقعات، ولكن هناك فى آسيا الأوروبية عناصر طوبوغرافية ثانوية. فى معظم آسيا نجد الحدود أكبر وقد أثر ذلك فى شكل الحد من سهولة الاتصال بصورة كبيرة. على سبيل المثال، تطور الدول البارزة فى بورما وتايلاند وكمبوديا وجاوا كان متعلقًا بنظم الجبال، والتكوين الجزيرى وما شابه؛ ولو كان صحيحاً أن مثل تلك العوامل البيئية هى التى أنتجت "نظام الدول" فى أوروبا، لوجدنا نفس النظام فى مناطق أخرى عديدة، وبخاصة فى جنوب شرق آسيا والصين؛ وإذا لم يكن "نظام" دول، فعلى الأقل دولتان متمايزتان واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب.

السبب الثانى الظاهر وراء ازدهار الإمبراطوريات فى آسيا تم تطويره فى النمو من جديد. يقيم چونز وزنًا لغزوات المغول كسبب لوجود إمبراطوريات آسيا البغيضة. لنفرض جدلاً حقيقة أن معظم دول المناطق اليابسة فى آسيا الأوروبية كانت دول غزو فى فترة تاريخية معينة، حُكمت بواسطة طبقة صفوة حاكمة أجنبية. كان ذلك بطبيعة الحال سيؤدى إلى حالة دائمة من الاستبداد الشرقى: كل ملوك إمبراطوريات المستقبل حكموا بنفس طريقة الغزاة قبلهم مع إبداء قليل من الاهتمام – إن وجد – لاحتياجات مواطنيهم. ولذا "لأسباب نظامية، ربما تكون المؤسسات فى المجتمعات المهزومة قد تصرفت بطريقة دفاعية وأصبحت محافظة مما يقلل فرص الشفاء"[٢٦]. هناك إجابتان مباشرتان. أولاً، بالنسبة لچونز مثل معظم مؤرخى المركزية الأوروبية من المفترض أن الاستبداد الشرقى يعود إلى فترة ما قبل التتار. ثانيًا، من الصعوبة بمكان اعتماد نظرية تدعى أن نظامًا قصير العمر نسبيًا سيكون له آثار سياسية وثقافية تستمر لمئات السنين.

يقول چونز إن "نظام الدول" الأوروبى كان "معجزة" فى حد ذاته (P.105, 108, 124, 125) يبدى چونز إعجابه "بشبكة" الحكومات السياسية المستقلة التى بقيت مستقرة فى مكانها

منذ زمن قديم وحتى الفترة الحديثة بدون انهيارها فى دولة إمبراطورية واحدة أو تشرذمها فى حكومات صغيرة. فى الواقع، لم يكن هناك نظام دول حقيقى قبل العصور الوسطى "والنظام" الحقيقى بالإضافة إلى الاستقرار الحقيقى لمعظم الدول الفردية ظهر فى الفترة الحديثة بعد ١٤٩٢، وكما ينبغى أن نلاحظ، بعد الفترة التى حدثت فيها الأحداث التى وصفها چونز، وجود فترة سوق داخلية متطورة وتجارة مزدهرة، ونمو المدن الصغيرة والطبقة الرأسمالية الأولية. مجادلة چونز تدعى أن نظام الدول وفر البيئة التى سمحت لكل هذه الأشياء بالحدوث. إذاً فالعربة تسبق الحصان.

يبقى أن نذكر فقط واحدة أو اثنتين من الخرافات الثانوية التى يقدمها چونز فى نظريته عن "نظام الدول" الأوروبى المعجز. يصبغ على النظام (مجازاً بالطبع) قُوى معجزة. فى مجادلة تتحدى المنطق: أولاً، يدعى أنه سيكون هناك انتشار أكبر للأفكار وهجرة للعمال المهرة فى نظام الدول المنفصلة أكثر من الإمبراطورية الواحدة التى لا يوجد بها حدود سياسية. وفقًا لچونز، كانت الدول الأوروبية فى العصور الوسطى أكثر ديمقراطية وأقل استبداداً من الآسيوية ولذا لم يضطهدوا المسافرين أو يعيقوا التدفق الحر للأفكار، الأمر الذى يعد ضرورياً للتقدم الاقتصادى والتكنولوچى؛ ولكن السفر فى أوروبا كان فى حقيقة الأمر مقيداً بشدة بسبب الحدود السياسية التى لم توجد داخل الحكومات الإمبراطورية الكبيرة، وقد تعرقل انتشار الأفكار لنفس الأسباب بالإضافة إلى العوائق اللغوية. كذلك لم تكن الدول الأوروبية أكثر ديمقراطية من الآسيوية: يؤكد چونز تلك الأفكار التقليدية دون دليل ولذا فهو يثبت عكس هذه النظرية وليس صحتها.

ثانيًا، يدعى چونز أن تطور نظام الدول الأوروبية تيسر بواسطة الثقافة المشتركة التى يصر أن أوروبا فى كل مراحلها يجب النظر إليها كهيكل ثقافى واحد. كثير من الكتاب الآخرين قدموا هذه النقطة مشيرين إلى قوة المسيحية الموحدة وهيكل الكنيسة كسبب أو أسباب أساسية، مع الانتباه إلى إرث الحكم الرومانى على معظم القارة وهذا ليس محل خلاف. أما محل الخلاف فهو ادعاؤه أن الوحدة المماثلة لم تكن لتوجد فى أجزاء أخرى كثيرة من العالم (يتنازل عن هذه النقطة فى حالة الصين فقط). يريد چونز أن يوضح أن الوحدة الثقافية كانت النقطة المقابلة للتعددية السياسية ("الشبكة")

وهذا ما أنتج، إلى حد ما، نوع الحضارة الذى امتلك كل مزايا الوحدة والتنوع دون عيوبها. عندما نختبر نظرية چونز عن الإمبراطوريات الآسيوية نجد أنه لا علاقة لها بالحجم، بل أن لها علاقة بالمفهوم الخاص بطبيعة السياسة فى المجتمعات غير الأوروبية، هذا ليس أكثر من الفكرة القديمة الضعيفة عن "الاستبداد الشرقى". حقًا يعانى الآسيويون وجميع غير الأوروبيين حكومات كريهة ومستبدة وغير مسؤولة وشريرة ومتقلبة. وحدهم الأوروبيون يفهمون ولذا ينعمون بالحرية. لماذا؟ لأنهم أوروبيون.

أفريقيا البدائية

ينتقل چونز إلى العالم "ما وراء أوروبا" (عنوان الفصل الثامن من" المعجزة الأوروبية") ويعلق بحكمة:

> إن المقارنات لإظهار الاختلافات أو نقاط الاتفاق مع الحضارات الأخرى مهمة لتقييم تقدم أوروبا، أما التخمينات المبنية على غزارة الأدبيات التاريخية الأوروبية فلا يمكن التحكم فيها .... المنهج المقارن يقدم الأمل (الأفضل) لاختبار الدلالة. (P.153)

ولكن ما يقدمه چونز يصعب أن يكون مثالاً على المنهج المقارن، ناهيك عن اختبار الدلالة. فهو فى الأساس سلسلة طويلة وكئيبة لتصريحات سلبية، معظمها خطأ عن المجتمعات فى أفريقيا وآسيا فى أزمنة ولت. "مقارنته" إذًا محاولة لتوضيح كيف أن المناطق غير الأوروبية لم يكن لديها الإمكانيات للتطور قبل استعمارها من قِبل الأوروبيين، وهم فى الحقيقة كانوا يرجعون القهقرى ولا يتقدمون للأمام فى الوقت الذى بدأ فيه الاستعمار. فى الفقرات التالية سأسرد عينة من التأكيدات عن أفريقيا وآسيا نجدها فى "المعجزة الأوروبية" وسوف نوضح خطأها.

تعالج أفريقيا معالجة مختصرة: سرد فى أربع صفحات حول خرافات الحقبة الاستعمارية عن القارة وأفرادها، وقد صُمم لبيان كيف كانت أفريقيا بدائية جدًا لكى يكون لديها أى طاقات كامنة للتطور. يبدأ چونز بخرافة قرب الأفارقة من الطبيعة.

> كيْف الإنسان نفسه مع الطبيعة فى أفريقيا. شعر الصياد أنه جزء من البيئة وليس خارجها ناظرًا إليها فى إعجاب، وبالتأكيد ليس أسمى منها أو متفوقًا عليها. وقد كانت هناك كائنات تأكل اللحوم سعت وراء الإنسان كفريسة. أكثر الرموز إثارة للعواطف فى هذه الوحدة البيئية هم أدلة المناحل... الطيور المعايشة للإنسان. فهى تطير مزقزقة بصوت عالٍ متقدمة جموع من الصيادين تقودهم للأشجار التى بها خلايا النحل البرى، ثم تتغذى على الشمع بعد أن يكسر الإنسان تلك الخلايا. (P.154)

لدينا صورة لقارة من الصيادين البدائيين مع إشارة إلى أنهم أقرب للحيوانات من أى مجموعة بشرية أخرى (ليسوا "أسمى")[٢٧]. الصيادون الأفارقة فى الحقيقة قليلون: نموذج نمطى كلاسيكى.

ثم يسرد چونز بعد ذلك علامات البدائية. لم يكن الأفارقة على علم بالعجلة. (غير صحيح بالمرة). لم يعرفوا المحراث. (غير صحيح بالنسبة لبعض المناطق: وصحيح فى غيرها وذلك لأن تقنيات الزراعة البديلة كانت أكثر إنتاجًا)[٢٨]. "لم يكن لأفريقيا تأثير مباشر على القارات الأخرى، فيما عدا كونها مصدرًا للعبيد" (P.153). استخدم الأفارقة الكثير من نباتات المحاصيل الهامة بعد تعديلها، ويمكن أن يكونوا بالفعل المخترعين المستقلين لأعمال الحديد والصلب. كانت الحضارة الأولى فى صعيد مصر أفريقية. مارس الأفارقة التجارة على قدم المساواة مع غيرهم فى الصحارى والمحيط الهندى. لم تكن القنانة أفريقية صرفة، كان الأثر الأفريقى على غيره من الأقاليم عميقًا ودائمًا). يسلم چونز الآن بإطراء خافت: "لم يكن كل شىء بربريًا. كانت هناك مدن صغيرة فى غرب أفريقيا.... ومن آن لآخر ظهرت الدول الكبيرة" (P.154). (كانت هناك بالفعل مدن كبيرة ودول كبيرة فى أفريقيا فى العصور الوسطى). وبشكل عام، يقول چونز، لم يكن فى أفريقيا "تحالف قوى دائم يمكن أن يقيم جبهة مشتركة ضد العرب أو الأوروبيين النخاسين" (P.154)، أى أن الأفارقة كانوا على درجة كبيرة من البدائية بحيث يكون لديهم قوة دولة كافية لمقاومة العبودية.

(*) أدلة المناحل Honey Guides: طيور ترشد الناس وبعض الحيوانات إلى أوكار النحل البرى. (المترجمة)

(هذا صحيح فى فترة تجارة العبيد الحديثة والاستعمار فى المدة من القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر عندما كان الكثير من المجتمعات غير الأوروبية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا غير قادرة على مواجهة قوة المجتمع الأوروبى المتطور بالفعل. وبوجه عام لم تصل تجارة الرقيق إلى حضارات الداخل).

لماذا كانت أفريقيا متخلفة وبدائية؟ يقول جونز خطأ: علماء الشؤون الأفريقية الذين يواجهون تلك المشكلة يلقون باللوم على البيئة الطبيعية. البعض يقول إن الطبيعة كانت خصبة جداً، والبعض يقول إنها كانت قاسية. يعتقد جونز أنها كانت الاثنتين معاً: جافة جداً فى بعض المناطق ورطبة جداً واستوائية فى غيرها. فى المناطق الأكثر جفافاً لم تكن الزراعة منتجة. (غير صحيح)[٢٩]. وفى المناطق الأكثر أمطاراً "كانت الحياة سهلة" ولكن "كان هناك دائماً موسم جفاف" (موسم الجفاف عامل مساعد وليس عائقاً فى معظم المناطق فى الأقاليم الاستوائية الرطبة)، الزراعة المتنقلة، كما يقول، كانت هى التكييف الأفريقى لتلك الأنواع من التربة وقد دمر هذا النوع من الزراعة البيئة ("لم تعط الأرض الوقت الكافى لتسترد عافيتها" P.154) ولم تكن منتجة. لا شيء من ذلك كله صحيح[٣٠].

ثم نجد تاريخاً مختصراً ومشوهاً للاستقرار والنمو السكانى. "الزنوج" انتشروا بأعداد قليلة فى معظم أفريقيا فى زمن بعيد، ولم يصلوا جنوب أفريقيا حتى استوطنها الأوروبيون. (غير صحيح. كان الأفارقة هناك أولاً)[٣١]. مع عدم توفر الدليل أو المصدر الموثوق به لهذا التصريح، يقول جونز إن تعداد سكان أفريقيا كان صغيراً مقارنة بقارات أخرى فى أزمنة قديمة (غير صحيح)[٣٢]. كانت الموارد فقيرة (غير صحيح). وسائل الانتقال كانت صعبة (غير صحيح). بدد الزعماء الأفارقة مغانمهم على "الكماليات" ولذا لم تغير التجارة المجتمع (هراء).

> يبدو أن أصل ذلك كله يكمن فى فقر خصوبة التربة، عدم الأمان السائد كنتيجة للصراع والإغارة على العبيد.... والبيئة الحارة.... عيوب البيئة [أصابت] الحياة الاقتصادية فى مقتل إذ لم يكن واضحاً إمكانية أى تطورات أهلية. مع كل هذا لم يكن هناك تطور فى الاقتصاد الأفريقى حتى نضعه جنباً إلى جنب مع مثيله فى أوروبا فى العصور الوسطى وما بعدها. (التأكيد مضاف P.156)

لا يمكن أن نأخذ شيئًا من ذلك على محمل الجد، فكله تقريبًا تم إثبات خطئه فى البحث الأكاديمى أو ظهـر أنه خرافات من الحقبة الاستعمارية غير مؤكدة والباقى محض تخمين هش. حقًا، لا يستشهد جونز بأى مصدر ثقة لأى من هذه التصريحات. أعتقد أن التقدم التاريخى فى العصور الوسطى كان مكثفًا ومثمرًا فى أفريقيا مثل القارات الأخرى.

التاريخ الاقتصادى طويل الأمد حدث فى أوراسيا. (P.157)

أى أن: الأفارقة والأمريكيون الأصليون، وشعوب المحيط الهادى لم يلعبوا أى دور مهم فى التاريخ.

آسيا البربرية

لماذا لم تتطور آسيا مثلما فعلت أوروبا؟ يبذل جونز جهدًا كبيرًا فى "المعجزة الأوروبية" ليشرح عدم وجود أى إمكانية لكى تتطور وتتحدث الحضارات الآسيوية. (وكما سنرى فإنه يتراجع عن جزء من موقفه فى "النمو من جديد"). نجد الشرح مفصلاً جداً: إذ يقع فى حوالى ربع عدد صفحات "المعجزة الأوروبية"، ولكننا لا نجد أى جديد به، كله فى قالب آراء الحقبة الاستعمارية الكلاسيكية عن الشرقيين، لذا ينبغى ألا نضع المجادلات عن وجود آسيا فى مرتبة متأخرة تحت المجهر وبنفس الطريقة المنظمة التى قيمنا على أساسها مجادلات التفوق الأوروبى. بدلاً من ذلك سأنظر إلى أنواع الشرح المختلفة معطيًا أمثلة كلما تقدمنا.

يفسر جونز ضعة شأن آسيا من خلال نوعين أساسيين أو تصنيفين لأوجه النقص:

(١) نقص نفسى يتكون من اللاعقلانية فى أمور الحيوية الفكرية والقدرة على الابتكار، ممزوجة مع نوع من الفشل الأخلاقى فى تصرفات متعلقة بالرغبة فى التقدم ومقاومة الهيمنة وإرادة السمو على المتع الحيوانية وما شابه.

(٢) بيئة طبيعية فى مرتبة ثانية، أو على نحو أكثر دقة، بيئة لا تساعد على التقدم الاقتصادى والنمو. آثار تلك النواقص (أو الأقل منها) وبالتالى الأسباب المؤثرة فى عدم تقدمها وتطورها هى:

(١) نمو سكانى خارج عن السيطرة.

(٢) حكومة سيئة. وسوف أقوم بتلخيص كل من هاتين المجادلتين على التوالى.

نبدأ بتأكيدات چونز عن العقل الآسيوى، وهى تلك التى تبدو غريبة إلى حد ما؛ ولكنها تبدو فى الجزء الأغلب منها مأخوذة من قاموس أفكار أوروبية تقليدية فى الحقبة الاستعمارية عن الآسيويين. لا يوجد دليل حقيقى أو سلطة أكاديمية تدعم هذه التأكيدات ولا يمكن أن يكون هناك، فهى بحق على درجة من الغرابة بمكان بحيث لا يوجد مجال للتعليق. قائمة بسيطة تكفى.

لا يفكر الشرقيون بأسلوب منطقى. هناك "غياب نسبى للبحث الإمبيريقى والنقد للتقليد المسيحى - اليهودى - اليونانى" (P.161) و"نقص المناظرة النقدية" (و هو ما قد يفسر "فشل" العلم الآسيوى). "ربما يبدو مفهوم الأغلبية فى فهم الطبيعة عبثيًا" (P.162)، أى من الجائز أن الآسيويين لم يكن لديهم مفهوم التحقق العلمى. اتجهوا لأن يكونوا غير خلاقين: "قمعت المؤسسات الآسيوية [المستبدة] الإبداع أو وجهته لإنتاج الكماليات الحسية" (P.231)(٣٣).

للشرقيين (أو كان لديهم) سلوكيات متنوعة وقيم من الواضح أنها تعيق التقدم. "[تركز] الفلسفات الشرقية على المشاعر والقيم ودراسة أصل الكون وذلك على حساب الفكر الإمبيريقى (P.161). الشرقيون كسالى. لديهم "حب للرفاهة" (P.170) ويحبون شراء الأشياء التافهة والمنشطات الجنسية والأفيون وريش طائر الرفراف.... والأحجار الثمينة.... وعقاقير لا تعرفها دساتير الصيدلة الحديثة" (P.164). لديهم "روح ذليلة" (اقتباس من مونتسكيو Montesquieu)، افتقدت جيوشهم الضباط "الأشداء" (P.167)، هم خانون ولبيون و "وبفطرتهم لا يقاومون الأوتوقراطية" (إشارة واضحة إلى المسلمين وبصورة ضمنية إلى الآسيويين بوجه عام) (P.182, 176). "كقاعدة هم منغلقون على أنفسهم،

ينظرون داخلهم فقط، كما أنها مجتمعات جامدة تمر بتجارب لافتة للنظر" (P.170). يميلون "للعزلة" التى فرضوها على أنفسهم (P.170)، ويفتقدون الباعث للاستكشافات (P.168, 177, 203, 231). يميلون للحرب التى لا طائل من ورائها (P.169, 196, 201). ليس لديهم نظام قانونى مكتوب (P.164, 188, 197). ليس لديهم مفهوم عن الحدود السياسية (P.167, 194). هناك الكثير من اللصوصية والقرصنة (P.189, 199, 209, 229-230). كان المجتمع الإسلامى لوقت ما مبدعًا يستعير التكنولوچيا من غيره من المجتمعات ولكن هذا توقف. قضت الإمبراطورية العثمانية على كل فكر جديد. أنتجت الهوس والتخلف الفكرى والتقهقر "غشاوة من الفكر الظلامى" (P.183). لم يعرف العثمانيون "الحقائق الأولية فى الجغرافيا" (P.184). ولم يستطيعوا عمل خرائط جيدة (P.179)[٣٤]. كان الحكام العثمانيون "منحلين" ومدمنى خمور ولديهم قصور عقلى و"ماجنين" يحكمون باستبداد ورعب (P.186, 187)، ولأن "فلسفتهم" هى السرقة والسلب لم يكن هناك "درع قانونى واق" (P.187, 189).

كان المجتمع الهندى مجتمعًا "متجمدًا" اجتماعيًا ونفسيًا (P.192)، بقيمه الضارة بالتقدم الاقتصادى. استُحضر الدين لمعاقبة كل الأفعال ولكن نصيحة المرشدين الدينيين كانت "مؤذية وعشوائية" (P.195)، حكام المغول (مثل العثمانيين) كانوا منحلين، يحكمون المجتمع لمصلحتهم، ميالون "للأنانية الحسية" (P.196)، الحريم والجواهر ومعارض الحيوانات والمؤامرات والخيانة. كانت الدولة مفترسة. كانت التكنولوچيا "راكدة تقريبًا"، حتى لم تكن تقلد الخارج (P.199). هنا، مرة أخرى، لم يوجد قانون: "لم يوجد دستور قانونى مكتوب" (P.197). (هذا التصريح الأخير ليس خطأ فقط – إذ أن تاريخ القانون الهندى المكتوب يعود إلى آلاف السنين – ولكن مع العلم بأن چونز مؤرخ فإن جهله بالحقيقة التاريخية واضح). السلوك الديموغرافى كان لاعقلانيًا: "نجد نفس الحسابات وراء الاستراتيچية الديموغرافية البشرية وتوقير البقرة" (P.19). كانت الصين مبتكرة ومبدعة تكنولوچيًا إلى حد ما حتى العصور الوسطى عندما توقف التقدم. ثم حدث "التراجع" بعد ذلك (P.203)؛ كانت المخترعات الميكانيكية تفكك، ذهبت بعض المهارات فى طى النسيان. أصبح الصينى "ينظر داخله" (P.203, 216, 220).

"وتراجعت" الصين عن ركب التكنولوچيا والتجارة، والاستكشاف (P.203). توقف التطور التكنولوچي حتى في الزراعة، تمكن القطع الأهوج للغابات التي لا يمكن تعويضها، والوصول السعيد لمحاصيل العالم الجديد مثل الذرة والبطاطس وزراعة أرض جديدة فقط من إنقاذ الصين مؤقتًا من الكارثة. (ولكن بالنسبة للأوروبيين، كانت زراعة الأرض الجديدة تقدمية: "توفر أرض خارج أوروبا كان صمام أمان ضروريًا"، (P.108). كان قطع الغابات "أحد أعمال البشرية التي تدل على الغباء البيئي"، هذا الغباء الذي أدى إلى "تعرية التربة، الحفر وكثرة الغرين أو الطمي والفيضانات" (P.213). مال الفلاحون "للحقد والشك" (P.206)، وكانوا أغبياء كمزارعين (P.212, 217). وكذلك في تفضيل "التناسل لأقصى درجة" على "سعة العيش" (P.218). كانت الدولة "مستبدة" (P.159, 166, 206, 210, 211, 221, 222, 231)، "مضخة للعائدات" للحكام ولا توفر أي خدمات (P.206). كان هناك حب للرفاهة، سلوك "التفوق الثقافي الأجوف" (P.205)، طبقة حاكمة فاسدة، مرتشية، طفيلية لديها ميول استعراضية للهيمنة الأخلاقية (P.209, 210) لتقتل وتعذب (P.207). كان للصينيين "عادات غير اجتماعية" (P.7) ومرضى.

يستحضر چونز العوامل البيئية في محاولته لتفسير افتقار آسيا (المزعوم) للقدرة على التقدم على مر التاريخ. بعض تأكيداته في هذا الشأن نوقش من قبل: اعتقاده بسوء البيئة الاستوائية الرطبة ومفاهيمه الخاطئة عن الحاجة للري في الأرض الآسيوية، فكرته الخاطئة أن آسيا منكوبة بالكوارث الطبيعية وما شابه. والآن نضيف تأكيدات أخرى، ليس بينها ما هو صحيح.

آسيا في معظمها كما يقول چونز مكونة من أراض منخفضة كبيرة وهذا التكوين ينزع بالدول لتكوين إمبراطوريات كبيرة مثل الصين (تُحلل الصين طبوغرافيًا مثل أوروبا). في جنوب شرق آسيا المناطق المركزية خصبة ولكنها منفصلة عن بعضها البعض وهذا ينتج "ضعفًا سياسيًا" (P.166). لا يلاحظ چونز أن هذه الأطروحة تتعارض مع نظريته عن المناطق المركزية الأوروبية والشبكة الرائعة من الدول متوسطة الحجم التي تكونت حولها. يظهر تناقض آخر عندما يؤكد چونز أن الهند، واحدة من "إمبراطورياته" تفرقت في أقاليم منعزلة "مفصولة بأحزمة واسعة من الصحراء، الهضاب والأدغال" ونتيجة لذلك

"تشرزمت الدولة" (P.194). (كيف إذًا يمكن وصفها بالدولة الإمبراطورية؟ هذا لا يتفق مع ذاك. على أية حال، الجغرافيا هنا خطأ: الهند ليست مقسمة بهذا الشكل). آسيا لديها موارد صيد فقيرة. (غير صحيح). نزعت احتياطات الأرض الداخلية الكبيرة فى الصين للتطور الشامل وثبطت التكثيف التكنولوچى. (غير صحيح). هذا الحد الداخلى يفسر أيضاً "لماذا استطاعت الصين البقاء وحدة واحدة وفى نفس الوقت تستمر تنظر داخليًا" (P.220). (لا منطق هنا). يجب أن نقول على الرغم من ذلك أن حتمية چونز البيئية ترتكز على نواقص آسيا المزعومة، بصورة أقل من منح أوروبا الرائعة المفترضة أيضاً والتى ناقشناها بتفصيل كاف.

لا نحتاج لأن نقول أكثر عن مجادلة مالثوس التى استخدمها چونز كإحدى ركائز شرحه لافتقاد آسيا المزعوم للتقدم. وكما رأينا فإن المجادلة الأساسية هى "لاعقلانية الآسيويين". لا يخطط الآسيويون لسلوكهم التناسلى. فى الصين "تحولت طاقات الفلاحين من الاستهلاك المرتفع، أو حتى التمرد، إلى الاستقرار فى أرض جديده وإنجاب أفراد جدد" (P.219)، وباختصار، فإن الآسيويين يجمعون الأطفال بدلاً من رأس المال. كله خطأ. بعضه نظرية باطلة: فالنمو السكانى المرتفع لا يقدم سوى تفسيرات قليلة فى التاريخ الآسيوى، ولم يكن فى الحقيقة موجوداً فى معظم الأقاليم والحقب، وهذا يعود فى جزء منه إلى جهل بالأدلة المتوفرة: لقد تحكم الآسيويون فى سلوكهم الديمغرافى بأسلوب رشيد مثل الأوروبيين، واستخدموا وسائل تنظيم النسل لآلاف السنين؛ وأخيراً، من الغريب جداً القول بأن "التزاوج كان مفضلاً على البضائع" فى آسيا.

النمو من جديد

تم تعديل المجادلة فى "المعجزة الأوروبية" واتزنت نبرتها فى "النمو من جديد". أشرنا إلى بعض التغييرات فى الفقرات السابقة ويبقى أن نلخص المواقف الأساسية التى يتخذها چونز فى كتابه اللاحق.

جادل "المعجزة الأوروبية" من موقف حتمي: لم يكن باستطاعة آسيا وأفريقيا أن تتطور مثل أوروبا. فى أفريقيا "إمكانيات التطور الأهلية ليست واضحة" (P.156). فى آسيا "كان لا يمكن للتطور أن يكون أكثر من معجز" (P.238) يتراجع "النمو من جديد" عن هذا الموقف المتطرف. فى الكتاب السابق صرح چونز بنظريته الأساسية عن التغير الاقتصادى والتطور: البشر يتغيرون ويتطورون لو لم يكن هناك موانع خارجية على أجسادهم وعقولهم تمنعهم من ذلك. ولكن المجادلة حجبت فى "المعجزة الأوروبية" بسبب غزارة التصريحات التى تحط من قدر غير الأوروبيين، ويبدو فعلاً أن چونز يقول إن غير الأوروبيين يفتقرون كأفراد للصفات اللازمة للتقدم الاقتصادى.

الكتاب اللاحق يطور المجادلة النظرية الأساسية بصورة أكبر ويعدلها بطرق هامة. أولاً، لم تعد التصريحات الازدرائية تشير إلى الآسيويين والأفارقة بشكل عام، فهى فى الأساس موجهة إلى الصفوة السياسية غير الأوروبية، التى يعتبر چونز تصرفاتها وسلوكياتها مسؤولة جزئيًا عن عدم تقدمهم؛ ثم إلى الفلاحين غير الأوروبيين بصورة ثانوية، الذين يعتقد أنهم افتقدوا القدرة التى امتلكها الأوروبيون فى التحكم فى سلوكهم الإنجابى وبذلك كانوا مسؤولين جزئيًا عن عدم التطور. يقوم چونز الآن بمجهود خطير ولكنه غير ناجح، لشرح تلك العلل فى ضوء الموانع الخارجة عن العناصر الفردية. ربما كان الحكام الآسيويون مستبدين لأنهم كانوا ورثة الغزاة التتار. لقد أوضحت سابقًا أن تلك المجادلة تخالف المنطق لأن الاستبداد من المفترض أن يعود تاريخيًا إلى ما قبل زمن المغول ولأننا لا يمكن أن نلوم الغارات المغولية عن سياسات حدثت بعدها بمئات السنين. ربما كان للفلاحين أطفال كثر كاستجابة عقلانية للكوارث الطبيعية ونهب حكامهم، ولكن، مرة أخرى، المنطق هنا خاطئ والدليل مفقود: لم تكن الكوارث الطبيعية شائعة وربما لم يكن لها تأثير كبير على الأفراد فى أوروبا أكثر من غيرها. كما نعلم أنه فى معظم الأوقات والأماكن لم يقهر الحكام الفلاحين للدرجة التى لا يتمكنون فيها من الاحتفاظ بإنتاج كاف لاحتياجاتهم الأساسية. هنا تُستحضر البيئة الطبيعية مرة أخرى ولكن كنوع من الحاجز العام وبدون تفسير.

ربما تكون أكثر المراجعات أهمية فى "النمو من جديد" هى التخلى عن فكرة أن الأوروبيين وحدهم تفوقوا فى حقب ما قبل الحداثة، ولكن مرة أخرى التحسين محدود. يبدو چونز وكأنه يلاحق معتقدين أصبحوا تقليديين: كانت الصين إبان فترة سونج متقدمة لوقت ما، وكان لدى اليابان على الأقل إمكانيات للتطور فى فترة ما. فيما عدا هذين الاستثناءين لقاعدة عدم تطور غير الأوروبيين، لا يقدم چونز أى تفسير مقنع. ولكنها خطوة هامة لقبول الافتراض بأنه تحت ظروف معينة - حتى لو لم تشرح هذه الظروف - لم يكن التطور حكرًا على الأوروبيين.

النتيجة التى يصل إليها چونز فى "النمو من جديد" هى حدوث بعض التقدم فى آسيا (وليس فى أفريقيا)[٢٥]. ولكنه كان نوعًا محدودًا من التقدم يصفه بأنه "نمو شامل". وهو ما يعنى أن التقدم الاقتصادى والتكنولوچى نما بالدرجة التى مكنت من التوازن مع النمو السكانى - ولذا لم يوجد تغيير حقيقى وسباق خيل مالثوسى. ما يطلق عليه چونز (النمو المكثف) هو التقدم الحقيقى والتغير الأساسى. حدث هذا فى أوروبا فقط وفى اليابان وفى زمن بعيد فى الصين أثناء حكم سونج.

لا أرى أننا نكتسب تنويرًا أكثر باستخدام المصطلحين (النمو الشامل، والنمو المكثف) وعلى الرغم من ذلك فإن مفهوم (النمو الشامل) يمثل خطوة للأمام فى فكر چونز: حتى بلوغ (النمو الشامل) يوضح أن البشر بطبيعتهم يكافحون من أجل التقدم الاقتصادى ويبلغونه إلى درجة ما على الأقل. فالموانع ليست غير قابلة للاختراق مطلقًا.

الهـــوامـــش

(١) انظر Rostow, The Stages of Economic Growth (1960); Black, The Dynamics of Modernization: A Study in Comparative History (1966).

(٢) Rostow, The Stages of Economic Growth (1960); Black, The Dynamics of Modernization: A Study in Comparative History (1966).

(٣) على سبيل المثال، عقد فى ١٩٨٥ مؤتمر بعنوان "المعجزة الأوروبيـة" فى جامعة كامبريدج، وبدون توجيه النقد لچونز أكد المساهمون على مجادلته الأساسية حول تفوق أوروبا التاريخى ولكن مع تأكيد على الأسباب الفكرية والثقافية وليس الأسباب البيئية والاقتصادية (كما فعل چونز). انظر جزء المناقشات Baechler, Hall, and Mann, eds., Europe and the Rise of Capitalism (1988).

(٤) تشير أرقام الصفحات بين الأقواس إلى صفحات فى المعجزة الأوروبية.

(٥) ولكن چونز لا يعترف بأن التأكيدات فى "المعجزة الأوروبية" كانت خطأ، فهو يقدم نظرية متناقضة تاركًا الانطباع فى بعض الحالات بأنها تمثل اتجاهًا أكاديميًا جديدًا "الرأى الناشئ فى الأدبيات الأكاديمية هو..." (P.135)؛ أو نجده يعيد تقديم النظرية الأساسية وكأنها تأمل يبرره غياب الدليل المضاد: "مع التسليم بندرة وغموض شكل الدليل التاريخى فى معظمه، فمن الصعوبة بمكان دعم أى فكرة بعينها" (P.120)، "المشكلة... تبقى معنا بسبب عدم القدرة على تقصى المصادر كما أنه لم يتم القيام بالبحث الضرورى" (P.142). أو أنه يحصر: "الاحتمالية قوية بناء على ما نعرفه..." (P.150)، "الصور الواضحة مضللة، لكن..." (P.131) وهكذا.

(٦) يدعى چونز أيضًا أن الناس العاديين كانوا أكثر ثراءً فى بدايات أوروبا منهم فى بدايات آسيا وأن الدخل كان يوزع بالتساوى فى أوروبا. لا يوجد أدلة تدعم هذه التأكيدات، وهى خطأ. انظر Frank, ReORIENT (1998); Twitchett and Mote, The Ming Dynasty (1998); Subrahmanyam, Merchants, Markets, and the State in Early Modern India (1990) Pomeranz; The Great Divergence: China, Europe, and the Making of the Modern World Economy (2000); Wong, "Political Economies of Agrarian and Merchant Empires Compared: Miracles, Myths, Problems, Prospects" (1999); Goldstone, "Colonizing History: The West Is Best Can't Pass the Test" (1999).

(٧) انظر على سبيل المثال Collins and Roberts, The Capacity for Work in the Tropics (1988).

(٨) Giblin, 'Trypanosomiasis Control in African History: An Evaded Issue?" (1990); Turshen, "Population Growth and the Deterioration of Health: Mainland Tanzania, 1920-1960" (1987); Porter and Sheppard, A World of Difference: Society, Nature, Development (1998).

(٩) Harrison, "The Curse of the Tropics" (1979).

(١٠) Russell, Man, Nature and Society (1967).

(١١) لاحظ هذا التعليق من قبل بيرتون شتاين Burton Stein: "في أى وقت في تاريخ جنوب الهند وحتى القرن التاسع عشر، لا يوجد دليل بأن اختراع أعمال الرى والمحافظة عليها كان شيئًا غير المسئولية المحلية" ("South India: Some General Considerations of the Region and Its Early History," 1982).

(١٢) Taeuber, "The Families of Chinese Farmers" (1970), pp. 63-86; Hilton, "Individualism and the English Peasantry" (1980); Kertzer, "The Joint Family Household Revisited: Demographic Constraints and Household Complexity in the European Past" (1989); Berkner, "The Use and Misuse of Census Data for the Historical Analysis of Family Structures" (1975); S. Guha, "Household Size and Household Structure in Western India c.1700-1950: Beginning an Exploration" (1998). G. Lee, in "Comparative Perspectives" (1987), p. 65، يوضح أن [العديد] من الباحثين يؤكدون أن أغلبية العائلات في أى مجتمع دائمًا ما كانت نووية، بغض النظر عن العناصر الثقافية التى تفضل الأسر الممتدة" أيضًا انظر كذلك Goody, The East in the West (1996).

(١٣) يوضح F. Hassan أن "ممارسة تنظيم النسل بشكل أو آخر أمر عالمي" "Demographic Archeology" (1978), p. 71.، أيضًا كذلك Nag, "How Modernization Can Also Increase Fertility" (1980); Pomeranz, "From 'Early Modern' to 'Modern' and Back Again: Levels, Trends, and Economic Transformation in 18th-19th Century Eurasia" (1999a).

(١٤) يدعى جونز، على سبيل المثال، أن المنزل الريفى الحقيقى والمدخنة اختراعان أوروبيان في العصور الوسطى مع عدم إعطاء أى دليل على ذلك. ومثل لين وايت (الفصل الثالث) يعزو نتائج رائعة لتلك الاختراعات: "مناخ صغير متحكم فيه" واحترام "المساحة الفردية" و"معدلات وفيات منخفضة في المواليد" وأكثر من ذلك.

(١٥) كذلك فإن مصادر هذه التقنيات غير واضحة في معظم الأمثلة. التعديلات والاكتشافات المستقلة في أوروبا يجب أن تؤخذ في الاعتبار. "عندما ينظر إلى الاختراعات عن قرب نجد أنها ليست أحداثًا فردية... ولكن تراكمات وتعديلات... يمكن للمجتمع الأوروبي أن ينتج الجديد كما كانت له قدرة فائقة على الاستعارة" (P.57).

(١٦) Needham, Gunpowder as the Fourth Estate East ami West (1985).

(١٧) انظر Needham, Science ami Civilization in China, Vol. 4, Part 2: Physics ami Physical Technology: Mechanical Engineering(1965) on Chinese clocks and mechanical engineering.

(١٨) انظر على سبيل المثال Hucker, "Ming Government" (1998); Goody, The East in the West (1996); Frank, ReORIENT; Perlin, The Invisible City: Monetary, Administrative and Popular Infrastructures in Asia ami Europe, 1500-1900 (1993); Arasaratnam, Maritime India in the Seventeenth Century (1996); Heijdra, "The Socioeconomic Development of Rural China During the Ming" (1998); Rowe, Hankow: Commerce and Society in a Chinese City, 1769-1889 (1984); Marks, Tigers, Rice, Silk, ami Silt: Environment ami Economy in Late Imperial South China (1998); Yang Lien-sheng, "Government Control of Urban Merchants in Traditional China" (1970); S. Mann, Local Merchants ami the Chinese Bureaucracy, 1750-1950 (1987); Abu-Lughod, Before European Hegemony: The World System .-A.D. 1250-1350 (1989).

(١٩) Pires, The Surna Oriental (1944), pp. 41-42.

(٢٠) انظر: The Colonizer's Model, Volume 1.

(٢١) Pires, The Surna Oriental (1944), pp. 41-42.

(٢٢) انظر: Pires, The Surna Oriental (1944), pp. 41-42.

(٢٣) انظر على سبيل المثال Kumar, "Private Property in Asia"; Abu-Lughod, Before European Hegemony (1989); Hucker, "Ming Government"; Frank, ReORIENT.

(٢٤) بالنسبة للهند القديمة انظر على سبيل المثال Mukerji, The Republican Tremd in Ancient India (1969); وبالنسبة للمغرب فى أوائل فترة الحداثة انظر Abun Nasr, A History of the Maghrib (1975),p.218.

(٢٥) Jones, Growth Recurring: Economic Change in World History (1988), p. 127.

(٢٦) Jones, Growth Recurring, p. 8. ولكن المجادلة مقيدة: "على مقياس زمنى لمدة قرن أو ما يقرب [بعد نهاية فترة حكم الموجل] تعافى الاقتصاد.... هذا يكفى لإلقاء الشك على الانطباع بأن حتى أكثر جماعات الغزاة تدميراً يمكن لومهم على فترة طويلة من الابتعاد عن فرص النمو [الاقتصادية والمكثفة] التى كان يمكن أن تكون" (P.111).

(٢٧) يجب أن نلاحظ أن التعايش مصطلح بيولوجى يشير إلى شكل من التبادل الذى يمكن أن يوجد بين، أو فيما بين، الأنواع الحيوانية، لم أره مسبقًا مطبقًا على البشر.

(٢٨) انظر على سبيل المثال Hopkins, An Economic History of West Africa (1973), pp. 36-37.

(٢٩) هنا مثال آخر على جهل چونز بالجغرافيا، العلم الذى يدعى أن موقفه يرتكز عليه. فى المناطق الأكثر جفافًا، كما يقول فإن "التربة قديمة وفقيرة، بعد أن استنزفت إلى خط الفقر" (P.154) والحقيقة أن الارتشاح أو الاستنزاف أمر ليس ذا بال بالنسبة للتربة فى المناطق الأكثر جفافًا. بعض التربة الأفريقية فقيرة وبعضها غنى وبعضها قديم وبعضها جديد.

(٣٠) الزراعة المتنقلة أو دورات الغابة – البوار –، حرق الغابة ثم زراعتها ثم فترات طويلة من البوار تنمو خلالها الغابة من جديد، لا تؤدى إلى التأثير سلبًا على البيئة مثلما يدعى چونز. فهو يسلم أن الزراعة المتنقلة كانت "جيدة" عندما كانت الكثافة السكانية منخفضة بالرغم من أنها حتى هنا لم تكن "منتجة" و"لم تكن الأرض تُعطى الوقت الكافى لترتاح" (P.154). هذه خرافة استعمارية قديمة أخرى صممت لتوضيح لاعقلانية ممارسات السكان الأصليين انظر Blaut, "The Nature and Effects of Shifting Agriculture" (1962) and "The Ecology of Tropical Farming Systems" (1963); Nye and Greenland, The Soil Under Shifting Agriculture (1960).

(٣١) كانت تلك إحدى الخرافات الهامة فى الاضطهاد العنصرى (apartheid): البيض ليسوا ملزمين برد الأرض للأفارقة وذلك لأنهم (البيض) وصلوا لجنوب أفريقيا قبل شعب "البانتو". هذا خطأ تمامًا. يقدمه چونز، وواضح أنه يريد أن يبين أن الأفارقة كانوا متأخرين لدرجة أنهم لم يكتشفوا أفريقيا كلها قبل مجيء البيض (انظر الفصل الثامن).

(٣٢) يذكر چونز أرقامًا غريبة لتعداد السكان فى أفريقيا قديمًا لبيان أن تعداد السكان كان منخفضًا بالمقارنة بالعالم. لا يستشهد بأى دليل. يؤكد أن تعداد أفريقيا كان ٣٠٪ من تعداد العالم فى ١٠,٠٠٠ ق.م. ولكننا لا نعرف شيئًا عن عدد السكان فى ١٠,٠٠٠ ق.م. بعد ذلك يقول إنه "فى ٥٠٠ بعد الميلاد كان أقل من تعداد سكان العالم بنسبة ١٠٪ واستمر ألف سنة كذلك بعد هذا التاريخ، مع ١٨٠٠ تقلصت تلك النسبة إلى ٨٪ (P.155). مرة أخرى: لا يوجد لدينا أية أرقام دقيقة لتعداد السكان فى ٥٠٠ بعد الميلاد. وفقًا لـC. Clark (1977) كان يوجد فى أفريقيا ٢٠٪ من سكان العالم (١٨٪ وفقًا لـBennett، ١٩٥٤) وليس ١٠٪، وفى ١٨٠٠ كان تعداد أفريقيا منخفضًا (١٢٪ من مجموع سكان العالم) – بسبب لصوصية تجارة العبيد.

(٣٣) يوجد القليل من تلك اللغة فى "النمو من جديد"، ولكن تظل النظرية "تبدو الصين وكأنها لم تنتج أى منهج تجريبى من النوع الذى يمكن أن يؤدى إلى تكنولوچيا أفضل" (P.75).

(٣٤) كجغرافى، أشعر حقيقة بالحزن لهذه المغالطة.

(٣٥) "يمكن لنا ... أن نعترف بتعاطف حذر مع رأى تريڤر- روپر Trevor- Roper وهو أن المهمة الأساسية للتاريخ الأفريقى هى تقديم وجه الماضى الذى هرب منه" (Jones, Growth Recurring, p.90).

الفصل السادس

مايكل مان

مسيرة التاريخ

يؤكد مايكل مان فى مقالة بعنوان "التطور الأوروبى: الاقتراب من تفسير تاريخى" حدوث "معجزة" بصورة "تلقائية" فى أوروبا فى الزمن القديم وفى العصور الوسطى.

وهو يعارض الفكرة التى يطلق عليها "تشويه الذات الأوروبية" فى أسلوب المؤرخين الذين يعتقدون أن أوروبا لم تكن أكثر تفوقًا على الحضارات الأخرى قبل أواخر العصور الوسطى[1]. وعلى وجه التحديد يوجه النقد لجوزيف نيدهام Joseph Needham المؤرخ العظيم فى التكنولوچيا والعلم الصينى، الذى يجادل أن الصين كانت على قدم المساواة مع أوروبا حتى ١٤٥٠ على الأقل. قدم مان المجادلة فى كتابه الذى نوقش بصورة واسعة وهو "مصادر القوة الاجتماعية، الجزء الأول: تاريخ القوة من البداية حتى بعد الميلاد ١٧٦٠"؛ ثم نجده يجادل كذلك فى مقالة متأخرة بعنوان "التطور الأوروبى" أن أوروبا كانت دومًا متفوقة فى مناحى لا يمكن حصرها: وظهر تميزها هذا فيما قبل التاريخ، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أصبح هذا التميز مؤكدًا مع ظهور صفات ثقافية متميزة جديدة فى مراحل تالية وحتى وقتنا الحاضر[2]. يرى مان أن فكرة "تشويه الذات الأوروبية" لمؤرخين مثل نيدهام أتت من فشلهم فى رؤية أن ما امتلكته الحضارات الآسيوية لم يكن أفضل، بل كان ببساطة أكبر، أو كما يعبر عنها مان بأن تطور الآسيويين كان "شاملاً" بينما كان تطور الأوروبيين "مكثفًا". ولذا،

كانت الإمبراطوريات الآسيوية أثناء العصور الوسطى شاسعة مترامية الأطراف، ولم يكن لثرواتهم مثيل فى أوروبا، وكانت مدنهم أكبر ولذا يعد ذلك أمرًا شاملاً. وماذا تعنى صفة "مكثفًا" فى هذا السياق؟ تعنى: أفضل.

المقدمة

تتمتع مجادلة مان بصفة جغرافية مميزة، فهو يعتقد أن التميز الثقافى مضى فى مسار ثابت باتجاه الشمال الغربى من الشرق الأوسط لليونان لشرق أوروبا فى طريق يذكرنا بقطار الشرق الذى يسافر على قضبان متجهة غربًا. يمكن أن نطلق عليه قطار الغرب السريع.

> على مدار آلاف السنين كان هناك اندفاع "لمقدمة" القوة فى المنطقة الثقافية فى الشرق الأدنى/المتوسط/أوروبا باتجاه الغرب والشمال.
> (P. 17)

تعنى "القوة" هنا مستوى الحضارة كما يظهر فى إنجازات ثقافية عديدة منها الإنتاج التكنولوجى والاقتصادى والقوة العسكرية، ودقة التنظيم الاجتماعى والسياسى[٣]، ويعتقد مان أن "مقدمة" كل ذلك سارت بقوة باتجاه الشمال الغربى (أو الغرب – الشمال الغربى). وهو ما حدث، كما يقول، للأسباب الجغرافية الكلية الآتية:

يبدأ مان من حيث بدأ إيريك جونز فى كتابه "المعجزة الأوروبية" بالتمييز بين الزراعة القائمة على الرى فى بلاد ما بين النهرين والزراعة فى أوروبا المعتمدة على مياه الأمطار. يعتقد مان أن بلاد ما بين النهرين والحضارات الأخرى من هذا النوع بما فيها مصر قيدت فى مصيدة عدم التطور وذلك بسبب متلازمة الاستبداد الشرقى الكلاسيكية، نزولاً من طبيعة الزراعة القائمة على الرى[٤] (لقد ناقشنا نظرية الاستبداد الشرقى فى الفصلين الثانى والخامس). كانت المجتمعات البسيطة، ولكن التقدمية، التى يسميها مان "فلاحو العصر الحديدى" فى أوروبا متميزة عن تلك الحضارات.

فهو يجادل أن الزراعة المعتمدة على الأمطار بالإضافة إلى وجود المحراث الحديدى أنتجا مجتمعًا حرًا ونشطًا وفرديًا وشعبًا زراعيًا ذا عقلية تجارية هو الجذر الحقيقى للقدرة الأوروبية على التقدم. الشعوب اليونانية التى تحدثت الإندوأوروبية والشعوب الجيرمانية التى اكتسبت عناصر الحضارة من الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط – وبعد ذلك من الإمبراطورية الرومانية – ولأنها تعيقها الاستبدادية الشرقية وما شابه، تمكنت من المضى قدمًا باتجاه الحداثة. هنا يعبر مان عن النظرية فى فصل عن مصادر القوة الاجتماعية بعنوان "الإندوأوروبيون والحديد: توسيع شبكات القوة المتنوعة".

> كان رخص ثمن الحديد يعنى... تنشيط الزراعة [المستقرة] المروية بالأمطار وغير المعتمدة على الرى الصناعى وتطور المزارع الفلاح كقوة اجتماعية واقتصادية. وتحول ميزان القوة من الرعى والزراعة المعتمدة على الرى إلى الفلاحين فى الأرض المعتمدة على الأمطار... من الأرستقراطيين للفلاحين... وباستخدام مصطلحات جغرافية سياسية تحول النمو الاقتصادى بغير توازن باتجاه الأرض الأخف المروية بالأمطار فى الأناضول Anatolia(*) وآشور Assyria(**) وجنوب شرق أوروبا وشمال المتوسط؛ وقد طور هذا الإقليم اقتصاد ارتبط فيه بيت الفلاح مباشرة... بالتبادل... التخصص، وكان هذا تنشيطًا للملكية الفردية الصغيرة وديمقراطية ولا مركزية القوة الاقتصادية[٥].

إن التركيب فى مجمله خاطئ (معظمه من ماكس ڤيبر)[٦]. فقد كانت المحاريث الجديدة تستخدم فى آسيا "وأوروبا فى العصر الحديدى" وربما قبلها، لذا فالنتائج لم تكن مميزة "للعصر الحديدى الأوروبى"[٧]. كانت الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار هامة فى معظم الحضارات القديمة (فى الهند، بلاد فارس على سبيل المثال) ومهيمنة فى بعض الأقاليم (فى شمال الصين والأناضول على سبيل المثال) وغير هامة فى

(*) Anatolia: شبه جزيرة كبيرة تتكون من جزء كبير من تركيا الأسيوية (آسيا الصغرى). (المترجمة)
(**) Assyria: آشور إمبراطورية قديمة فى غرب آسيا. (المترجمة)

حضارات قليلة فقط (على وجه الخصوص فى مصر حيث قلة سقوط الأمطار)؛ كان الرى مستخدمًا فى بعض مناطق جنوب شرق أوروبا فى الألفية الأولى قبل الميلاد؛ إذًا نموذج مان للمُزارع القوى المستقل الذى لا يعتمد على أى مركز قوة للمياه التى تحتاجها محاصيله، ولذا يمكن أن يكون هو الديمقراطى الأول صاحب المشاريع، هذا النموذج الذى يجب تطبيقه على معظم نصف الكرة الأرضية الشرقى، هذا إذا طبقناه فى أى مكان، هو نموذج غير صحيح لعدم توفر الأدلة. إن فكرة ظهور مجتمع من نوع المزارعين صغار الملاك المستقلين بتفرد فى أوروبا هى ببساطة خرافة والمجادلات المستمدة من الجغرافيا - وسقوط الأمطار وتكنولوچيا الحديد، وغيرها - ليست علمًا سليمًا.

يجب أن نلاحظ بعض الإشكاليات الإضافية مع هذه النظرية. أولاً، نموذج المجتمع التقدمى ألصقه مان "بالإندوأوروبيين" مستخدمًا نظرية عن دور "الإندوأوروبيين" أو "الآريين" فى التاريخ، وهى الآن محل خلاف بسبب الأدلة وبسبب أن المصطلح مازال يحتفظ بهالة التحيز القديم[٨]. ثانيًا، تماشيًا مع نموذجه لقطار الغرب السريع ذى الاتجاه التاريخى ناحية الشمال الغربى، ومفهومه أن "الإندوأوروبيين" كانوا محوريين فى الفردية القروية الجديدة، يقدم مان نظرية غريبة عن دور اليونانيين فى العملية. فقد أصبحوا محطة هامة فى القطار وذلك على ما يبدو لسببين: كانوا فلاحين أقصى الجنوب فى العصر الحديدى الذين يتحدثون الإندوأوروبية، وعاشوا على الحدود بين المناطق التجارية فى حضارات فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط. استبعد الفينيقيون على الأساس التقليدى الخاطئ وهو أنهم ليسوا ديمقراطيين إلى حد ما مثل اليونانيين (لأنهم لم يتحدثوا الإندوأوروبية؛ بسبب تجاورهم المكانى لاستبدادات الشرق؟). اليونان على أية حال، محطة هامة فى "قطار الغرب السريع". يرجع مان الفضل لليونان بنفس الطريقة التقليدية لإمداد التاريخ بالديمقراطية وثقافة "نظام تعدد الدول" و"الثقة فى الفكر" والوعى بطبيعة القوانين وهكذا[٩].

ربما تكون أثينا قد شهدت أكثر ديمقراطيات المشاركة الحقيقية فى التاريخ فى المواطنة الشاملة (كان هناك بالطبع من استبعدوا وهم أقلية من السكان مثل النساء، العبيد، والمقيمين الأجانب)[١٠].

ألمح البعض إلى أن مجتمعاً تكون غالبيته من العبيد لا يعد ديمقراطياً، بغض النظر عن قدر المساواة فيما بين الأقلية من الصفوة (من الرجال). لم يوفق مان فى ملاحظة تجارب حكم الأقلية (الأوليجاركية) - الديمقراطية (على سبيل المثال، شمال الهند)(١١) الثقافة والعلم فى مجتمعات أخرى - كانت مصر فى الحقيقة متفوقة على اليونان فى العلم النظرى والرياضيات(١٢). مع التسليم باستخدام الحديد فى الصين وفى معظم نصف الكرة الأرضية فى نفس وقت استخدامه فى أوروبا، ومع التسليم أيضاً بأن الحرث كان منتشراً فى الزراعة المعتمدة على الرى مثل تلك المعتمدة على مياه الأمطار، ومع أخذ كل صعوباتها فى الاعتبار تصبح نظرية مان عن أصول القدرة الأوروبية على التقدم غير قابلة للإقناع. إنها جغرافيا رديئة كما أنها تاريخ ردىء.

"القلق العقلانى"

يصل بنا مان الآن إلى الحقبة المسيحية. المسيحية هدية الشرق الأوسط القديم لأوروبا التى انتقلت عبر المجتمع الرومانى، ثم إلى الشمال حيث تمتزج مع جذور المجتمع الأوروبى المعتد بنفسه، المستقل، التنافسى، الديمقراطى، القلق، المجتمع العقلانى ذى المزارعين الفلاحين المستقلين: الإندوأوروبيين "فلاحى العصر الحديدى". أنتج هذا وبسرعة (من وجهة نظرى) وبشكل ساحر مجتمعاً أوروبياً عضوياً، محدداً، فردياً ذا هدف غائى حقيقى: دفع "مقدمته" أكثر باتجاه الشمال الغربى وهو بهذا يتقدم ويتطور.

كل ما يقوله مان على سبيل تفسير هذا الاندفاع باتجاه الشمال هو أولاً لتقديم صورة رمزية لأوروبا تبدو فيها ككائن عضوى اجتماعى متكامل، ثم لكى يقوم ثانياً بسرد "عقبات" النمو باتجاه الشرق "وفرص" النمو باتجاه الشمال الغربى. كانت "عقبات" الشرق بسبب وجود دول (بصورة ضمنية الاستبداد الشرقى) قوية وجماعات بربرية، نفس فكرة الوجود الأوروبى الذى يعوق التقدم والنمو فى اتجاه معين بسبب وجود آخر، وقد وصفها مان بالإمبراطوريات الشرقية ثم بالوجود "الإسلامى" وهى فكرة غيبية

كما أنها تعتبر اختزالاً تاريخياً. إنها تستحضر لنا فكرة أن أوروبا فى عصر الظلام كانت وحدة اجتماعية واحدة كما تستحضر "المعوقات" باتجاه الشرق. يجب أن نغوص بعمق فى نص مان حتى ندرك أنه يعطى الفضل للمسيحية لخلقها، منذ وقت بعيد، وجوداً عضوياً واحداً له القدرة على اتخاذ القرار، يقرر أى اتجاه تسكله أوروبا لكى تنمو وما "يعرقلها" عن هذا النمو. وسوف نعود لدور المسيحية بعد قليل.

يقدم مان مجادلة ثانوية لتفسير عدم حدوث التطور فى إيطاليا وأقاليم أخرى فى جنوب وجنوب شرق أوروبا مع بيزنطة. كان على تلك الدول أن "تدافع عن حدودها الشرقية" بذلك كان عليها أن "تستنزف نفسها"، ولذا فمن غير المحتمل أن تقدم هذه الدول إسهاماً أساسياً فى "ديناميكية أوروبا" (P.17). لدينا مرة أخرى مفهوم أوروبا الحيوية مع الأوروبيين من الجنوب والشرق فى دور الحرس الدفاعى الخلفى، ولكن ذلك يعتبر أمراً تافهاً لا وزن له كتفسير لإحجام أوروبا الجنوبية والشرقية عن الاشتراك فى الثورة الاجتماعية المزعومة فى العصور الوسطى مع "مقدمتها" التى كانت تتجه نحو الشمال الغربى. تتجه معظم نماذج التطور الثقافى للنظر إلى التقدم الأكبر فى مناطق تختلط فيها الأفكار بالسمات الثقافية وتكون الاستعارة فى أعلى صورها خاصة فيما يتعلق بالشؤون العسكرية. (يعطى مان وزناً ملحوظاً للثقافة العسكرية وعلى وجه الخصوص فى مصادر القوة الاجتماعية).

بعد إعاقتها عن التقدم شرقاً ترى إذاً أوروبا "فرصتها" فى "الغرب". يثبت مان الآن فى نظريته توليفة من دور العامل البيئى لدى چونز (انظر الفصل الخامس) والحتمية التكنولوچية لدى لين وايت (انظر الفصل الثالث). يأخذ مان من چونز الفكرة الخاطئة وهى أن التربة فى شمال غرب أوروبا ذات خصوبة طبيعية وإمكانيات لإنتاج مكثف كبير لا يوازيه غيره فى أى مكان آخر، ويبنى لنا صورة للمجتمع الأوروبى الشمالى الغربى فى عصور الظلام وأوائل العصور الوسطى تتفجر بالنمو الاقتصادى، وهى تبدأ فى استغلال تربتها الرائعة. والحقيقة، أننا كما رأينا فى الفصل الخامس فإن تلك البيئة بوجه عام لديها إمكانيات إنتاجية معتدلة الجودة ولكن تقديم هذه النوعية من الادعاءات التاريخية المبالغ فيها يعد عبثاً. الأغذية، مثل القمح، فيما قبل الفترة الحديثة

كانت تنمو بشكل جيد فى بعض تلك الأنواع من التربة ولكن المحاصيل لم تكن وفيرة وذلك بسبب كثرة الأمطار التى لم تتشبع بها التربة فقط وإنما جلبت معها السحب كذلك وبالتالى قللت من سطوع الشمس ومن ثم عملية التمثيل الضوئى، كما قلت المحاصيل كذلك بسبب فقر هذه التربة الخصبة من حيث العناصر اللازمة لنمو محصول جيد بالإضافة إلى نسبة الحموضة بها. كما أن نطاقًا واسعًا من الأرض على امتداد السهول الأوروبية لم يكن منتجًا حتى وصول البطاطس من أمريكا الجنوبية. (تزدهر البطاطس فى البيئة الباردة الرطبة). كانت التربة فى شمال غرب أوروبا أقل خصوبة منها فى غيرها من الأقاليم الزراعية العديدة الأخرى. لو أخذنا أكثر الممارسات التكنولوجية المتقدمة فى معالجة التربة التى كانت تستخدم فى كل هذه الأقاليم منذ ألف سنة لكانت محاصيل الأغذية من الحبوب أكبر فى طبقات عديدة من التربة غير الأوروبية (مثل التربة الطفلية فى شمال شرق الصين والتربة البركانية فى جاوا والتربة القطنية السوداء فى الهند والتربة الرسوبية فى أحواض أنهار كثيرة، وبالطبع التربة تحت الأرز والقمح المعتمد على الرى) أفضل منها فى أنواع التربة فى شمال غرب أوروبا الممطرة[١٣]. لذا تعتبر نظرية مان باطلة.

فى أوائل العصور الوسطى قام الأوروبيون فى شمال غرب أوروبا بثورة تكنولوجية على هذه التربة. الموقف هنا مأخوذ بشكل مباشر من لين وايت ويكرر كل المبالغات والأخطاء التى لاحظناها فى مناقشتنا لآراء وايت فى الفصل الثالث[١٤]. كانت هناك أربعة اختراعات هامة، كما يقول مان، وهى التى "ربما أعطت أوروبا الغربية دفعة زراعية حاسمة على آسيا وبالأخص على التقنيات الزراعية الصينية المكثفة فى زراعة الأرز" (P.11) لا يوجد دليل على هذا التأكيد الغريب. أعطت زراعة الأرز المكثفة المعتمدة على الماء فى الصين فى تلك الفترة محاصيل أكثر من أى نظام زراعى فى أوروبا. وفقًا لوايت فإن الاختراعات الأربعة هى "الحرث والحدوة واللجام للحيوانات التى تعمل مع الإنسان وتساعده ونظام الدوران فى الحقل، وطاحونة الماء" (P.8)[١٥]. لا يلاحظ مان أن المحراث الثقيل كان مستخدمًا فى الهند فى ألفيات سابقة، تطورت تكنولوجيا الحدوة واللجام فى العالم القديم فى وسط آسيا على وجه التحديد؛ الدوران المكثف

والدوران مع الرعى على الجزامة (ما بقى من الزرع بعد الحصد) كان مستخدمًا فى أماكن كثيرة غير أوروبية، كما أن طاحونة الماء عرفت فى الصين فى نفس الوقت الذى عرفته فيه أوروبا[١٦]. يستشهد مان بوايت بالنسبة للنتائج. "نظام زراعى جديد" (ليس صحيحًا إلا إذا وسعنا تعريفنا لكلمة "جديد": انظر الفصلين الثالث والتاسع)؛ الوصول إلى "التنظيم الاجتماعى المكثف" والنشاط التعاونى فى قرى شمال غرب أوروبا (خطأ نوقش فى الفصل الثالث).

يقترح مان "تحديد مقدار" "تلك الديناميكية القديمة فى العصور الوسطى" عن طريق ملاحظة أنه كانت هناك زيادة فى تعداد السكان وفى نسب المحاصيل. بالفعل زاد تعداد السكان، ولكن ليس هناك سبب لإرجاع ذلك إلى ثورة زراعية. كان للتطور الزراعى وعلى الأخص إزالة الغابات للحصول على أرض جديدة اليد الطولى بالتأكيد، ولكن ربما كان السلام العام، ذا معنى أكبر. ويلزم علينا أن نسأل عن سبب ضرورة اعتبار النمو السكانى علامة إيجابية على التطور فى أوروبا فى العصور الوسطى ولعنة مالثوسية فى أماكن أخرى. إشارة مان إلى زيادة "نسب المحاصيل" هى خاطئة كذلك، فقد زادت المحاصيل بالفعل ولكن الدرجة التى على أثرها عكس ذلك تغيرًا تكنولوجيًا كانت ثانوية إذا ما قورنت بأمور أخرى مثل التوسع الزراعى فى أراض جديدة بكر[١٧].

يريد مان أن يوضح أن التطور التكنولوچى والاجتماعى والاقتصادى السريع كان يحدث فى شمال غرب أوروبا فى العصور الوسطى إذا ما قورن بباقى العالم، وعكس ذلك مجتمعًا ديناميكيًا أيضًا إذا ما قورن بباقى العالم. حقيقة لا يعتريها الشك أن التغير كان يحدث فى هذا الإقليم فى تلك الحقبة، ولكن الأطروحة الأساسية يعتريها كثير من الشك: لم يكن التغير جذريًا، بداية حقيقية "لانطلاقة" أوروبا نحو الصناعة والحداثة حيث إن التغير المماثل كان يحدث بالفعل فى أقاليم عديدة خارج أوروبا. (انظر مناقشة نظرية ديفيد لاندز عن الثورة التكنولوچية فى العصور الوسطى فى الفصل التاسع). إذًا فأطروحة مان الحقيقية - التقدم الأحادى لشمال غرب أوروبا فى العصور الوسطى - بكل بساطة خطأ. دعونا الآن نلقى نظرة على الطريقة التى يشرح بها هذه الثورة التى لم تحدث فى الواقع.

عند هذه النقطة من المجادلة، يستحضر مان ماكس ڤيبر. هؤلاء الأوروبيون في شمال غرب أوروبا كانوا "عقلانيين" و"قلقين"، فقد أظهروا صفات أولية للإنسان الرأسمالي الحديث: الفردية والديناميكية وهكذا. لم أظهروا تلك الصفات؟ يقدم مان أولاً أطروحته عن "فلاحي العصر الحديدي" القديم الذين أورثوا بعض تلك الصفات لأحفادهم، الشعوب الجيرمانية والسلتية في شمال وغرب أوروبا. لدينا صورة لحياة قروية مستمدة من القبائل الجيرمانية التي عاشت حياة حرة، بينما حياة العزب بفرسانها الإقطاعيين وعدم مساواتها وعبوديتها وما إلى ذلك تأتي بغموض من مصدر "شرقي" و"غير أوروبي" عبر روما(١٨).

ولكن بالنسبة لمان فإن العنصر الأساسي لتفسير الديناميكية، العقلانية والقلق في العصور الوسطى وغيرها من الصفات التي دفعت "بالمقدمة" في أوروبا باتجاه الشمال الغربي، وأسفرت عن التطور السريع فقد كانت هي المسيحية. وحدت المسيحية أوروبا في مجتمع واحد (هذا صحيح بالفعل، ولكن درجة الوحدة كانت أقل مما يدعيه). المسيحية وفقًا لمان صبغت الأوروبيين بالكثير من السمات الشخصية المطلوبة للثورة الاقتصادية والتكنولوجية التي كانوا على وشك القيام بها كما يقول. لقد وفرت عدداً من المعايير التي مكنت الأوروبيين من "الثقة في بعضهم البعض إجلالاً لكلمتهم" و"الثقة في عقلانية بعضهم البعض" (P.11). الأكثر من ذلك أن المسيحية أعطت الأوروبيين صفة "القلق العقلاني". تلك الصفات الرائعة كانت بالفعل "ملامح للتركيبة النفسية المسيحية التي كانت موجودة بالفعل". أحد تلك الملامح كان "السلوك الأخلاقي الفردي" (معظم هذا مأخوذ مباشرة من ماكس ڤيبر، ومن الواضح أنه يوحي كما ألمح الأخير إلى فقدان غير الأوروبيين لتلك الصفات). المسيحية "شجعت الباعث على التحسن الأخلاقي والاجتماعي حتى ضد السلطة الدنيوية" (P.12) ربما تكشف تلك المقولة الاستثنائية بوضوح كيفية عزوف مان عن التفسيرات التقليدية للدور الاجتماعي للمسيحية في العصور الوسطى باعتبارها قوة محافظة في الأساس تدعم السلطة بشكل عام وتنظر للوراء للخطيئة الأولى وترى الكون "كسلسلة كبيرة من الوجود" تسعى للخلاص الشخصي وليس التغير الاجتماعي، وغالبًا ما تمتزج مع السلطة السياسية وتدافع عن الوضع الراهن. حقًا، وفرت المسيحية مجموعة من القيم الأخلاقية المشتركة والثقافة

المشتركة للأوروبيين ولكن قامت ديانات أخرى بنفس الدور لبشر فى أقاليم أخرى. ربما كانت المسيحية فى العصور الوسطى والكنيسة، مع أخذ كل شيء فى الاعتبار، محايدة فى الصراع الطبقى والسياسى فى ذاك الوقت، وبالتأكيد أسهمت فى الزحف نحو التقدم المادى والاجتماعى. ولكن أن نقول إن الأوروبيين كانوا متفردين فى تقدمهم، ديناميكيتهم، عقلانيتهم، جدارتهم بالثقة وما إلى ذلك بسبب المسيحية فذلك كله غير مقنع وهو تفسير آخر مختلق لتفوق أوروبا والأوروبيين.

يعطى مان للمسيحية دورًا هامًا آخر فى تقدم أوروبا الذى يفترض أنه كان فريدًا فى العصور الوسطى. غالبًا ما ظهرت المجادلات بأن فترة الشقاق الإقطاعى كانت وبالاً على التقدم الأوروبى، وبدأ تصاعد التقدم عندما أعيد بناء الوحدة السياسية أخيرًا. (وجود تقدم خلال العصور الوسطى فى أوروبا لم يكن أبدًا محل خلاف، ولكن المسألة هى أن التقدم كان موجودًا أيضًا فى قارات أخرى حيث لم تكن أوروبا فريدة فى ذلك كما يصر مان). يريد مان أن يجادل فى الاتجاه العكسى وهو أن شقاق أوروبا الإقطاعية كان فى الحقيقة سببًا لتقدمها. تلك المجادلة (التى قدمها چونز وهول ولاندز) هى فى جزء منها رجوع إلى نظرية الاستبداد الشرقى والمجادلة المتصلة وهى أن الإمبراطوريات الشرقية لأنها كانت إمبراطوريات، فقد أخمدت التقدم وحافظت على الوضع الراهن من التخلف (سأعلق بالتفصيل على تلك النظرية السياسية عند مناقشة آراء چون هول فى الفصل التالى). يقول مان: هربت أوروبا من خنق التقدم جزئيًا بسبب عدم وجود وحدة سياسية بها. فقد كانت بدلاً عن ذلك "اتحادًا فيدراليًا بزعامات متعددة" "بلا رأس" و"لا مركز" (P.11) لست متأكدًا من أين جاءت "الفيدرالية" حيث لم تكن هناك فيدرالية سياسية ذات معنى فى تلك الفترة محل النقاش). يبدو مان وكأنه يضفى على الحكومات الإقطاعية المنفصلة صفات بشرية: فهو يراها تنافسية، فردية، مفعمة بالنشاط فى سلوكها ناحية بعضها البعض، كما يرى الناس فى العصور الوسطى وكأن لديهم تلك الصفات كذلك، ويستخلص نوعًا من الشخصية الرأسمالية الضمنية فى كليهما، ويجادل بأن المسيحية حلت محل الوحدة السياسية فى الأمور التى كانت الوحدة السياسية فيها إيجابية وليست سلبية. (تذكر مجادلة مماثلة قدمها چونز)، ولذا فقد جمعت أوروبا بين الحسنيين.

هناك أخيراً "فرصة" بينية إضافية، إذا جاز التعبير، وضعت اللمسات الأخيرة على تفوق أوروبا ونهضتها الفردية، وهى، كما يقول مان، الخط الساحلى لغرب أوروبا، فهو متعرج وبالتالى يحسن فيه ركوب البحر والتجارة البحرية، فهو يواجه الغرب ولذا يومئ للأوروبيين بالمغامرة فى البحر؛ والحقيقة أن تلك نظرية قديمة جزء منها بيئى وجزء روحى غامض. حسب هذه النظرية فإن الأوروبيين كانت لديهم دائماً الرغبة فى التوسع وقد استسلموا لتلك الرغبة فى كل الحقب منذ أيام الحروب الصليبية. لمواجهتهم البحر يشعر الأوروبيون بالدافع لعبوره. يؤكد مان على قدم تلك الرغبة وهو أمر له أهمية كبيرة، مما يسمح له بتجنب إعطاء تأثير سلبى للحقبة الدقيقة للاستكشافات الأيبيرية وغزو العالم الجديد، التى أصبحت ببساطة حلقات فى ديناميكية أقدم وأعمق. لقد ناقشنا هذه النظرية فى الفصل السابق ويكفى أن نقول الآن إن الاستكشافات والتوسعات كانت تحدث خلال هذه الفترة فى مجتمعات تجارية بحرية أخرى فى أواخر العصور الوسطى: وكثير منها كان لديه تلك "الرغبة فى التوسع".

أعتقد أنه يمكننا الآن أن نقيِّم النظرية ككل. يعتقد مان مع چونز أن أوروبا، متفردة بين حضارات العالم، امتلكت الصفات المطلوبة لنهضة وتطور اقتصاد رأسمالى، كما كانت تتحرك بحيوية للأمام نحو الرأسمالية فى غياهب العصور الوسطى. يعتقد أن البيئة فى شمال غرب أوروبا كانت مناسبة بتفرد للتقدم التكنولوچى وبالتالى الاقتصادى، وأن بشر ذلك الإقليم كانوا ورثة لثقافة ما بعد العصر القديم، التى لم تكن بعيدة عن الثقافة الرأسمالية فى فرديتها وحريتها وتنافسيتها إلى غير ذلك من الصفات، ويرى أن كل ذلك يحدث فى مجتمعات محلية فى أوروبا الريفية ومجتمعات كانت أى شىء ما عدا كونها طبقية:

> الصورة هى لمجموعات صغيرة من الفلاحين وأصحاب الأراضى واقفين ينظرون إلى حقولهم وحيواناتهم وأدواتهم، يفكرون فى كيفية تحسينها مع ظهورهم لباقى العالم. (P.5)

وعليه: فهى تعتبر أخوة بين العبيد ومالكيهم.

مهما كان مقدار الحتمية البيئية والتكنولوجية والمركزية الأوروبية الثقافية التاريخية الموجودة فى نظرية مان، فإن المسيحية مع كل هذا هى الجزء المركزى فى هذا الشرح. فهى تمكّن أوروبيى الشمال الغربى بأداء سحرهم التكنولوچى من خلق التجارة والأسواق والظروف المهيئة لاقتصاد رأسمالى مع تحسين نوع الشخصية الڤيبرية، إذا جاز التعبير، الذى نحت بقسوة فى أيام ما قبل التاريخ وهو "قروية العصر الحديدى". يقدم أوروبا بهوية محددة بدقة. مان مثل كثير من مؤرخى المركزية الأوروبية يريد أن يجمع كل الأسباب والعوامل التى تشير إلى تفوّق أوروبا؛ حتى يسمح لكل منها بلعب دور فى العملية؛ ثم ينهى المجادلة مع مرشحه المفضل الذى هو فى هذه الحالة "القلق العقلانى" والذى خلقته ديانة أوروبا والأصول القبلية لشمال أوروبا. وهو ملمح إشكالى على وجه الخصوص فى نظرية مان لافتقاده تحديد كيفية اضطلاع المسيحية بالدور الذى يكله إليها مان. لا يبدو مان على علم بأن الأشياء التى يرجعها للدين يمكن أيضًا بطرق مختلفة أن تعزى لديانات أخرى فى ثقافات أخرى.

وإلى ماذا يؤدى كل هذا؟

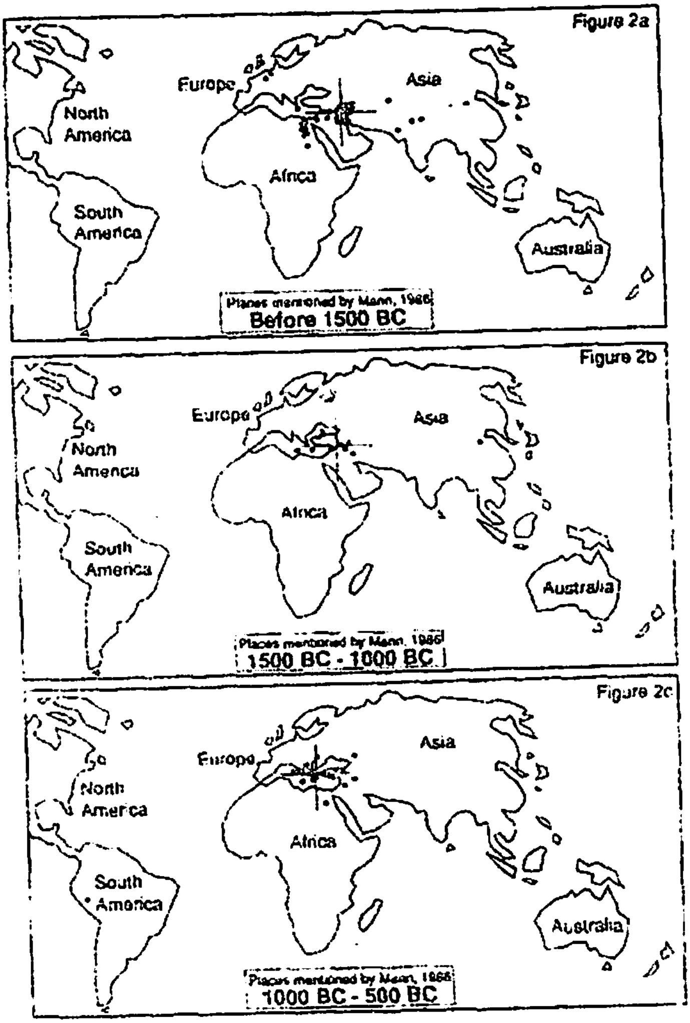
> فى نهاية كل تلك العمليات تقف دولة جزيرية متوسطة الحجم، رطبة التربة، موقفها مثالى... تتأهب للانطلاق وهى بريطانيا العظمى.

نحـو الغـرب!

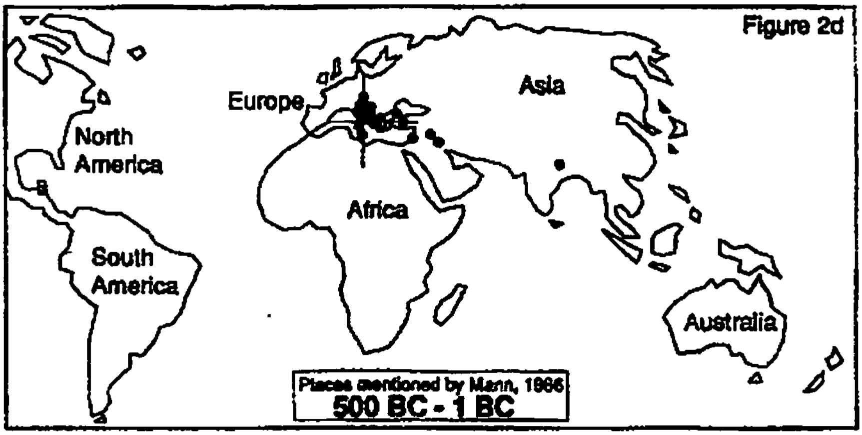
"يقول الجغرافى أرنولد جايوت Arnold Guyot فى منتصف القرن التاسع عشر إن "سير التاريخ الجغرافى هو حقيقة لا تقبل الجدل"[١٩]، ويبدو أن مان يوافق: "كان التطور... مستمراً بشكل باهر وتحول بثبات ناحية الشمال الغربى" (P.10.) "استمرت القوة الاقتصادية فى التحول ببطء نحو الشمال الغربى" (P.16) "وعلى مدار عدة آلاف من السنين كان هناك تحول لمقدمة القوة... نحو الغرب والشمال" وهكذا. سأنهى هذا الفصل بمحاولة لتحديد مفهوم مان عن زحف التاريخ نحو الغرب أو الشمال الغربى، وسأستخدم الأسلوب الذى وصفته فى الفصل الرابع لتحديد ذكر أسماء الأماكن القديمة على الخرائط لفترات تاريخية متتابعة.

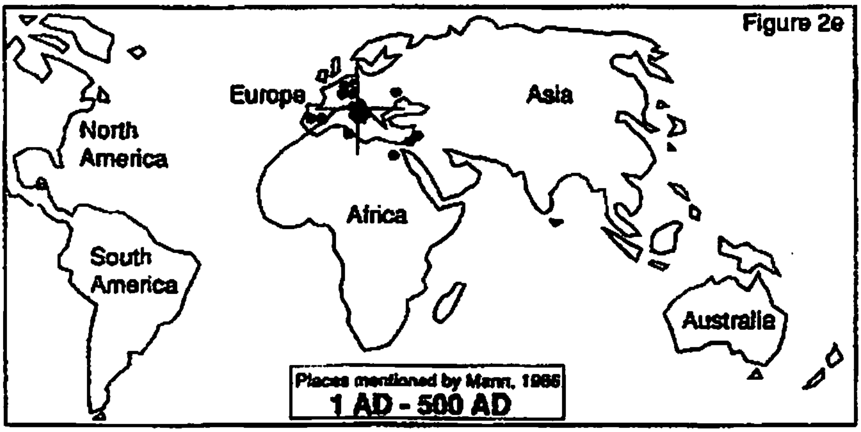
(الشكل ٢) يوضح توزيع عدد مرات ذكر الأماكن القديمة في كتاب مان "مصادر القوة الاجتماعية، الجزء الأول: تاريخ القوة من البداية وحتى ١٧٦٠ بعد الميلاد"، لكن التاريخ حتى ١٧٠٠ بعد الميلاد يقسم إلى مقاطع مكونة من ٥٠٠ سنة الشكل (Figure 2 a-g) مع فترة نهاية من ٢٠٠ سنة (١٥٠٠-١٧٠٠) بعد الميلاد (Figure 2h)[٢٠]. أخذت عينة عن طريق اختيار الأسماء القديمة المذكورة الأولى في كل صفحة ووضعت النقاط لتدل على أسماء الأماكن المذكورة وعددها على خرائط مناسبة. وأوضحت على كل خريطة متوسط خطوط العرض والطول لكل الأسماء المذكورة لتلك الفترة[٢١]. الخريطة الأخيرة (Figure 2i) توضح كل نقاط المتوسط لكل الفترات التاريخية. ربط نقاط المتوسط تلك يوضح سير الخط التاريخي كما يراه مان.

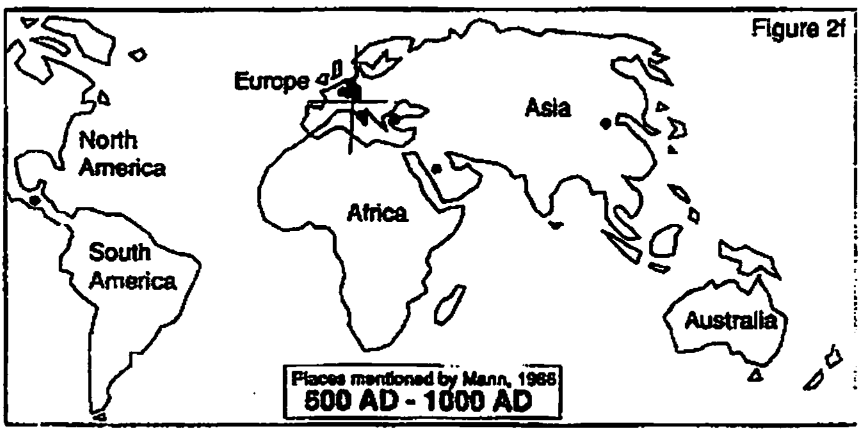
النموذج واضح جداً. التاريخ، بالنسبة لمايكل مان، يسافر نحو الغرب والشمال الغربي مثل قطار الغرب السريع[٢٢].

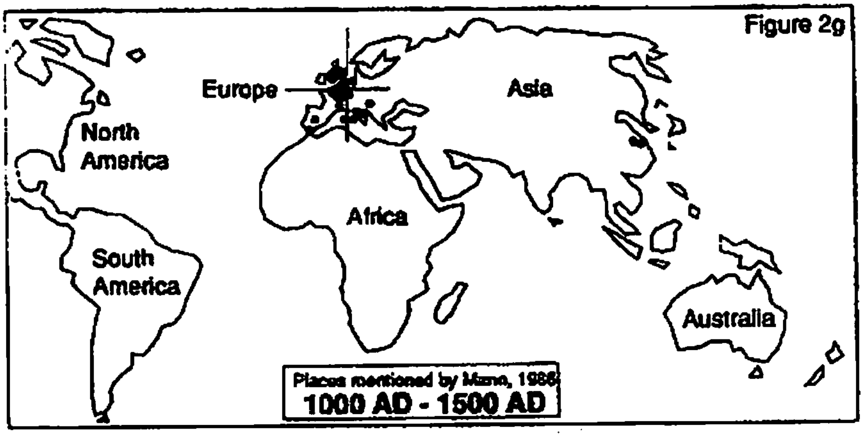


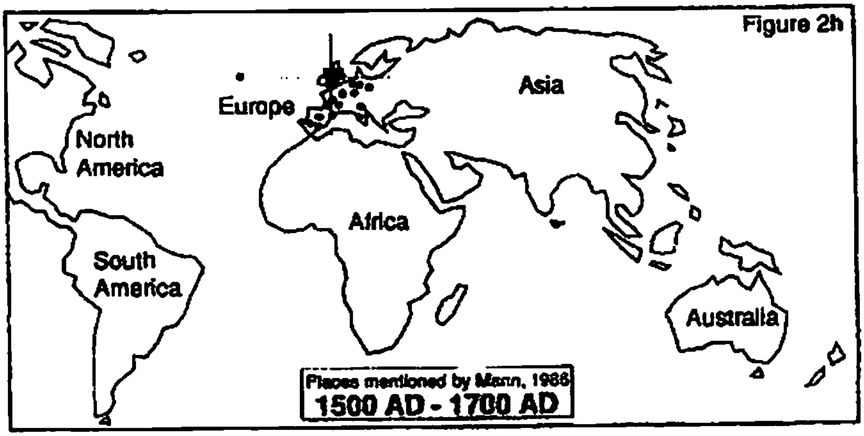
(الشكل ٢). ذكر أسماء الأماكن القديمة عن مان في كتابه مصادر القوة الاجتماعية، الجزء الأول: تاريخ القوة من البداية وحتى ١٧٦٠ موضح على الخرائط بالنسبة لفترات تتكون من ٥٠٠ سنة منذ قبل ١٥٠٠ قبل الميلاد وحتى ١٥٠٠ بعد الميلاد (Figure 2a-g) وفترة الـ ٢٠٠ سنة منذ ١٥٠٠-١٧٠٠ (Figure 2h). (أسلوب أخذ العينة: انظر النص). الخطوط المتقاطعة تشير إلى متوسط خطوط الطول والعرض لكل الأسماء القديمة المذكورة لفترة تاريخية ما. الخريطة الأخيرة (Figure 2i) توضح متوسطات سلسلة الفترات التاريخية كلها مع خط يربط بين المتوسطات كلها.

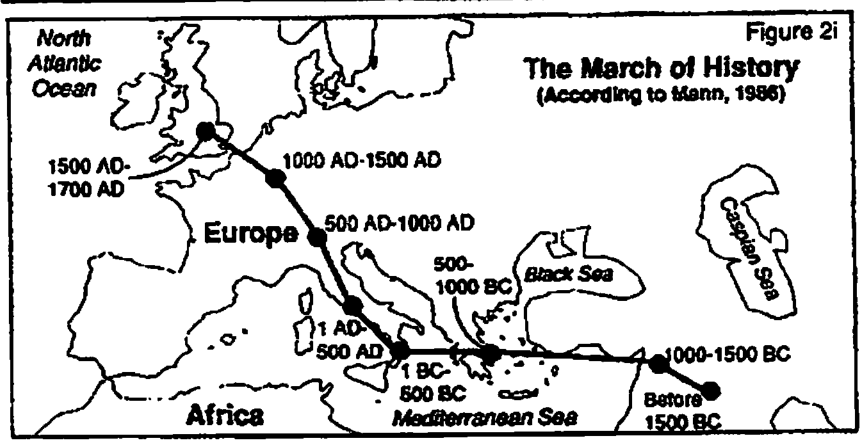

Figure 2d
Europe
Asia
North
America
Africa
South
America
Australia
Places mentioned by Mann, 1986
500 BC - 1 BC


Figure 2e
Europe
Asia
North
America
Africa
South
America
Australia
Places mentioned by Mann, 1986
1 AD - 500 AD


Figure 2f
Europe
Asia
North
America
Africa
South
America
Australia
Places mentioned by Mann, 1986
500 AD - 1000 AD


Figure 2g
Europe
Asia
North America
Africa
South America
Australia
Places mentioned by Mann, 1986
1000 AD - 1500 AD


Figure 2h
Asia
Europe
North America
Africa
South America
Australia
Places mentioned by Mann, 1986
1500 AD - 1700 AD


North Atlantic Ocean
Figure 2i
The March of History
(According to Mann, 1986)
1000 AD-1500 AD
1500 AD-1700 AD
Europe
500 AD-1000 AD
500-1000 BC
Black Sea
Caspian Sea
1 AD-500 AD
1 BC-500 BC
1000-1500 BC
Before 1500 BC
Africa
Mediterranean Sea

الهــوامــش

(١) M. Mann, "European Development: Approaching a Historical Explanation." In Baechler, Mann, and Hall, Europe and the Rise of Capitalism (1988), pp. 6-19; الكلمات المقتبسة أعلاه موجودة في صفحة ٦ وأرقام الصفحات بين الأقواس في هذا الفصل تشير إلى هذا المقال: هناك أعمال أخرى لمان مذكورة في الهوامش.

(٢) M. Mann, The Sources of Social Power: Vol. 1. A History of Power from the Beginning to AD. 1760 (1986)، الجزء الثاني من هذا العمل بعنوان "نهضة الطبقات والأمم – الدول" (١٧٦٠-١٩١٤-١٩٩٣) وهو مؤسس بقوة على الدليل والنظرية. اهتمامي الأساسي هنا ينصب على نظرية مان عن مسيرة التاريخ؛ التي عبر عنها بوضوح وإيجاز في مقاله "European Development: Approaching a Historical Explanation,"، وسوف أشير في الغالب لهذا العمل.

(٣) المجادلة المفصلة موضحة في الكتاب. في هذا الكتاب يستخدم مان كلمة "قوة" ليعني أشياء ثقافية عديدة ومختلفة حيث إن العمل ككل لا يعني تاريخ "القوة"، ولكن يبدو أنه تاريخ اجتماعي عام. في Sources of Social Power, Vol. 2. The Rise of Classes and NationStates, 1760-1914 (1993), يناقش مان أنواعًا مختلفة من القوة (PP.1-4) ولكن المفهوم العام غير واضح.

(٤) صيغة مان عن نظرية الاستبداد الشرقي مشابهة لتلك لدى ڤيبر (انظر الفصل الثاني) ولكنها مختلفة عنها لدى كارل فيتفوجل Karl Wittfogel (المقدمة في كتابه الاستبداد الشرقي ١٩٥٧). يجادل مان أن الري "قيد" الناس مع بعضهم البعض داخل سياج في دول ما بين الأنهار من نوعية استبدادية لم تتحقق فيها الوحدة الثقافية بين الشعب والحاكم الذي عادة ما يكون عسكريًا مستبدًا. ليس هناك إدراك في مجادلة مان بأن الري ليس متغيرًا مستقلاً تاريخيًا. في معظم الأراضي القائمة على الري كان اللجوء إليه يتم لأسباب اجتماعية، مثلما تطالب طبقة الصفوة بزيادات في فائض الإنتاج يمكن أن يوفرها تطوير وتوسع نظام الري (انظر نموذج المستعمر للعالم، الجزء الأول، الفصل الثاني). ينبغي أن تبدأ السببية مع المجتمع، ويجب ألا ندعي أن "الري" يفعل هذا أو ذاك. يضيف مان مجادلة غير صحيحة مفادها أن تلك المجتمعات البربرية لا يمكنها أن تساند حكومات كبيرة بسبب صعوبة نقل المجموعات والموارد برًا لمسافات بعيدة: المجموعات المتحركة يمكن أن تحتل أماكن كبيرة، ولكنها افتقرت البنية الأساسية الاقتصادية للتحكم إلا إذا كانت المواصلات تتم عن طريق المياه (انظر "مصادر القوة الاجتماعية"، الجزء الأول، الفصول ٥-٣). هذه المجادلة تعتمد على مغالطة معروفة. ليس صحيح مثلما يؤكد مان (مثل چونز، وغيرهما كثيرون) أن السفر والنقل البرى كانا مقصورين على مسافات قصيرة (يعتقد أن أقصاها كان ١٥٠ كيلومتر)،

على سبيل المثال لو أن حيوانًا يحمل حمولة من الحبوب من المفترض أنه سيأكلها كلها ليمد نفسه بالغذاء اللازم لتلك المسافة. لا يضع مان فى اعتباره حقيقة أن الحيوانات التى تحمل حمولات كهذه ترعى على جانبى الطريق، كما أن موقع أماكن الرعى كان يتحكم فى طرق التجارة قديمًا (طريق الحرير الأسيوى الداخلى مثلاً، الذى امتد لآلاف من الأميال). بالإضافة إلى ذلك، فإن الملاحة فى النهر كانت صعبة فى الأزمنة القديمة وكان الانتقال عن طريق المراكب لايزال بدائيًا أو غير جيد. لم تكن حسابات التكلفة النسبية للمواصلات البرية والبحرية للأزمنة القديمة مؤكدة ولهذا السبب فإن النظريات القائمة عليها ليست قوية.

(٥) M. Mann, Sources of Social Power, Vol. 1, p. 185.

(٦) انظر على سبيل المثال Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations (1976), pp. 157-158. أناقش رأى ڤيبر فى الجزء الأول الفصل الثانى، فى المقطع الذى يحمل عنوان "آسيا المجدبة المستبدة" وفى الفصل الثانى أعلاه.

(٧) Bray, Science and Civilization in China; Vol. 6. Part 2. Agriculture (1984). أضع "العصر الحديدى" بين قوسين لأن المصطلح عادة ما يحمل معنى مرحلة تاريخية أوروبية خالصة، وهو جزء من نموذج تطورى خطى.

(٨) انظر فى هذا الصدد Bernal, Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization: Vol. 1. The Fabrication of Ancient Greece (1987).

(٩) M. Mann, Sources of Social Power, Vol. 1, p. 227.

(١٠) M. Mann, Sources of Social Power, Vol. 1, p. 227.

(١١) Mukerji, The Republican Trend in Ancient India (1969).

(١٢) للمزيد عن ذلك انظر أيضًا برنل Bernal الذى يوضح أن الأوروبيين الشماليين فى القرن التاسع عشر اخترعوا مفهوم اليونان القديمة كمهد للثقافة الأوروبية حتى يتمكنوا من صياغة تاريخ بدون غير الأندروأوروبيين (اليهود – الفينيقيون – المصريون) مع تأثير بسيط من أوروبا اللاتينية (روما) بقدر الإمكان.

(١٣) يتجاهل هذا التعميم المشاكل المحلية مثل الملوحة والزراعة المكثفة وخصوصيات البيئة المحلية (تركيب التربة، جدول المياه وهكذا). بالرغم من ذلك فهو ينطبق على كل هذه الأقاليم من شمال غرب أوروبا للصين وجنوب شرق آسيا.

(١٤) أجزاء من مجادلة مان مأخوذة من عمل كارلو كيپولا Carlo Cipolla وهو من أنصار الحتمية التكنولوجية. انظر Cipolla, Guns, Sails, and Empires: Technological Innovation and the Early Phase of European Expansion, 1400-1700 (1965).

(١٥) بعد ذلك يصحح مان فى المناقشة هذا الخطأ البين: لا يعنى "الحرث" ولكن المحراث الثقيل، ليس دوران الحقل، ولكن دوران الحقل الثلاثى.

(١٦) انظر مناقشة هذه الاختراعات فى الفصل الثالث. يسلم مان أن طاحونة الماء كانت معروفة للرومان، ولكنه بصورة غير منطقية يكمل مناقشة "اختراعها" فى العصور الوسطى وآثارها الرائعة آنذاك بصورة غير منطقية.

(١٧) "نسب المحصول" ليست مثل "المحصول" والفرق هام، بالرغم من أن مان يعتبر الأولى بديلاً للثانية. المعلومات عن نسب المحصول (النسب بين البذور المزروعة وتلك المحصودة) كانت جيدة فى العصور الوسطى، ولكن ما نعرفه عن المحصول الفعلى قليل. نسبة محصول منخفضة يمكن أن تغطى على محصول وفير. على سبيل المثال، ٦:٣ هى نسبة أقل من ٣:١ (المحاصيل تضاعف كمية البذور المزروعة وتكون ثلاثة أضعاف الكمية المزروعة) ولكنها تعطى عائداً أعلى لكل فدان (ثلاث وحدات مقابل اثنتين). نسب المحصول المنخفضة تسود فى التربة الفقيرة ولكن يمكن زراعة عدد أكبر من الأفدنة، أو يمكن استخدام دورات مختلفة، وبالتالى يمكن الحصول على محصول إجمالى أعلى. تلك المشاكل التى لا يذكرها مان (لا فى المقال ولا فى الكتاب) تجعل من الصعوبة الحكم على نتائج التغير التكنولوجى فى الزراعة فى العصور الوسطى.

(١٨) M. Mann, "European Development," p. 16. لو لم يكن مان يريد التقليل من شأن المساهمات الرومانية والشرقية (الإمبريالية) فى أوروبا فى العصور الوسطى لقال ببساطة: فرضت الإمبراطورية الرومانية هيكلاً طبقياً على المجتمع القروى الأوروبى فى الشمال الغربى.

(١٩) A. Guyot, The Earth and Man (1849).

(٢٠) تستخدم السنة النهائية ١٧٠٠ بسبب توسع كتب تاريخ العالم فى تغطيتها لتشمل العالم كله، خاصة العالم المستعمر؛ وفى الأزمنة الحديثة تصبح النماذج الجغرافية لهذا السبب مشوشة إلى حد ما. فى هذا الطرح أتناول الكتاب باعتباره كتاب منهج فى تاريخ العالم وهو كذلك فعلاً.

(٢١) أستخدم الوسيط وليس المتوسط، وذلك لأنه قد يعطى وزناً لأماكن بعيدة جداً. إذاً: - مثال جدلى- لو أن كل أسماء الأماكن المذكورة ماعدا واحدة بالنسبة لفترة تاريخية ما كانت فى أوروبا ولكن واحداً فى الصين، فإن متوسط خط العرض/ خط الطول يكون شرق أوروبا وسوف يكون أقل إيضاحاً من الوسيط الذى سيقع فى مكان ما فى أوروبا.

(٢٢) اتخذ قطار الشرق السريع طرقاً مختلفة فى حقب مختلفة. يجب ألا تأخذنا المضاهاة بعيداً.

الفصل السابع

چون أ. هول

الأوروبيون الديمقراطيون

يعتقد چون هول، وهو يتبع فى ذلك خطوات آدم سميث، أن الرأسمالية تظهر فى المجتمع فى حال عدم تدخل السياسة مع العمل الحر (سياسة دعه يعمل Laissez Faire)(*) ولو لم تكن هناك "عقبات" تعترض طريقها. يجادل هول أن أوروبا تبلورت كنظام سياسى أثناء العصور الوسطى التى لم تشهد تدخلاً فى نهضة السوق والظروف الأخرى التى مهدت للرأسمالية. أما المجتمعات الآسيوية على الجانب الآخر - لا أحد يلاحظ أفريقيا - فكانت بها عراقيل منعت تلك العمليات السياسية التى تؤهل الدولة للمضى قدمًا فى الطريق الطبيعى الملائم. قدم هول هذه النظرية فى كتاب "القوى والحريات وأسباب ونتائج نهضة الغرب" عام ١٩٨٥، فى مقال بعنوان "الدول والمجتمعات: المعجزة من منظور مقارن" فى ١٩٨٨(١). سأركز هنا على هذا المقال الصادر ١٩٨٨ (وأرقام الصفحات فى النص ستشير إليه). كما سأناقش القوى والحريات فى المواضع المناسبة.

تشبه نظرية هول نظرية مايكل مان (الفصل السادس) ولكن العامل الذى رشحه هول هو السياسة. مثل مان، يبنى هول نظريته على أساس من مجادلات ماكس ڤيبر عن العقلانية والدين (الفصل الثانى)، ويستخدم بكثرة المجادلات التكنولوچية المأخوذة

(*) Laissez - Faire: اعمل ودع غيرك يعمل. (المترجمة)

من لين وايت الابن (الفصل الثالث)، وكذلك المجادلات البيئية الاقتصادية المالثوسية من إيريك چونز (الفصل الخامس). إذًا نحن أمام نظرية انتقائية عن "المعجزة الأوروبية" تهدف إلى كسب أكبر قدر من الدعم من عديد من مجادلات المركزية الأوروبية، ولكن مع التوقيع الخاص بها وهو فى هذه الحالة السياسة والدولة.

يريد هول أن يصف منهجه الـ"مقارن" ("المعجزة من منظور مقارن") ولكنه من النوع الذى يشبه المنهج المقارن الذى قابلناه فى عمل چونز والذى سنقابله مرة أخرى مع لاندز (الفصل التاسع).

الأول يسرد كل الأسباب التى جعلت المجتمعات الآسيوية فى مرتبة أقل فى أمور تتعلق بالتقدم والحضارة (لا ترقى أفريقيا لمرتبة المناقشة)، والثانى يسرد كل الأسباب التى أدت إلى تفوق أوروبا، والثالث يقارن بين الاثنين ويعلن أوروبا "الفائز". يمضى هول بطريقة منظمة: أولاً هو يحلل "الصين الإمبراطورية"، ثم "أرض البراهمة" (اللقب الذى أطلقه على الهند القديمة)، ثم "الإسلام والرعوية" (عنوان مع نظرية ضمنية)، ثم أخيرًا يخبرنا عن "نهضة أوروبا المسيحية" الرائعة. (تلك هى عناوين الفصول فى "القوى والحريات") وقد حيكت نظرية هول السببية فى نسيج المناقشة.

يقر هول أن نظريته فى السياسة هى نظرية آدم سميث(٢)، فهو يتفق معه فى أنه كلما قل التدخل السياسى فى الاقتصاد، كانت الأمور أفضل: سياسة العمل الحر تساوى التقدم. يقول هول بالطبع إنه ينبغى أن تكون هناك بيئة سياسية معتدلة تسمح للاقتصاد بالعمل: حتى توفر الأمن والسلوك القانونى وحرية التجارة، إلى غير ذلك. ولكن هذا كل شىء. نظرية هول الأساسية عن نهضة أوروبا، التى انطلقت من مجادلات متنوعة فرعية (والتى سنناقشها بعد قليل) تؤكد أن أوروبا أصبحت حديثة ونجحت فى تطوير الرأسمالية وذلك بسبب امتلاكها لنظام سياسى "لم يعرقل" العمل الحر فى الاقتصاد، ولذا تطور الاقتصاد بصورة طبيعية، وذلك لأن التطور باتجاه الرأسمالية هو المسار الطبيعى المتوقع فى حال عدم وجود "معوقات" أمامه. "معوقات" هى الكلمة التى يستخدمها هول مثل العديد من منظرى المعجزة الأوروبية لتوضيح فكرة أن التطور

طبيعى إلا إذا وقف فى طريقة شىء مصطنع. من الطبيعى أن توجد تلك "المعوقات" فى العالم غير الأوروبى وليس أوروبا، على الأقل ليس شمال غرب أوروبا. هذا المنطق المبنى على نظرية سميث نجده واضحًا كذلك لدى جونز، كما نجده بصورة ضمنية لدى وايت ومان، وبشكل عجيب لدى برينر ونظريته الماركسية الجديدة وهو الذى يعتقد أن الرأسمالية نهضت فى إنجلترا بسبب عدم تدخل الدولة فى الاقتصاد مثلما حدث فى فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. بالنسبة لهول هذا هو المفهوم المحورى، وهو الذى يقوده إلى محاولة تفسير لماذا لم تسمح الدولة فى حضارات أخرى - الهند، الصين، الإسلام - للاقتصاد بالتطور فى حين قامت أوروبا بذلك؟ من بين معوقات عدة نجده ينتقى الديانات الشرقية والاستبداد كعوامل رئيسية.

"الصين الإمبراطورية"

يقول هول إن شكل الدولة فى الصين كان إمبراطوريًا، لذا نجده يستحضر الاتهام نفسه الذى يطلق عليه "الشكل الإمبراطورى" للدولة مثلما يفعل جونز. هناك "تعسف" و"ازدراء للحياة الإنسانية" (P.20)، فالناس إما تجلد أو تقتل وفقًا لهوى الأباطرة (P.34)، أى أنه استحضار للاستبداد الشرقى على طريقة فو مانشو(*) Fu Manchu. تختزل مناقشة هول للصين ثلاث آلاف سنة من التاريخ فى وصف متكرر، فتترك لدينا الانطباع بأن الدولة الصينية دائمًا وأبدًا حافظت على البربرية فى شكلها القديم. (يريد هول فى الحقيقة أن يقارن الصين بوجه عام مع "مصر القديمة" P.113). أما الصورة التى يعطيها لنا عن أوروبا فهى على العكس، لا تركز طويلاً على التعسف والوحشية بل على المؤسسات الديمقراطية والإنسانية التى هى بالطبع صورة لأشكال حديثة نسبيًا. تذكر أن جونز يستخدم الوسيلة نفسها ليعطى انطباعًا خاطئًا عن المجتمع الشرقى: فهو يقارن بين أوروبا الحديثة نسبيًا مع صفات قديمة للشرق،

(*) د. فو مانشو: شخصية خيالية من تأليف المؤلف الإنجليزى ساكس رومر Sax Rohmer، اقتبس فى كثير من الأفلام كنموذج للمجرم الذكى. (المترجمة)

وبذلك يترك الانطباع بأن تلك صفات دائمة. بالنسبة لهول خولت له تلك الوسيلة تقديم تعميمات كلية عن طبيعة "الإمبراطوريات" ثم نجده يطلق زفرة ارتياح أدبية ويقول كم أن أوروبا محظوظة لتجنبها "الشكل الإمبراطورى"، ولو أنها فعلت غير ذلك لما أمكن للتطور أن يتم فيها.

> تخيل الشكل الذى كان يمكن أن يكون عليه التاريخ الأوروبى لو أعيد تكوين الإمبراطورية الرومانية أو لو حلت محلها أى إمبراطورية أخرى!
> (P.135)

لا يقدم هول الدليل لدعم ادعائه بأن "الإمبراطورية" أعاقت التطور الاقتصادى فى الصين. إنه ببساطة يكرر التأكيد مرة تلو الأخرى وكأنه مبدأ مطلق لا يعتريه الشك، ثم يضيف بعض الإيضاحات القليلة التى لا علاقة لها بالموضوع.

يكرر هول مجادلة ڤيبر (انظر الفصل الثانى) بأن المدن الصينية لم تكن مستقلة عن الحكومة ويستخلص أن هذا يعنى تكبيل الاقتصاد المدنى بواسطة الدولة الإمبراطورية بينما الواقع الاقتصادى والمدنى للصين فيما قبل الفترة الحديثة كان دائمًا ضخمًا ونشطًا، كما كانت تجارة المسافات الطويلة والتبادل المحلى على درجة كبيرة من الأهمية. كان مجتمع التجار موجودًا فى كل مكان وفى بعض الأحيان كان بعض أفراده يعملون مع البيروقراطية الإمبراطورية، وربما ساعدت الدولة الاقتصاد أكثر من إعاقتها له(٣).

بعد ذلك يتحدث هول عن حالة الأدميرال شنج هى Zheng He (Cheng He) الذى نظم رحلات استكشافية كبيرة ذهبت للهند وأفريقيا خلال الفترة ما بين ١٤٣٣- ١٤١٧ (نناقش ذلك فيما بعد فى الفصلين الثامن والتاسع). الشىء المهم عن رحلات شنج بالنسبة لمؤرخى المركزية الأوروبية ليس هو أنها حدثت (وربما تمثل أعظم إنجاز محيطى فى التاريخ الإنسانى حتى ذلك الوقت) ولكن أنها توقفت. توقفت الحكومة الصينية عن إرسال الأساطيل الضخمة فى ١٤٣٣ وهذا، وفقًا لهول، يثبت عداء الإمبراطورية للتطور فى كل أشكاله وعلى وجه الخصوص عداؤها المرضى للأجانب مما

منعهم من التعامل معها. ولكن مثلما أشار ڤيكتور بيورسل Victor Purcell، وغيره الكثير من العلماء الخبراء في الصين والثقافة الصينية، أن الشيء المهم الذى يجب أن يفسر هو ليس توقفها في نهاية الأمر، ولكن أن تلك الرحلات العظيمة حدثت قبل نصف قرن من حدوث شيء مماثل في أوروبا(٤). فقد كان لها هدف سياسي: تحذير الممالك الآسيوية من معارضة الصين وتدعيم العلاقات معها، وقد تحقق هذا الهدف، لذا لم تكن هناك حاجة لرحلات إضافية. ذهب التجار بأعداد كبيرة في تلك الرحلات وكانت خطوة كبيرة للأمام في سبيل التطور الاقتصادى. انتهت الرحلات بسبب الأزمات السياسية الداخلية في الصين والمشاكل العسكرية على الجبهة الشمالية الغربية، ويعد صحيحًا بحق أن الحكومة بعد ذلك ثبطت، بل وفي بعض الأحيان حرمت، التجارة المحيطية الفردية. ولكن ذلك لم يمنع استمرار التجارة على مستوى مكثف رغم القيود المفروضة عليها. يعتقد هول، ويا للغرابة، أن الصينين نسوا كيفية صناعة سفن عابرة للمحيطات بعد ١٤٣٠(٥). لو كان هناك بالفعل حاجة لأن نخمن نهاية رحلات شنج هى في سياق المقارنة بين الاستكشافات الأوروبية والصينية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فإن النقطة الهامة تكون مختلفة جدًا: لم يكتشف شنج أميركا، ولكن الذى قام بذلك هم الأوروبيون (تناقش الأسباب بصورة مختصرة في الفصل الأول وبصورة تفصيلية في نموذج المستعمر للعالم، فهى في الأساس حدثت بسبب سهولة الاتصال)، ولذا لم يتح لشنج الحظ السعيد ليقدم لبلده مصدرًا لا نهائيًا من الثروة مثلما فعل كولومبس.

صورة الصين التى يرسمها هول مشوهة جدًا. لا يهم أنه يريد أن يناقش النظام السياسى في الأساس، ولذا لا يتوجب عليه أن يقدم تاريخًا عامًا للصين. إنه يريد أن يبين أن نظام الصين الإمبراطورى عرقل التقدم الاقتصادى؛ وليقوم بهذه المهمة على خير وجه ينبغى عليه أن يطلعنا على شيء مفيد عن الاقتصاد، وهو ما لم يفعله؛ فهو لا يذكر المجتمع الريفي، كما نُحيت الطبقات الريفية وصراع الطبقات جانبًا. الرسم التخطيطي للهيكل الطبقى الصينى (المأخوذ عن إرنست جلنر Ernest Gellner) في الحقيقة يفشل في احتواء طبقة أصحاب الأرض (P.9)؛ ونجد مقولة صريحة

وهى أن الطبقات وصراع الطبقات فى الصين لم تكن "تطورية" كما كانت فى أوروبا. وبالتالى لم تنتج "التقدم الاجتماعى" (P.44).

يكرر هول أن الصين مكتظة بالسكان: النمو السكانى البسيط يصبح هناك "اكتظاظًا بالسكان" بينما النمو السكانى فى أوروبا يعنى التقدم، كما يقول إن الصين كان بها عدم مساواة أكثر من أوروبا: نفرض أن "منحدر عدم المساواة" أكثر انحدارًا. هذا الادعاء غير المثبت، ومن الواضح أنه مأخوذ عن چونز، يبدو أنه لىّ لحقيقة أن ثروات الصين الكبيرة كانت تعنى أن طبقة الصفوة بها كانت أكثر ترفًا منها فى أوروبا، وهنا قد تظهر مقارنة أقوى مع مستوى معيشة الفرد العادى. فى الحقيقة، إن مستوى المعيشة فى الصين فى تلك الفترة ربما كان أعلى منه فى أوروبا[٦]. (وهذا لا يمكن أن يوحى بأن الدولة قمعت الاقتصاد). بخلاف مجموعة صغيرة من الأقاويل الخاطئة التى تنقصها المعرفة بالثقافة الصينية (على سبيل المثال هول يعتبرها ثقافة "سلبية") لا نجد أى محاولة تشرح النماذج التى يدعى هول رؤيتها[٧]. نجده بين الحين والآخر يستشهد بڤيبر متفقًا معه، ولكنه لا يستحضر نظريته عن الآثار الضارة للكونفوشيوسية؛ فهو يترك لنا فكرة أن الصين كانت مجتمعًا إمبراطوريًا كريهًا واستبدادًا شرقيًا تدخل فى تغيرات دائرية دائمة تنتهى حيث بدأت بلا سبب ولكن فكرة هول عن الاستبداد الشرقى والركود و"نموذج الحكم الدائرى"، "الأزمات" الدائمة (P.21) يمكن رفضها. كما يمكننا كذلك أن نرفض زعم هول أن الصين لم يكن لديها الإمكانات للحداثة قبل قدوم الأوروبيين:

> المضمون الكلى للتشكيل الاجتماعى [الصينى] هو استبعاده لخلق أى ديناميكية حقيقية (P. 34)
>
> الأوروبيون جلبوا "التقدم" (P.56)

يبقى أن نلاحظ مرة أخرى معالجة هول للإمبراطورية الصينية. فى مناقشته للتطور الأوروبى، التى سنلتفت إليها بعد قليل، نجده يسلم كما يجب عليه، بأن الدولة كان لديها مهام هامة محددة تؤديها فى بداية الرأسمالية، وأن الغياب الكامل لتدخل

الدولة فى الاقتصاد كان من المؤكد أن يعيق صعود الرأسمالية؛ وذلك لأن الدولة كانت مهمة لتوفير الظروف الاجتماعية (الأمن، على سبيل المثال) التى كانت الرأسمالية الوليدة فى حاجة إليها. ولكن لو وجدت الحكومة القوية فى الصين للدرجة التى تعيق تطور الرأسمالية؛ ألا يتبع هذا أن هذه الحكومة تكون من القوة بالدرجة التى تخول لها القيام بالمهام المطلوبة للسماح بتطور الرأسمالية؟ عند هذه النقطة يصبح هول حاذقًا. يمكن أن يكون هناك حكومة قوية، ولكنها فى الوقت نفسه ليست على درجة كافية من القوة، وكانت تلك هى الحال فى الصين. كانت الحكومة قوية فى قدرتها على قمع الرأسمالية ولكنها افتقدت تلك القوة فى توفير البيئة الأساسية للرأسمالية. هذا الفصام السياسى، كما يقول هول، هو صفة الإمبراطوريات؛ فهى تبدو قوية ولكنها فى حقيقتها ضعيفة. وكما يقول كذلك فإن هذا ليس تناقضًا بل مجرد "مفارقة" (P.20). أما بالنسبة لى فهو ذريعة صُممت لتمكن هول من شجب "الاستبداد الشرقى" فى الصين ومدح "الدولة القوية" فى أوروبا.

"أرض البراهمة"

حالة الهند أسوأ من الصين. بالنسبة للهند، كما فعل مع الصين، يقدم هول النموذج الأوروبى التقليدى للدولة ونواقصها. مثلما ينظر الأوروبيون إلى الصين فى فترة ما قبل الحداثة بطريقة تقليدية على أنها استبدادية، ينظر إلى الهند كذلك كنموذج لدولة تحكمها الطبقية المتجمدة وليس السياسة أو الاقتصاد: اللذين يعتبران فى هذا النموذج هدايا الإنجليز(٨). هذا هو النهج الذى يسير عليه هول. إنه يختصر التاريخ الهندى فى تلك الصفة الفردية، الطبقية، وكأنما لم توجد قوى أخرى هامة، وكأن تلك الطبقية تفسر كل ما حدث فى الهند على مدى أكثر من ألفى سنة. ولهذا نجد فى كتاب "القوى والحريات" فصلاً بعنوان "أرض البراهمة"(٩).

يمكن تلخيص مجادلة هول عن الهند ببساطة شديدة. أكثر من نصف مجادلته يركز على الأزمنة القديمة وزمن تكوين الهندوسية والبوذية والباقى تبيان على أن تلك

النماذج القديمة استمرت بعد ذلك لتتحكم فى المجتمع الهندى وتمنعه من التطور، بل حتى من اكتساب الصفات العادية للحضارة. إذًا نحن أمام مثال آخر لمحاولة إلصاق بعض الصفات السلبية أو الإيجابية لثقافة قديمة والادعاء بأن تلك الصفات تحدد الشخصية، وتكيف قَدْر تلك الثقافة للأبد وتعطيها دفعة إما نحو الديناميكية (أوروبا) أو الركود (الهند).

وفقًا لهول فإن البرهمية والنظام الطبقى قد حولا مسار القوة الاجتماعية من المجال السياسى إلى الديانة والطبقية وإلى البراهمة كطبقة تستخدم القوة ببراعة منذ وقت بعيد. وتبعًا لذلك يقول هول إن الهند لم يكن لديها سياسة حقيقية ولا دولة حقيقية. "عرقل البراهمة ظهور الحكومات القوية" (P.27). "لم يكن لدى الهند تاريخ سياسى"(١٠). ثم يرسم صورة للهند فى مراحل تاريخها المتعاقبة كدولة تحكمها طبقة البراهمة وليس الملوك أو الأباطرة. ولذا فالسياسة فى الهند كانت ظاهرة ثانوية ومثيرة للسخرية. لم تستمر الحكومات طويلاً. كان على الملوك أن يخوضوا حروبًا لا طائل من ورائها، كما كانوا لصوصًا ("فهم ببساطة أخذوا ما يستطيعون الحصول عليه" P.28). كانت الحكومات "تنهب كل شىء... وغير قادرة نهائيًا على توفير البنية الاجتماعية الأساسية" (P.29). يتماشى كل هذا مع النموذج المركزى الأوروبى عن التاريخ الهندى كرسم مختلف الألوان من الحروب والفراغ السياسى، الذى لا يعنى أى شىء سوى الجمود والركود والتخلف الدائم. يستخدم هول نظرية مفادها أن قوة تلك الطبقة وفيها القوة الاجتماعية (المزعومة) للبراهمة ممن ليس لديهم طموح سياسى (الذين ينظمون الحياة الاجتماعية فى إطار اجتماعى وليس سياسيًا) هى ما يفسر هذا الأثر فى التاريخ الهندى: لا سياسة ولا تغيير. والحقيقة أنه لا شىء من ذلك كله صحيح. الدول الهندية القوية كانت هى القاعدة وليست الاستثناء(١١).

افتُتن هول بحقيقة أن الهند كانت موحدة تحت ظل إمبراطورية شبه قارية واحدة لثلاث فترات قصيرة نسبيًا فى تاريخها، ويبدو أن هذا هو أساس مجادلته، أى أنه كانت هناك فوضى سياسية دائمًا. ما يثير الدهشة، كما سنرى، هو افتخاره بقدرة أوروبا على تجنب شرور الحكم الإمبراطورى، حيث يُرى غيابه فى أوروبا على أنه تقدم؛

بينما يرى عكس ذلك تمامًا فى الهند. يجب أن نلاحظ أن الهند كشبه قارة كبيرة جدًا وبها تعداد سكانى كبير، وصعوبة توحيدها فى دولة إمبراطورية واحدة لا تعنى شيئًا بالنسبة لقوة دولها الصغرى، والحقيقة أن الكثير منها كان طويل الأمد وفقًا لمقاييس مناسبة لأى حقبة تاريخية معينة كما كانت تعتبر قوية. بوجه عام، كان هناك دولة واحدة كبيرة تتحكم فى المناطق المركزية والسفلى من نهر الجانج على مدى حقب طويلة، بالرغم من تغير الأسر الحاكمة بالطريقة المألوفة فى أوروبا. فى جنوب الهند، استمرت دولة الڤيجياناجار Vijyanagar لأكثر من ألف عام. وكانت هناك دول أصغر عديدة. لكن أن نتجاهل كل هذا وندعى أن الهند كانت بلا دول فهذا محض جهل، وهو فى الواقع بعثٌ لخرافة مفيدة جدًا روج لها الإنجليز فى الأوقات الاستعمارية مفادها أن الهند لم يكن لديها حكومة بخلاف إمبراطورية المغول Mughal الأخيرة المتداعية والتى لا قيمة لها، إذًا لم يكن هناك عقبة قانونية أو دبلوماسية أمام خلق إمبراطورية هندية إنجليزية: كانت الهند عبارة عن فراغ سياسى قامت فيه إنجلترا بسكب السياسة الحقيقية. بالإضافة إلى ذلك، سمحت هذه الخرافة للإنجليز بالادعاء بأن قوانين الدول المحلية التى تحكم ملكية الأرض كانت باطلة (وذلك لأن الدولة لم تكن دولة حقيقية)، إذًا يمكن للإنجليز أن يستولوا على الأرض وفقًا لرغبتهم حين يحصلون على مرسوم تنصيب الملكة ڤيكتوريا مكان إمبراطور المغول وبهذا تُعطَى الملكة الملكية الفنية للأرض. (فى نظرية الاستبداد الشرقى من المفترض أن الملك هو من يملك الأرض). الادعاء بأن التاريخ الهندى كان غير مهتم بالسياسة قبل مجىء الإنجليز، هو ادعاء باطل كما أنه خرافة استعمارية.

يقول هول إن الطبقية منعت الهند من توفير البنية الأساسية المطلوبة للتطور الاقتصادى. كذلك منعت ظهور صفات اجتماعية أخرى تعتبر ضرورية له. بسبب النظام الطبقى، يقول هول (فى تعليق غريب حقًا) إن الهند "لم يكن بها أى إحساس بالأخوة"[١٢]. وكانت مجتمعًا "يقوم على الفرقة أكثر من إمكانية التجربة المشتركة". وقد أثر هذا بطريقة عكسية على التعامل الاقتصادى بين الناس. كانت ملكية الأرض غير مستقرة بسبب الفوضى السياسية إذًا "لم يكن لدى الفلاحين أى سبب للاستثمار".

"وأثبتت الطبقية أنها تضعف الحياة الاقتصادية" (P.28). أحكمت الطبقية قبضتها على المجتمع لدرجة الجمود وبذلك منعت التطور الاقتصادى. تصريحات من هذا النوع هى صحيحة دون شك لفترات قليلة ولبعض الأقاليم ولكن يمكننا تقديم أقوال مشابهة تقريبًا عن التسلسل الهرمى الاجتماعى والمعوقات الاجتماعية للتغير الاجتماعى فى أوروبا قديمًا. أما بالنسبة لحقب أقرب إلى الحديثة فإن هول يُرضى نفسه ببعض التعليقات النمطية المألوفة عن المغول (مثلاً "التبذير الارستقراطى الغريب") (P.83). ولكنه لا يذكر حقيقة أن ما يقرب من ثلث الهند كانوا مسلمين وليسوا هندوسًا فى أوائل الفترة الحديثة، وتلك الأقلية الجوهرية كانت مفصولة عن النظام الطبقى. يفشل هول كذلك فى ذكر الأدبيات الكثيرة الخاصة بالنظام الطبقى نفسه، والتى أظهرت أن معظم جوانب هذا النظام المتشددة بالإضافة إلى أمور أخرى أتت متأخرة وربما لم تستمر. أى أن النظام ككل كان مرنًا ومتنوعًا فى أبعاده بدرجة كبيرة واستمرت الحياة الاقتصادية بتدخل قليل جدًا من قوانين الطبقية. على سبيل المثال: ٩٠٪ أو ما يقرب من الهنود كانوا فلاحين من طبقات مختلفة يقومون بالأنشطة المعتادة بغض النظر عن عضويتهم الطبقية[١٣]. أما الأكثر أهمية فهو الحقائق الخاصة بالتطور الاقتصادى الذى حدث فى الهند. عندما وصل الإنجليز فى القرن السابع عشر كان هيكل الصناعة فى الهند أكثر تقدمًا منه فى إنجلترا، كما كانت التجارة كثيفة فى شبه القارة. وكان التجار الهنود فى الموانئ منظمين وكانوا بالفعل جزءًا من شبكة تجارية امتدت فى الهند وما وراء المحيط الهندى وكانت فوق مستوى المنافسة بالنسبة للتقدم فى مجال تقنيات العمل والبنوك، وما شابهها خلال الفترة التى وصل فيها الأوروبيون إلى الشواطئ الهندية[١٤].

كيف يفسر هول إذًا الصفات الغريبة التى يدعى وجودها فى الهند؟ بعيدًا عن إيماءة أو اثنتين ناحية البيئة (على سبيل المثال، هو يعتقد أن "الأدغال" فصلت الشمال عن الجنوب وبذلك تدخلت فى الوحدة السياسية) (P.68). الطريقة الوحيدة للتفسير هى نوع من الحتمية الدينية والفكرية تذكرنا بماكس ڤيبر[١٥]. يتضح ذلك من استخدام هول أحادى التفكير للطبقية كتفسير لكل شىء آخر. تعامل قوة الطبقية ببساطة على أنها بديهة: يقبلها الهنود بسبب تحكم الديانة فى عقولهم. وتقارن المسيحية هنا بأنها

"نوع أكثر عقلانية من الديانات". كما أن المسيحية كانت "أكثر اضطلاعاً بالسياسة"(١٦). يبدو هذا متناقضًا مع طريقة هول فى تحليل تاريخ الصين، ولكنه ينطبق على هول وڤيبر طالما كانت العقلانية (وعلى وجه التحديد العقلانية الدينية) هى النظرية السببية الأساسية بالنسبة لهما. تذكر أن ڤيبر أقام وزنًا كبيرًا للديانة فى الهند ولم يتورع عن وصف الصينيين باللاعقلانية بل بأنهم لصوص وأوغاد.

"الإسلام والرعوية"

ضمنيًا يعنى العالم الإسلامى للأوروبيين من ذوى الفكر التقليدى: الأعراب الرُحَّل الذين يتنقلون فى الصحارى ويغيرون بين الحين والآخر على مستوطنات للسلب والنهب وإجبار الناس بالقوة على اعتناق ديانتهم الصحراوية، المتعصبة والغريبة. ما زال هذا الفكر الوهمى مقبولاً بشكل واسع من قِبل نظريات تاريخية عن سبب حداثة المجتمعات الأوروبية وتراجع المجتمعات الإسلامية، ونظرية هول ليست استثناءً، بل إنها فى الواقع تعتبر تقليدية فى استخدامها للنماذج الشائعة. بداية "الإسلام والرعوية" هو عنوان الفصل الذى يناقش الحضارات الإسلامية فى "القوى والحريات"، والقسم الذى يناقش الدين الإسلامى فى الفصل كان بعنوان "الوحدانية ذات الوجه القبلى". فكرة القبلية والعرب الرحل دخلت فى نسيج المناقشة. كان التفسير الكلى لتأخر المجتمع الإسلامى فى هذا النموذج: كان المجتمع فى أعماقه ما هو إلا جماعة من البدو المتعصبين.

دعونا نضع هذا الأمر فى نصابه قبل أن نلقى نظرة على مجادلة هول. مصطلح "إسلام" يمكن أن يستخدم فى مناقشات عن فترات ما قبل الحداثة لوصف الإقليم الذى يوجد به أغلبية مسلمة، تمامًا مثل مصطلح "العالم المسيحى" عندما يصف إقليمًا آخر. ولكن فى نهاية العصور الوسطى مثل اليوم فإن هذا الإقليم الدينى يحتوى على تنوع هائل من الحضارات. كان هناك بالفعل شعوب رعوية فى صحارى ومراعى شمال أفريقيا وجنوب غرب ووسط آسيا، شعوب ربما لم تكن فى حقيقتها "بدوية" - أى لم تكن تعتمد على الترحال بدون مقاطعة محدودة بها - ولكنهم كانوا بالرغم من ذلك

متنقلين ويرعون القطعان. ولكن بعض أجزاء العالم الإسلامى كانت أقاليم زراعية مطيرة فيما بين أكثر مناطق العالم إنتاجًا واكتظاظًا بالسكان: على سبيل المثال معظم جاوا والبنغال، جزء من جنوب الهند ووادى نهر الجانج. أما المناطق الأخرى فكانت مناطق جافة تعتمد على الرى وكانت أيضًا منتجة ومكتظة بالسكان: مصر، وادى دجلة والفرات، أجزاء من مستجمع الأمطار فى نهر الإندو Indus. إذًا التصنيف الجغرافى الذى تدل عليه كلمة "إسلام" بينما يدل على أراضٍ جافة جدًا فى نصف الكرة الأرضية الشرقى، فهو يدل كتصنيف اجتماعى على شعوب زراعية مستقرة لا علاقة لها بالصحراء والرعى والبداوة أو أى شىء من هذا القبيل. ربما كان هناك مسلمون فى الهند وجنوب شرق آسيا أكثر منهم فى الصحارى.

ما التبرير إذًا فى محاذاة "الإسلام" مع "الرعوية"؟ الإجابة الواضحة هى أن الديانة الإسلامية ظهرت فى شبه الجزيرة العربية وأخذت فى الانتشار على يد العرب الذين اهتدوا وخرجوا لأقاليم ثقافية عديدة أولاً بواسطة الغزو ثم لاحقًا بواسطة الطرق السلمية. من الحقيقى كذلك أن القرآن يشير إلى الظروف الصحراوية وكذلك يشير العهدان القديم والجديد. ولكن فى قرون متأخرة أصبحت الروابط بالثقافة العربية خاضعة فى معظم الأقاليم لثقافات محلية مثل الجاوية، الهندية، السواحلية وغيرها والتى كانت فى معظم الحالات مجتمعات ذات ثقافة زراعية وتجارية وليست رعوية. لو وصلنا إلى القرن السابع عشر وقت صعود الرأسمالية فمن المعقول كذلك أن نتحدث عن "المجتمع الإسلامى" ولكن فقط إذا كان الاستخدام واسعًا كالذى يتضمنه مصطلح "المجتمع المسيحى" أى مسيحيو الفلبين والهند وإثيوبيا والأمريكتين، مع هؤلاء فى أوروبا.

وصف هول وغيره من مؤرخى المركزية الأوروبية الشعوب الإسلامية بطريقة تؤكد البدواة والرعوية والترحال وثقافة الحرب وما إلى ذلك لأن هذا الوصف يتناسب مع النموذج الذى استخدمه الأوروبيون لعدة قرون لتصنيف تلك الشعوب الإسلامية الذين تسببوا – لنقلها بصراحة – فى مشاكل بالنسبة للأوروبيين: مجتمعات شمال أفريقيا وغرب آسيا فى العصور الوسطى والشعوب صعبة المراس فى الفترة الحديثة،

التى تصرفت بطريقة لا عقلانية فى مقاومة القمع الاستعمارى: السودانيون من ذوى الشعر الذى يشبه الزغب، "القراصنة البرابرة" وقبائل البربر فى شمال المغرب فى شمال أفريقيا و"الرجل الغول" (قراصنة فى جنوب غرب إندونسيا) وهكذا. ربما الأكثر أهمية من ذلك أثناء الفترة الاستعمارية، الحاجة لإظهار الشعوب الإسلامية فى صورة متطابقة مع النماذج الرمزية المستخدمة للأفارقة والهنود والصينيين وغيرهم وهى نماذج من شأنها تفسير افتقاد تلك الشعوب للرشد العقلى مما جعلها فى حاجة لإشراف استعمارى لإدارة شئونها. واليوم يستخدم نفس النموذج لتفسير لماذا هم ليسوا على درجة كافية من الرشد تساعدهم على التقدم والتطور إلا إذا كانوا تحت سيطرة الدول الأوروبية (بما فيها الولايات المتحدة) والمؤسسات الكبرى متعددة الجنسية التى يملكها أوروبيون. لهذه الأسباب وغيرها، نموذج الشعوب الإسلامية "كمحاربين على ظهور الخيل" وقبليين غير عقلانيين ومتعصبين وما شابه، ما زال فعالاً ومقبولاً فى الأوساط الأكاديمية. إحدى وظائفه بالطبع هى دعم فكرة أن الشعوب الإسلامية لا تستطيع تحت أى ظرف من الظروف أن تصل إلى الحداثة وحدها، أى أنه دعم لنظرية "المعجزة الأوروبية" ولكن بطريقة أخرى، ويستخدمها هول بنفس الطريقة تماماً.

مناقشة هول للإسلام لها هيكل جدلى بسيط. القسم الأول يصف "الإسلام الكلاسيكى" كمجتمع وديانة معًا. لدينا هنا مناقشة للعالم العربى والديانة الكلاسيكية حتى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد، وتنقص هذه المناقشة الشعوب التاريخية الأولى التى أصبحت إسلامية. وكأن التصنيف الاجتماعى "إسلام" ظهر، كاملاً، منذ ولادة الديانة. (وكان النموذج على وجه الدقة هو لبدو ظهروا وانتشروا من شبه الجزيرة العربية الغامضة). إذًا ليس هناك إشارة لمصر القديمة وبلاد الفرس، ولا لغيرها كجذور ثقافية. بتجاهل الحضارة ما قبل الإسلامية ثم تجاهل التاريخ الحديث بعد تلك الحقبة الكلاسيكية يحصل هول على نموذج لمجتمع من النوع البدوى مع ديانته المميزة التى تأتى لتسيطر على إقليم واسع وبالتالى تعطى هذا الإقليم شخصيته الدائمة. يسمح هذا النموذج لهول أيضًا أن يتجاهل، فى معظم النواحى، الصفات الحضارية الخاصة لكل الشعوب الإسلامية اليوم: الباكستانيون والإيرانيون والإندونيسيون والنيجيريون، وغيرهم مبقيًا على "الإسلام والرعوية" فقط.

يجد هول فى الإسلام الكلاسيكى "عدم ثقة فى ممارسة القوة السياسية"، وقد عكس ذلك حقيقة أن المسلمين الأوائل كانوا من القبائل العربية التى "شعرت بالغربة فى أرض الغزو". وحدتهم الديانة ولكنهم كانوا قبليين رحل ولذا "اتجهت سلطة الحكم لأن تكون غير مستقرة" (P.29). مع التسليم بأن الإمبراطورية العثمانية كانت استثناءً فى هذا الإطار، فإن هول يعتبر عدم الاستقرار هذا صفة عامة للإسلام خلال تاريخه. اتجهت الديانة، وليست الدولة، لأن تكون مصدر الشرعية فى المجتمع (P.89).

وفى الواقع يقول هول إنه لم يكن هناك مجتمع:

> وماذا كان المجتمع؟ كان منطقة ثقافية كبيرة أتت وذهبت فيها دول ذات أحجام مختلفة.... كان منطقة تربط بينها أيديولوجية واحدة (P.89).

إذاً لدينا صورة لثقافات ساكنة لا علاقة لها ببعضها البعض، بدون مجتمع حقيقى، بدون حكومة حقيقية، بلا تاريخ، محكومة بواسطة قبليين غرباء وديانة مستوردة.

بعد رسمه لتلك الصورة الكلاسيكية، يتحول هول الآن - حيث إن هذا يعتبر إلزامًا فى معالجات المركزية الأوروبية للشرق الأوسط - لابن خلدون. يعد ابن خلدون بحق أحد المنظرين الاجتماعيين العظماء فى كل زمان ولكن شهرته الواسعة بين مؤرخى المركزية الأوروبية من أمثال هول ترتكز على حقيقة وصفه للمجتمع الإسلامى والمجتمع المدنى فى المغرب فى القرن الرابع عشر الذى كان فى مرحلة انهيار، وقام بتحليل هذا التدهور وتنبأ باستمراره. أى أنه يقدم لمؤرخ المركزية الأوروبية بعض المجادلات المفيدة التى أجازتها طريقة تفكير ابن خلدون، والحقيقة المهمة أنه هو نفسه كان مسلمًا. كان تحليل ابن خلدون صحيحًا فعلاً بالنسبة لوضع المدن التجارية الصغيرة المطلة على الساحل الشمالى الأفريقى وكانت فى حالة تدهور بسبب تحول القوة الاقتصادية والسياسية خلال تلك الفترة باتجاه الشرق وبسبب القوة الصاعدة للدول المسيحية الأيبيرية فى الشمال. ولكن لا يمكن تعميم ذلك على مجتمعات مسلمة أخرى فى ذلك

الوقت أو بعد ذلك. يقول ابن خلدون إن سبب المشكلة يتركز فى تأثير الرعاة القبليين على تلك المدن وهو الأمر الذى أدى إلى عدم الاستقرار بل وإضعاف طبقة الصفوة المدنية، وكان الأثر العام هو الركود وانهيار الحضارة. وبالنسبة لهول فإن تلك محاولة لإثبات أولاً، أن الرعاة القبليين هم سبب عام ودائم لعدم الأمن ومشاكل أخرى مختلفة فى مراحل الإسلام المختلفة. وثانياً، أن الركود والانهيار هو خاصية عامة للإسلام، وهو يعتقد أن ابن خلدون أثبت صحة المجادلتين. هذا التعميم لا أساس له كاستنتاج من ابن خلدون وكصفة للمجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى وأوائل الفترة الحديثة. باختصار، بعد وصف ما يسمى بالطبيعة الرعوية للإسلام الكلاسيكى وعكسها على المستقبل، يضيف هول بعد ذلك الوصف الخاص بالمدينة الإسلامية فى العصور الوسطى المحاطة والمعذبة بالرعاة القبليين، وبالتالى يعكس مستقبلاً فى العصور الوسطى (ولاحقًا) فكرة الركود وعدم الاستقرار وعدم القدرة على التحديث.

وهناك إضافة ملتوية عندما يتحدث هول عن المدينة الإسلامية (ما زال يستخدم ابن خلدون كنقطة انطلاق). ويدّعى هول أن المدينة لم تكن مستقلة وكانت فى حالة شبه فوضى وذلك لأنها كانت محكومة بواسطة غرباء، ولذا كانت غير قادرة على تطوير اقتصاد مدنى مثل ذلك فى أوروبا. فى الواقع، إن وصفه لما يسمى المدينة الإسلامية يمكن أن يكون صحيحًا (أو خطأ) بالنسبة للمدن الأوروبية فى العصور الوسطى كما هو بالنسبة لمدن الشرق الأوسط: القليل من المدن الأوروبية كانت متحررة من حكم اللوردات السياسى وقد حدث تطوير الرأسمالية فى وحول تلك المدن الأوروبية فى أوائل الفترة الحديثة عندما كانت مدن الشرق الأوسط المهمة - وليس الموانئ التجارية المنهارة فى شمال أفريقيا - تعج بأنشطة تنبئ برأسمالية أولية. فى نهاية القرن الخامس عشر كانت القاهرة واحدة من أهم المدن الصناعية فى العالم. مدن إسلامية أخرى بعضها كانت مدنًا / دولاً، وبالتالى كانت مستقلة فى الواقع وكان لها نشاط تجارى مكثف فى تجارة العالم، أكثر من المدن الأوروبية فيما عدا جنوه والبندقية. كما كانت تلك المدن تطور طبقة برجوازية أو طبقة من التجار مع حلفائهم وأصحاب الأرض من ذوى العقلية التجارية.

ويمكن اعتبار علاقات الطبقات صفة لبدايات الرأسمالية فى نهاية العصور الوسطى فى المدن الإسلامية، كما كانت فى الأوروبية. يدعى هول بعدم وجود معنى "للحرية" فى المدن الإسلامية على عكس الأوروبية وهذا هراء. ويذهب أبعد من ذلك حين يدعى أن غياب الاستقلالية فى المدينة الإسلامية أدى إلى عرقلة تطور التكنولوچيا والعلم (بالرغم من أن التكنولوچيا فى معظم المجالات كانت على الأقل مرتفعة وربما أكثر ارتفاعاً فى مدن الشرق الأوسط الكبرى منها فى المدن الأوروبية الكبرى فى نهاية العصور الوسطى)، بل ويذهب أبعد من ذلك حين يدعى أن هذه العراقيل كانت بسبب طبيعة العقيدة الإسلامية التى، بصورة لا عقلانية، قللت من أهمية "القانون الطبيعى" وذلك لزعمها أن الله يتدخل فى العالم (P.101). ألم تقدم المسيحية نفس الادعاء(١٧)؟

يلخص هول هذا الأثر "المانع" للإسلام والمجتمع الإسلامى من التطور الاقتصادى فى الفرضيات التالية، (ليس أى منها صحيح). أولاً، يدعى أن البيئة الطبيعية كانت لها يد فى ذلك. لا يمكن أن نجد مثل "التربة الطينية فى شمال أوروبا" فى العالم الإسلامى (P.99). تلك التربة فى الحقيقة لم تكن منتجة بصورة استثنائية. فى الشرق الأوسط ومعظم آسيا كانت هناك مناطق بها تربة ذات إمكانات زراعية أعلى من التربة فى شمال أوروبا. ثانيًا، يربط بين عدم الاستقرار المزعوم فى السياسة الإسلامية مع أنظمة امتلاك الأرض، مدعيًا أن نموذج ملكية الأرض فى الإسلام كان غير مستقر للدرجة التى لم تسمح لملاك الأرض بالاستثمار فى التحسين الزارعى. إن تعميماً بهذا الحجم للإسلام ككل لا يمكن على أية حالة أن يؤخذ مأخذ الجد. بالرغم من ذلك كانت الزراعة فى العصور الوسطى فى أجزاء عديدة من الإقليم المسلم متطورة وتجارية. ربما كان عدم الاستقرار فى الانتفاع بالأرض أقل منه فى أوروبا فى فوضى الإقطاع وحروبه ونماذجه المعقدة لملكية الأرض. على أية حال، اتجه الفلاحون الذين قاموا بمعظم الابتكارات الزراعية فى ذلك الوقت (ولكن ليس دائمًا) إلى أن يكون لديهم حائط صد ضد عدم الاستقرار السياسى فى معظم الأقاليم فى كل القارات. ثالثاً، يقدم هول المجادلة التى سبق أن ناقشناها عن المدينة وفقدان الاستقلالية والاستقرار وما إلى ذلك.

فى كل هذا نجد السببية الأساسية جزئيًا فى الديانة مما يذكرنا بڤيبر، وجزئيًا نجدها تتعلق بعدم الاستقرار السياسى "الرعوية"، أى فقدان لنوع الدولة المطلوب لإحداث التطور(١٨). يجد هول اللاعقلانية فى المجتمع الإسلامى كما يجدها فى المجتمع الهندى والصينى. ويجد الاستبداد الشرقى كذلك: دولة "وحشية" غير مستقيمة، منذورة للحرب اللاعقلانية "فى المجتمع الإسلامى كانت الحروب دائمًا مصدرًا ممكنًا للربح" (P.102). وعليه فلا إمكانية للتقدم نحو الحداثة.

نهضة أوروبا المسيحية

يكفى هذا عن الصين والهند والإسلام. يتحول هول الآن نحو أوروبا المعجزة. يلقى بعدد كبير من الأسباب المختلفة "للمعجزة الأوروبية" بالرغم من أنه يؤكد بشدة على المسيحية - فى مجادلة ڤيبرية معروفة ولكن بتعديل بسيط - وكذلك على الدولة الأوروبية والتى ينظر إليها باعتبارها نتاجًا للمسيحية فى الأساس. ومع ذلك، فإن هول يعتبر انتقائيًا ولا يمكن اعتبار المجادلة كلها حتمية دينية. يبدو فى الواقع، أنه يريد أن يُضمن كل الأسباب التى يمكن أن يفكر فيها لنهضة أوروبا الفريدة. ويبدأ مع البيئة الطبيعية فى أوروبا.

كانت أوروبا محظوظة بيئيًا.

> هذه القارة هى منطقة مقسمة مع عدة مناطق مركزية صغيرة، غالبيتها لديها تربة طينية عميقة منتجة تعتمد على مياه الأمطار. لم يكن هناك داع للرى. ومن المحتمل أن هذا قد شجع أو على الأقل سمح بقيام حضارة زراعية لا مركزية مرتكزة على المبادرة الفردية (P.111).

لقد قمنا بالرد على تلك المجادلات البيئية الجوفاء فى مناقشتنا لكتاب چونز "المعجزة الأوروبية" والذى من الواضح أنه مصدر هول(١٩). كما رأينا أن فكرة "المراكز البيئية" ليس لها معنى سببى فى تطور أوروبا الفريد، كما أن نموذج المراكز الخصبة نسبيًا المحاطة بأطراف من الهضاب أو المستنقعات ليس خاصًا بأوروبا فقط. كما أن

أوروبا ليست فريدة فى "تقسيمها" (لاحظ على سبيل المثال جنوب شرق آسيا بشبه الجزر والأرخبيلات والرؤوس والخلجان). كما قمت بالتعليق كذلك فى الفصل الخامس على خرافة أن "تربة أوروبا الطينية" منتجة بشكل خاص. فهى من معظمها تربة مشبعة بالمياه وحمضية، وبالرغم من أنها ربما تكون منتجة فى المتوسط فى ظل الإدارة اليقظة، فهى ليست أفضل من تربة كثير من المناطق فى أفريقيا وآسيا. أما بالنسبة للرى فهنا أيضًا نجد خرافة "الاستبداد الشرقى" الكلاسيكية. يرفض هول مجادلة فيتفوجل Wittfogel الشهيرة أن الرى يؤدى إلى دولة قوية ويقبل الأطروحة (الكلاسيكية) الأساسية وهى أن "الحاجة" إلى الرى تجبر المجتمعات على الاستبداد وذلك لأنه من المفترض أن الرى يتطلب هيكلاً سلطويًا للحفاظ على أعمال المياه، ولكن ليست هناك "حاجة" للرى. ترى المجتمعات فى بعض الأحيان أن تطوير نظم الرى يؤدى إلى إنتاج أكبر، ازدهار وتقدم اجتماعى (على الأقل بالنسبة للصفوة الحاكمة). كانت معظم نظم الرى القديمة على نطاق صغير وربما تحكمت فيها القرى والمجالس القروية الداخلية الصغيرة وليس مظلة الحكومة؛ أما فكرة أن تكنولوجيا الرى تتطلب حكومة مستبدة بصورة أو أخرى فهى مجادلة علمية خاطئة مبنية فقط على حقيقة أن الحضارات القديمة كان بها حكومات استبدادية – لم تكن ما يمكن أن نصفه بالديمقراطية – وكان بعضها يقوم بتطوير نظم رى راقية كلما تطور اجتماعيًا. كما أنه ليس هناك صحة فى مفهوم أن تربة أوروبا أدت إلى وجود "حضارة زراعية قائمة على المبادرة الفردية". لم يكن لأوروبا أى ميزة بيئية على أفريقيا وآسيا[٢٠].

يرجع هول الفضل للإمبراطورية الرومانية كمصدر أساسى لنهضة أوروبا، وهو هنا ينحرف عن مسار مجادلات المؤرخين الآخرين الذين نناقشهم فى هذا الكتاب (وبخاصة چونز ومان ولاندز الذين كانت روما بالنسبة لهم واحدة من "الإمبراطوريات" الأخرى). نحن على علم بالكم الهائل للابتكارات الحضارية التى ظهرت فى هذه الإمبراطورية والكنيسة القديمة. أولاً، يقارن هول بين روما مفضلاً إياها على الصين القديمة. كانت أكثر كوزموبوليتانية وتعددية (وهذا ليس صحيحًا). جلبت الحضارة لأرض بربرية فى حين لم تقم الصين بهذا (ليس صحيحًا أيضًا). كان يوجد بها قانون

وتمرد وتسامح أكثر من الصين (خطأ). كان لديها إمكانات اقتصادية أكبر قائمة على الثقافة واستخدام العملات (غير صحيح، فكلاهما موجود فى الصين). ولكن فضيلة روما الأساسية كانت فى دورها كمهد للكنيسة المسيحية. ويشرح لنا هول كيف جلبت الكنسية التقدم لأوروبا بصورة لم تستطع القيام بها كنائس أو مؤسسات أخرى فى مناطق أخرى (هنا أيضاً حكم مقارن قائم على عدم معرفة بالمناطق غير الأوروبية). فكرة المساواة فى الكنيسة القديمة ليست محل شك بالطبع، ولكن هول يراها مصدراً للديمقراطية فى التاريخ المتأخر لأوروبا (متجاهلاً الدور المحافظ اجتماعياً لكنيسة العصور الوسطى والمساواة فى الإسلام فى تلك الفترة). يقارن هول بين ترحيب المبشرين المسيحيين بنشر الحضارة بين البربر والهمج ورفض الصينيين المزعوم للقيام بنفس الدور، هذا فى مقابل معرفتنا بالبوذيين والمسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة هداية الناس فى الصين وما حولها. لتلخيص كل ذلك يقول هول "ارتدت الكنيسة رداء روما. وكان هذا الرداء هو الحضارة" (P.120). صحيح ولكن ليس كمجادلة عن المعجزة الأوروبية.

ثم يركز هول بعد ذلك على ما يعتبره ثورة تكنولوجية فى شمال أوروبا (وغيرها) أثناء بدايات العصور الوسطى، ويقول إنها حدثت بسبب ديناميكية الاقتصاد الأوروبى، كما كانت مرتبطة بظهور السوق المستقلة - وهو أمر سنناقشه بعد قليل. تحتوى تلك الثورة التكنولوجية المزعومة على قائمة الابتكارات نفسها التى سردها لنا لين وايت الابن وإيريك چونز. كانت "طاحونة الماء" معروفة للرومان ولكنها استخدمت الاستخدام الأمثل، وهذا وفقاً لهول، فى شمال أوروبا فى العصور الوسطى حيث "كان هناك استثمار ضخم على المستوى المحلى" (P.121). كانت معروفة ومستخدمة فى مناطق أخرى فى نصف الكرة الشرقى. المحراث الثقيل كذلك كما يقول هول كان معروفاً للرومان ولكنه استخدم فى شمال أوروبا بعد ذلك مع كل الآثار الرائعة التى سردها وايت وچونز. (تذكر من مناقشتنا للموضوع فى الفصل الثالث أن المحراث الثقيل كان مستخدماً فى الهند قبل ذلك بألف سنة، والمجادلة السببية من المحراث للمجتمع مجادلة واهية). بعد كل ذلك فإن الثورة التكنولوچية أوضحت أن "هذا المجتمع أظهر مهارة فى

الاختراع، بل وأكثر من ذلك في اقتباس وتعديل الاختراعات التي استعارها من الإسلام والصين" (P.122). إن الإيحاء هنا هو أن المجتمعات الأخرى كانت أقل قدرة على الاختراع وربما كانت أقل ترحيبًا بفكرة الاستعانة بجيرانها (لدينا هنا أيضًا ادعاء ڤيبرى بالعقلانية الأوروبية)؛ وكما يقول هول فقد ظهرت أهمية العملية التكنولوچية السببية في زيادة السكان. لقد حدث بالفعل التقدم التكنولوچي وأدى إلى زيادة السكان ولكن الشيء نفسه حدث في مناطق أخرى، ومع ذلك ينظر هول إلى زيادة السكان في مناطق أخرى باعتبارها مأساة مالثوسية. كان نمو السكان تقدمًا في أوروبا ولكنه كارثة في غيرها.

يقدم هول الآن المجادلة التقليدية وهي أن نماذج حيازة الأرض في عهد الإقطاع أدت إلى تطور اقتصادي فريد في أوروبا، ويؤكد ما يسميه أمان نماذج امتلاك الأرض، مدعيًا خطأ أن الاستقرار السياسي في العصور الوسطى كان أكبر في أوروبا منه في آسيا، وبالتالي استطاع أصحاب الأرض الاحتفاظ بها للاستثمار. من هنا يتحول إلى المجادلة الڤيبرية – الأقدم من مجادلته – التي مفادها أن حيازة الأرض في فترة الإقطاع كانت أقرب للملكية حقيقية خاصة منها إلى امتلاكها لأهداف خدمية، من المفترض أنها كانت من خصائص الإمبراطوريات الآسيوية. رأينا بالفعل في (الفصل الثاني) أن هذه المقارنة خطأ: امتلاك الأرض في آسيا كان قريبًا من الملكية الخاصة مثل أوروبا في تلك الفترة، أما امتلاكها لأغراض خدمية فقد اتجه في أوروبا الإقطاعية كما في آسيا لأن يصبح ممتلكات متوارثة(٢١). يضيف هول لتلك الصورة بالنسبة لأوروبا طبقة قوية من الفلاحين من صغار الملاك، "أحرار يمتلكون جزءًا من الأرض" ويلعبون دورًا أساسيًا في التقدم الاقتصادي (P.128). وهذا يعد اختزالاً للتاريخ. لم يكن الفلاحون في العصور الوسطى ملاكًا أحرارًا أو "صغار ملاك". ولكنهم كانوا عبيدًا ومستأجرين لديهم أعباء ثقيلة من الإيجار، الذي يدفع إما على صورة عمل أو إنتاج أو أموال. كانوا بالفعل تقدميين ولكن مفهوم هول هو المفهوم الحديث للفلاح الفردي، صاحب المشروع، مالك الأرض، مستثمر لرأس المال، مزارع من الملاك الصغار ويقدمه كأنه نموذج

الفلاح الصغير فى العصور الوسطى (لا شىء من هذا صحيح). صورة الاقتصاد النشط المتقدم بخطا سريعة فى أعماق العصور الوسطى غير صحيحة. كان هناك بعض التقدم بالطبع ولكن كان يوجد مثيله خارج أوروبا كذلك.

بعد ذلك يؤكد هول على تفرد الأسرة الأوروبية وإسهامها فى نهضة أوروبا الفريدة. فهو يعطى قدرة فريدة للأسرة الأوروبية على تجنب فخ الزيادة السكانية المالثوسية. على أساس "العفة النسبية للأسرة الأوروبية" (P.131). فهو يخبرنا عن عفة الأوروبيين التى افتقدها غيرهم، وبذا يخبرنا (مثل چونز) أن غير الأوروبيين إما غير عقلانيين أو شهوانيين فى عدم رغبتهم وعدم قدرتهم على كبح جماح رغباتهم الجنسية وبالتالى الحد من عدد أطفالهم. الأكثر من ذلك أن هول يجادل بتفرد الأسرة الأوروبية فى أمرين: كانت صغيرة (نووية وليست ممتدة) كما كانت غير مهمة نسبيًا كمؤسسة فى المجتمع ككل، وليس واضحًا ما إذا كان يتفق مع چونز فى أن أصل تفرد الأسرة الأوروبية يعود إلى أزمنة ما قبل التاريخ. فهو يوافق چونز فى التأكيد (خطأ) على أن النمو السكانى الهائل فى أوروبا "لم يقض على التحسن فى الإنتاج" كما كان الحال فى الصين (P.131). ولكن أكثر تأكيدات هول غرابة هو أن الأسرة النووية عكست نظام قُربَى ضعيفًا مما أدى بدوره إلى تقوية الدولة الأوروبية، كما يقول إنه لم تكن تربط بين الناس العاديين فى أوروبا روابط قربى قوية تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم، ما "جعل طبقة الفلاحين الأوروبية أساسًا فى تشكيل الدولة" (P.33)، وهذه محاولة غير منطقية قائمة على اعتقاد خاطئ وهو فكرة تفرد الأسرة الأوروبية؛ وكما ناقشنا قبل ذلك فهى لم تكن فريدة كما لم تكن استثنائية[٢٢].

إذا كان هول يرى المسيحية قوة أساسية فى المعجزة الأوروبية، فإن الدولة هى فى طليعة المؤسسات. لقد لاحظنا بالفعل كيف يجنب أشكال الدولة الموجودة فى الصين والهند والإسلام. هذه الأقاليم كان لديها إما حكومات سطحية أو أنها كانت إمبراطوريات وهذا أسوأ. (تذكر تعليقه العنيف: "تخيل شكل التاريخ الأوروبى إذا ما فرضت عليه أى إمبراطورية").

لم تكن الدولة الأوروبية ضعيفة جدًا أو قوية جدًا ولكنها كانت صحيحة (مثلما فى جولدى لوكس Goldilocks)(*). كانت "دولة حيوية". ثم يفرد مساحة لتعريف هذا المفهوم ولكنه فى النهاية يبقى حكمًا ذا قيمة. يظن هول أن الدولة الأوروبية فى العصور الوسطى كانت "حيوية" لأنها فعلت ما هو صحيح للمجتمع: وفرت الأمن والخدمات، وغيرها، ولكنها، فى الحقيقة، لم تقم بالكثير فى هذا الصدد. نجد تلك الصفات فى الدول الحديثة منذ القرن السابع عشر وما بعده؛ ومثله مثل غيره من مؤرخى المركزية الأوروبية الذين نناقشهم. يريد هول أن يعود بالكثير من الفضائل الإيجابية للمجتمع الأوروبى، التى ظهرت بعد نهضة أوروبا إلى الوراء إلى العصور الوسطى، فى حين أنها ظهرت بعد أن بدأت أوروبا عملية التحديث الاقتصادى. إذًا لدينا مجادلة خاطئة مفادها أن بذور الحداثة كانت موجودة قديمًا فى أوروبا وحدها. ولكن ربما لم توجد دول متكاملة فى أوروبا أثناء الفترة التى يناقشها هول. هذه الأمور نسبية بالطبع ومهما كانت درجة التكامل السياسى الموجودة فى بلاد مثل بريطانيا وفرنسا، فمن الممكن إيجاد مستويات مماثلة من التكامل فى قارات أخرى. كما لا نستطيع أن نقبل مجادلة هول أن الإمبراطوريات لم تكن متكاملة على نحو ما، أى أنها كانت مستبدة ومع ذلك ضعيفة وبالتالى أقل "حيوية" من الدولة الأوروبية. لا يقدم هول أى دليل على هذا التصريح، وبالفعل فإن مناقشته للأمر تقوم، كما رأينا، على عدم معرفة بالتاريخ الآسيوى.

لم تكن الدولة الأوروبية كما يقول هول فريدة فقط ولكن نظام الدولة كان كذلك أيضًا. هنا نجده يكرر مجادلة جونز عن المزايا الرائعة للنظام الأوروبى الداخلى الفريد فى العصور الوسطى، وهى المجادلة الواهية (كما رأينا فى الفصل الخامس) لأنه لم يكن هناك نظام حقيقى للدول حتى أوائل العصور الحديثة.

يستحضر هول عوامل كثيرة أخرى للمساعدة فى تفسير المعجزة الأوروبية ولكنها تستأهل المناقشة المطولة. يعتقد هول أن "العلم العقلانى" منتج خاص بالمسيحية - اليهودية.

(*) Goldilocks: قصة الدببة الثلاثة للمؤلف الإنجليزى روبرت سوذى. (المترجمة)

"أعيق العلم العقلانى... فى حضارات أخرى". ولكن ليس فى أوروبا. هنا يقترح هول أن الفكرة اليونانية العجيبة للقانون الطبيعى تزاوجت مع فكرة المسيحية - اليهودية العجيبة وهى أن الإله "ليس من عادته التدخل فى قوانين الطبيعة" (P.133).

كما رأينا فى مناقشتنا لمؤرخين أخرين، ڤيبر وچونز، فإن هذه النقطة هى أحد الانحيازات ضد الثقافات غير الأوروبية. كان التفكير العلمى صفة كل الحضارات الرئيسية[٢٣]. يظهر العلم الحديث فى أوروبا بعد بداية الحداثة الاقتصادية بفترة.

يبقى أن نذكر بعض المجادلات التى يقدمها هول عن الطرق التى ساعدت بها المسيحية أوروبا فى تطورها الاقتصادى فى العصور الوسطى. (كونها قامت بذلك ليس محل خلاف، ولكن زعمه أن النتيجة كانت هى التطور الأوروبى الاقتصادى المعجز الفريد فذلك محل خلاف). بعض الأدوار المزعومة التى لعبها الدين والكنيسة نوقشت بالفعل، على سبيل المثال: الأثر على العلم وعلى تحضر الهمج البربر. يضيف هول أدوارًا إضافية من بينها ما قامت به فعلاً فى تطور أوروبا ومنها ما لم تقم به. ولكنه يريد أن يثبت نقطة هامة عن أهمية المسيحية فى علاقتها بالدولة الأوروبية:

> وفرت المسيحية أفضل مظلة لظهور الدول (P.135)

من المفترض أن يتناقض ذلك مع الديانات الأخرى العظيمة فى أقاليم أخرى. المجادلة الحقيقية الوحيدة التى قدمت لهذا التأكيد الغريب هى ذكر كيف منحت المسيحية الشرعية للحكام وتوّجت الملوك وما إلى ذلك. ألم تقم كل الديانات بنفس الدور تقريبًا؟ المسيحية كما يقول هول "أبقت على وحدة أوروبا" بعد سقوط روما (P.123). هذا صحيح، ولكن ديانات أخرى قامت بدور الترابط الثقافى نفسه فى مجتمعات أخرى.

ولكن المسيحية:

> تختلف عن الإسلام... [و] الهندوسية من حيث إنها لم "تعق" السياسة وبذلك لم تخلق مناخًا من عدم الاستقرار من شأنه الحد من استقلال العلاقات فى السوق (P.143).

هذا هراء.

يمكن تلخيص نظرية هول ببساطة فيما يلى. اتجهت الرأسمالية بالطبع إلى التطور فى أوروبا، وكان ذلك طبيعيًا بنفس المعنى الذى قصده آدم سميث منذ زمن بعيد. بيئة أوروبا وسكانها (و"عفتهم" وعقلانيتهم وما إلى ذلك) ومؤسساتها السياسية والدينية، كلٌ لعب دورًا مميزًا مما سمح بالتطور الطبيعى لاقتصاد رأسمالى؛ أما فى المناطق غير الأوروبية فقد قام البشر والمؤسسات والبيئة "بعرقلة" هذا التطور. ولذلك نهضت أوروبا بينما تخلف غيرها.

مجادلة هول توليفة من نظريات ڤيبر ووايت وچونز، تستخدم أفكارًا مأخوذة من مان وبرينر. إنها قِدْرٌ تحوى مكونات اجتماعية مع تتبيلة سياسية خفيفة.

الهـــوامـــش

(١) Hall, Powers and Liberties: The Causes and Consequences of the Rise of the West (1985). Hall, "States and Societies: The Miracle in Comparative Perspective" (1988). Also see Hall and Ikenberry, The State (1989).

(٢) Hall, "States and Societies," pp. 24, 38; Hall, Powers and Liberties, pp. 141-144 and throughout.

(٣) يعلق هكر Hucker بأن "من الواضح أن حكومة مينج Ming وضعت عبئًا خفيفًا على الصينى العادى... مع الأخذ فى الاعتبار كيف حافظت على قوتها ودعمت رعاياها معنويًا وماديًا، ربما تستحق حكومة المينج أن تعتبر أكثر الحكومات نجاحًا فى العالم فى وقتها" فى "Ming Government" (1998), p. 105. أيضًا انظر Pomeranz, The Making of a Hinterland: State, Society, and Economy in Inland North China 1853-1937 (1993); Rowe, Hankow: Commerce and Society in a Chinese City, 1769-1889 (1984); Marks, Tigers, Rice, Silk, and Silt: Environment and Economy in Late Imperial South China (1998); Subramanian, "India's International Economy, 1500-1800" (1999).

(٤) Purcell, The Chinese in Southeast Asia (1951) يناقش هذا الأمر بالتفصيل فى الفصل الثامن.

(٥) تم تقديم هذه القضية دون أى مرجع. من الواضح أنه يعتمد هنا على كتاب جونز "المعجزة الأوروبية" (الذى يقتبس عنه هول بكثرة) الذى قدمت فيه هذه القضية كنتيجة لقراءة خاطئة لفيليسى Filesi China and Africa in the Middle Ages (1972). انظر Brook, "Communications and Commerce" (1998): "ازدهرت التجارة البحرية فى منتصف حكم مينج بالرغم من الإلغاءات الحكومية" (P.696). يؤكد هول وهو كذلك خطأ، بخصوص الاقتصاد الصينى خلال تلك الفترة، أن حكومة مينج تركت صك العملات وخلقت "اقتصادًا طبيعيًا صرفًا" (P.50) انظر: Von Glahn, Fountain of Fortune: Money and Monetary Policy in China, 1000-1700 (1996).

(٦) Frank, in ReORIENT (1998), يقتبس مصادر متنوعة تؤكد هذه الحقيقة. انظر كذلك Pomeranz, "De Long on David Landes" (1998).

(٧) قضية أخرى غريبة عن الثقافة الصينية: حقيقة أن الصين استخدمت لغة مكتوبة بلا حروف هجاء أدت نوعًا ما إلى "التلاحم بين الطبقة الأكاديمية والطبقة العليا". وبدون معرفة أكثر: "الصين على عكس روما كان لديها أصغر وحدة لغوية ذات معنى... حتى تربط طبقة الصفوة"، فى Hall, Powers and Liberties, p. 113.. كل اللغات بها وحدات لغوية صغيرة ذات معنى.

(٨) انظر على سبيل المثال Baechler, "The Origins of Modernity: Caste and Feudality (India, Europe and Japan)" (1988), pp. 39-66.

(٩) ميل هول لاستخدام الأنماط والمفاهيم المركزية الأوروبية التقليدية بخصوص الهند يجب أن يرتبط بحقيقة أنه يعتمد على مصادر قديمة هى أوروبية فى الأساس كما هو واضح. أما الاقتباسات فى كتابه فهى عن أعمال تعود لثلاثين سنة فى المتوسط والقليل منها عن مصادر هندية؛ وهذا يثير التساؤل بخصوص عادته فى تأكيد النوعية الضعيفة للمصادر التاريخية للهند: "نحن نفتقر إلى السجلات المكتوبة لتاريخ الهنود القديم، والتأريخ للهند من المحتمل أن يبقيها الأضعف من بين حضارات العالم. كان جزء من قوة البراهمة فى الحياة الهندية يرتكز على القدرة على الحفظ والاسترجاع أكثر من الإشارة لوثائق مكتوبة" (P.58) "الغياب النسبى للوثائق فى الهند يعنى أن السجل المقدم هو بالضرورة غير مؤكد" (P.78). لا شىء من ذلك صحيح. القصور فى هول وليس الهند.

(١٠) يكتب فى نفس الصفحة عن "قوة الهند السياسية التى فى غير محلها" ويقول عن السياسة الهندية إن هناك "الكثير من الضوضاء، ولكنها لا تعنى شيئًا".

(١١) Subrahmanyam, Merchants, Markets, and the State in Early Modern India (1990); Subramanian, "India's International Economy: 1500-1800" (1999).

(١٢) In Hall and Ikenberry, The State, p. 80. فى هذا الأمـــــر انظر Habib, "Merchant Communities in Precolonial India" (1990); Subrahmanyam, Merchants, Markets, and the State.

(١٣) انظر على سبيل المثال Dirks, The Hollow Crown: Ethnohistory of an Indian Kingdom (1987). يجب أن نلاحظ أيضًا أن المسلمين، وليس الهندوس، سيطروا على الاقتصاد التجارى الساحلى بجانب إمبراطورية المغول.

(١٤) Habib, "Merchant Communities in Precolonial India" (1990); Subrahmanyam, Merchants, Markets, and the State.

(١٥) اقتبس ڤيبر بكثرة فى "القوى والحريات".

(١٦) من المثير أن هول يناقض نفسه حول العلاقة بين المسيحية والسياسة. فى صفحة ٢٨ المسيحية كانت "منخرطة فى السياسة". ولكن فى صفحة ٢٩ "المسيحية... قالت إن هدف الدين روحى بحت وعلاقات القوة لا تهم ويمكن تركها تسير على هواها". يجد أنه من المفيد التأكيد على انخـراط المسيحية فى السياسة فى هجومه على الهند وعدم انخراطها السياسى فى هجومه على الإسلام.

(١٧) حول التطور التكنولوجى فى الأقاليم الإسـلامية انظر Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World: The Diffusion of Crops and Farming Techniques, 7001100 (1983); Al Hassan and Hill, Islamic Technology (1986).

(١٨) يقدم هول مجادلة خاصة فيما يتعلق بالدولة العثمانية التى يعترف بأنها لا تتبع نموذج عدم الاستقرار الذى رسمه للإسلام ككل، فهو يعلن ببساطة أن تلك الدولة كانت لها مشاكل "الإمبراطورية" كما جادل بالنسبة للصين؛ ثم يستشهد بجونز فى أن أثر الدولة العثمانية كان سيئًا بشكل عام.

(١٩) هول لا يقتبس جونز ليدعم هذه الفقرة الدقيقة ولكنه يقوم بذلك فى كتابه وفى المقال.

(٢٠) تقدم مجادلات بيئية أخرى كذلك. فهو يردد مثل جونز أن أوروبا عانت من الكوارث الطبيعية بدرجة أقل من المجتمعات الآسيوية. تعاملنا مع هذه الخرافة فى الفصل الرابع. انظر الفصل الثانى فى الجزء الأول من الكتاب.

(٢١) انظر Kumar, "Private Property in Asia" (1985).

(٢٢) انظر مناقشة الأسرة فى الجزء الأول PP.128-135,149-151.

(٢٣) للمزيد انظر Goody, The East in the West (1996); Needham, Science and Civilization in China (1954-); Sivin and Nakayama, Chinese Science (1973).

الفصل الثامن

چارد دايموند

نظرية البيئة الأوروبية

الحتمية البيئية

لعبت نظرية الحتمية البيئية دوراً هامًا فى عمليات تشويه التاريخ التى قامت بها المركزية الأوروبية. لا تؤكد هذه النظرية الحقيقة وهى الواضحة أن البيئة الطبيعية جزء من كل تصرف إنسانى كما أنها تلعب دوراً فيه. الحتمية البيئية هى الزعم الخاطئ بأن البيئة الطبيعية تفسر بعض حقائق الحياة البشرية عندما تكون الأسباب الحقيقية، الأسباب الهامة، ثقافية وليست بيئية. ينصب اهتمامنا هنا على النظريات البيئية للتاريخ وعلى وجه التحديد تلك التى تدعى خطأ أن بيئة أوروبا الطبيعية أكثر تميزًا من غيرها فى مناطق أخرى من العالم، وأن هذا التميز هو الذى قاد الأوروبيين إلى السير قدمًا بل وأسرع من الشعوب الأخرى التى من المفترض أنها تعيش فى بيئة تعتبر فى مرتبة ثانية. دعونا نطلق على هذا النوع من المجادلة "نظرية الحتمية البيئية الأوروبية".

نظرية الحتمية البيئية الأوروبية هى إحدى ثلاث نظريات أساسية استخدمت فى القرن الماضى لتفسير تفوق أو تميز الأوروبيين عبر التاريخ. النظريتان الأخريان هما (كما أوضحنا فى الفصل الأول) "العنصرية البيولوچية" ومفادها أن الأوروبيين ورثوا تميزهم من خلال الچينات، و"الحتمية الثقافية" وهى أن الثقافة الأوروبية لسبب جوهرى

أيًا ما كان، أكثر تميزًا عن غيرها من الثقافات منذ زمن بعيد. عادة ما تستخدم هذه النظريات الثلاث فى ترابط مع بعضها البعض. فى الوقت الذى كان فيه الأوروبيون يعتقدون أن تقدمهم التاريخى كان بإرشاد فريد من إله مسيحى، بدا من المعقول الاقتناع أن الله يرتب لأوروبا أن تكون لديها بيئة متميزة وعوامل وراثية متميزة وثقافة متميزة. لم يكن ينظر إلى الحتمية البيئية الأوروبية باعتبارها مادية وجمالية بل على أنها أداة من أدوات الرب.

بعد حوالى منتصف القرن التاسع عشر لم يعد التنظير التاريخى يتجه نحو استحضار الألوهية، ولكن ما زالت معظم تفسيرات المركزية الأوروبية تحتوى على تركيبة من النظريات الأساسية الثلاث: العرق، الثقافة والبيئة. اختفى العرق من معظم المجادلات التفسيرية بعد الحرب العالمية الثانية وذلك بسبب الربط بين العنصرية والنازية. اليوم معظم نظريات المركزية الأوروبية للتاريخ تجادل بأن البيئة والثقافة معًا أنتجا تفوق أوروبا أو تميزها. بعض التركيبات بما فيها تلك الخاصة بإيريك چونز (الفصل الخامس)، وديڤيد لاندز (الفصل التاسع)، تستخدم البيئة والثقافة معًا وبنسب متقاربة إلى حد ما. والبعض الآخر مثل ماكس ڤيبر (الفصل الثانى) ومايكل مان (الفصل السادس) وچون هول (الفصل السابع) يتجهون للتأكيد على التفسيرات الثقافية مع إضافة جزء لا بأس به من الحتمية البيئية الأوروبية. لقد كانت النظريات التى تفسر تميز أوروبا التاريخى المزعوم تستخدم المجادلات البيئية بشكل صارم، وكذلك فإن النظريات التى تعتبر أمثلة واضحة على الحتمية البيئية كانت معروفة ولكن هذا الوضع تغير. إحدى هذه النظريات على أية حال قدمت من قبل چارد دايموند فى كتابه الصادر ١٩٩٧ والحائز على جائزة بوليتزر، "الأسلحة والجراثيم والصلب: مقدرات المجتمعات الإنسانية"[١]. هذا الفصل هو نقد لنظرية دايموند والحتمية البيئية الأوروبية بوجه عام.

يقول دايموند بوضوح وبدون أى شرط أو قيد، إن "البيئة تشكل التاريخ" (P.352)[٢]. كل الأحداث الهامة التى حدثت منذ العصر الحجرى القديم ترجع لتأثيرات بيئية. وعلى وجه أكثر دقة: كل الاختلافات الهامة بين المجتمعات الإنسانية، وكل الاختلافات التى أدت ببعض المجتمعات أن تتقدم وتزدهر وبالبعض الآخر أن تفشل ترجع لطبيعة

البيئة المحلية لكل مجتمع وموقعها الجغرافى. يعكس التاريخ ككل هذه الاختلافات والقوى البيئية، فى حين تلعب الثقافة دوراً أصغر: تفسر البيئة كل اتجاهات التاريخ الأساسية، أما العوامل الثقافية فتكون مؤثرة فقط على التفاصيل الثانوية. يتقدم دايموند بمنهجية فى مراحل التاريخ الأساسية فى كل مناطق العالم، ويحاول أن يوضح باستخدام المجادلات التفصيلية كيف أن كل مرحلة فى كل إقليم تفسرها العوامل البيئية إلى حد كبير. المحصلة النهائية لتلك العمليات التى سببتها البيئة هى نهضة وهيمنة أوروبا.

المجادلة الرئيسية واضحة وبسيطة. كل الأحداث التاريخية الهامة تقريباً بعد عصر الجليد حدثت فى مناطق خطوط العرض المتوسطة المعتدلة فى أوروبا الآسيوية Eurasia (كتلة اليابسة التى تتكون من أوروبا وآسيا). البيئة الطبيعية فى هذا الإقليم الكبير أفضل للتقدم البشرى منها فى المناطق الاستوائية من العالم والأقاليم المعتدلة الأخرى – فى جنوب أفريقيا، أستراليا ومناطق خطوط العرض المتوسطة فى الأمريكتين – لم تكن تلك المناطق محُورية بالنسبة للتقدم البشرى، وذلك لأنها أصغر من أوروبا الآسيوية، كما أنها منعزلة عنها. بالرغم من نهضة حضارات عديدة وازدهارها فى أوروبا الآسيوية المعتدلة، فهناك اثنتان فقط هما الهامتان: الصين وأوروبا وذلك بسبب البيئة الجيدة. أخيراً، منذ خمسمائة عام أثبتت البيئة الصينية أنها أقل منها فى أوروبا فى أمور عديدة هامة، لذا كانت أوروبا هى المنتصرة فى نهاية الأمر.

كُتب "الأسلحة، الجراثيم والصلب" لجمهور عريض من القراء، كما أن چارد دايموند، وهو عالم طبيعى (عالم أحياء)، يقسم الكتاب لمجموعة من المحاضرات، كل منها مصمم لتوضيح أن بعض المشاكل الهامة فى التاريخ الإنسانى يمكن حلها إذا نظرنا إليها بطريقة علمية، ولهذا سنجد أن التفسير بسيط ويبدأ مع البيئة الطبيعية. ولكى يقنع غير العلماء بأنه محق فى هذه الأمور نجده يوظف عدداً من الوسائل التى تجعل تأكيداته تبدو وكأنها علمية. سأناقش تلك الوسائل كلما تقدمنا فى عرض آرائه، ولكن أحدها يظهر فى مستهل المجادلة: شبه تجربة.

"تجـربة طبيعيــة"

"تجربة طبيعية للتاريخ" هو عنوان أول فصل فى كتاب "الأسلحة، الجراثيم والصلب". سيعقد دايموند مقارنة بين السكان الأصليين (المورى) فى نيوزيلندة مع مجموعة صغيرة من الناس لهم الأصل الثقافى نفسه فى شرق نيوزيلندة، الذين استوطنوا جزر شاذام Chatham وسيقدم تجربة طبيعية توضح أن الفرق بين البيئتين يفسر الاختلاف فى التاريخ بعد ذلك.

> يشكل تاريخ السكان الأصليين فى نيوزيليندة (المورى) وشرقها (الموريورى) تجربة طبيعية مختصرة على نطاق صغير تختبر تأثير البيئات على المجتمعات الإنسانية. قبل أن تقرأ كتابًا كاملاً يدرس الآثار البيئية على نطاق كبير – آثار على المجتمعات الإنسانية حول العالم فى أخر ١٣٠٠٠ سنة – يبدو من المعقول أن تريد الحصول على تأكيد أولاً من الاختبارات الصغرى حتى تثبت أن تلك الآثار هامة بالفعل. لو كنت عالمًا فى مختبر يدرس الفئران ربما تقوم بهذا الاختيار عن طريق أخذ إحدى مستعمرات الفئران وتوزع مجموعات من أسلاف تلك الفئران على أقفاص عديدة بها بيئات مختلفة ثم تعود بعد ذلك بأجيال لترى ماذا حدث. تلك التجارب بالطبع لا يمكن أن تجرى على المجتمعات الإنسانية، ولكن يجب على العلماء أن يبحثوا عن "التجارب الطبيعية" التى حدث ما يشبهها فى الماضى. مثل هذه التجربة ظهرت أثناء استيطان جزر البولونيز فى المحيط الهادى (PP.54-55).

مناخ الجزء الشمالى من نيوزيلندة دافئ نسبيًا والمورى الذين وصلوا كمزارعين تمكنوا من ممارسة الزراعة فيه. أما مجموعة الجزر التى تسمى شاذام فى شرق نيوزيلندة فهى عبارة عن جزر صغيرة تبعد عن الجانب الشرقى لنيوزيلندة بحوالى ثلاثمائة ميل، هى مناطق صغيرة، باردة لا تناسب الزراعة ولهذا فقد "ارتدت" (P.54) جماعات الموريورى للصيد والجمع. يؤكد دايموند أن المجتمعين كانا معزولين عن بعضهما البعض لقرون لذا يمكن المقارنة بينهما كظرفين تجريبيين. اكتشف الأوروبيون

جزر شاذام فى القرن التاسع عشر وبعد أن عرفت جماعات المورى الخبر قامت بإرسال حملة لتغزو الجزر وتستعبد السكان، نجحت فى ذلك. ويدل هذا، وفقًا لدايموند، على أن الشعوب التى تعيش فى بيئات مواتية للزراعة وتمارس فن الزراعة الراقى سيكون لديها عدد سكان أكبر وتكنولوچيا أرقى وقوة أكثر ونجاح أكبر بشكل عام من الجماعات المشتغلة بالصيد والجمع.

كلمة "تجربة" ليس لها موقع من الإعراب في هذه المناقشة لثلاثة أسباب:

أولاً: هذه ليست معالجة تجريبية، إنها مجرد مقارنة، أُعطيت أكبر من حجمها لتبدو علمية أكثر مما هى فى الحقيقة، وهى وسيلة توصف فى الغالب بأنها "مذهب العلمية".

ثانيًا: لا يمكن أن نختصر المقارنة فى اثنين أو حتى القليل من المتغيرات التى تسمى هنا "البيئة" و"الثقافة".

ثالثًا: يمكن أن يوصف السيناريو بأكمله بأنه لا يدعو للاستغراب. من الواضح أن الموريورى هاجروا من الجزء الجنوبى من جزيرة الجنوب فى نيوزيلندة وهو إقليم بارد جداً لا يتلاءم مع زراعة المحاصيل. وفى الحقيقة، أتوقع أن المورى فى هذا الإقليم اعتادوا على القيام بأنشطة معيشية مثل تلك التى قام بها الموريورى: الصيد والجمع وصيد الأسماك وصيد الأصداف وصيد حيوان الفقمة(٣). (أتساءل كذلك ما إذا كانت جماعات المورى فى الجزء الجنوبى البارد من جزيرة الجنوب قد عانت من نفس العدوان على أيدى بعض المورى المولعين بالحرب من الأراضى الزراعية الشمالية مثلما عانى الموريورى على أيدى المورى الشماليين.) إضافة إلى ذلك فإن جزر الشاذام ليست "فوق القطب الجنوبى" كما يصفها دايموند (P.58): فهى تقع على خط عرض ٤٥ درجة جنوبًا. وقد وجدت بها غابات كثيفة ذات أوراق عريضة، كما كانت الموارد المحلية وفيرة لدرجة جعلت مستوى معيشة الموريورى جيد جداً حيث قاموا بحصاد تلك الموارد. وباختصار، هى ليست قضية أن المورى والموريورى يحتلون، إذا جاز التعبير،

صفحة "بترى" petri dish(*) حتى يتسنى استخدامهما كظرفين تجريبيين متقابلين. لو أن دايموند أكد المقارنة بين حجم وقوة السكان الذين مارسوا الصيد والجمع وأولئك الذين مارسوا الزراعة، لقدم لنا حقيقة واضحة. الواقع، أنه يهاجم هذه الحقيقة الواضحة فى كتابه ويستخدم المقارنة بين الصيد والجمع والزراعة لتفسير (أو كما يدعى) تنويعة كبيرة من الحقائق التاريخية والجغرافية. فى هذا الفصل التمهيدى نجده يمهد الطريق لمجادلته: المعالجة ستكون تجريبية علمية. كيف إذاً يمكنك أن تجادل مع العلم؟

الزراعــــة

يميز دايموند بين نوعين من العوامل: "العوامل الأساسية" التى تشرح النماذج الكبرى للتاريخ، و"العوامل المباشرة" والتى تعتبر نتائج "للعوامل الأساسية" وتفسر العمليات التاريخية المحلية القصيرة المدى (P.87). العوامل الأساسية هى عوامل بيئية وليست ثقافية. أكثر تلك العوامل "الأساسية" أهمية هى الظروف الطبيعية التى أدت إلى نهضة الإنتاج الغذائى. أقاليم العالم التى أصبحت زراعية منذ عهد بعيد اكتسبت ميزة دائمة عبر التاريخ، أما تلك الأقاليم التى أصبحت زراعية فى وقت متأخر فلم تتمتع بتلك الميزة، والأقاليم التى لم تصل للزراعة معتمدة على نفسها أُستبعدت من مسار التطور التاريخى لهذا السبب بالتحديد.

أدت الأسباب "الأساسية" فى أزمنة لاحقة إلى تنويعات إقليمية فى التكنولوچيا والتنظيم السياسى والصحة وبعد ذلك أصبحت تلك الأسباب هى الأسباب "المباشرة" فى التاريخ الحديث. أكثر من نصف كتاب "الأسلحة والجراثيم والصلب" مخصص لتوضيح الأسباب "الأساسية" شارحاً لماذا أدت البيئات المختلفة إلى نسب مختلفة فى تبنى الزراعة،

(*) petri dish طبق زجاجى مسطح يستخدم فى التجارب المعملية سمى على اسم عالم البكتيريا الألمانى Julius Richard Petry. (المترجمة)

وكذلك شرح كيف أن الاختلافات الناتجة عن ذلك أنتجت عدة آلاف من السنين من التاريخ البشرى. سوف أحاول أن أوضح أن تلك المجادلة خاطئة جداً. ولكن لاحظ أولاً مذهب العلمية الأولى فى هذا التركيب: لا تستطيع آلاف السنين من التطور الثقافى فى إقليم ما أن تتخطى آثار البيئة الطبيعية التى من المفترض أنها أثرت على هذا الإقليم فى العصر الحجرى القديم. الثقافة قوة ضعيفة فى التاريخ.

الأسباب "الأساسية" هى ثلاث حقائق بيئية أولية: أشكال القارات وتوزيع النباتات والحيوانات البرية التى يمكن ترويضها كى تصبح أليفة والحواجز الجغرافية التى تمنع انتشار تلك النباتات والحيوانات الأليفة. السبب الأول والأساسى هو شكل القارات: "محاورها". كتلة يابسة قارية "بمحور شرق - غرب" مفضلة لنهضة الزراعة أكثر من قارة ذات "محور شمال - جنوب". يقسم دايموند العالم المأهول بالسكان إلى ثلاث قارات (يستخدم كلمة "قارة" بشكل واسع)(٤): أوروبا الآسيوية وأفريقيا والأمريكتين(٥). أوروبا الآسيوية لها محور شرق - غرب، أما القارتان الأخريان فلهما محور شمال - جنوب. وقد كان لذلك "آثار هائلة وفى بعض الأحيان مأساوية" على التاريخ البشرى (P.176).

أوروبا الآسيوية فى الواقع ذات طول (شمال - جنوب) يتساوى تقريباً مع العرض (شرق - غرب)، خمسة آلاف ميل مقابل سبعة آلاف ميل، ولو عاملنا أمريكا الشمالية كقارة لكانت أبعاد الشمال - جنوب والشرق - غرب فيها متساوية. سيصبح من الواضح إذاً عندما نقرأ الفصل الذى يحمل عنوان "السماء الواسعة والمحاور المائلة" فى كتاب "الأسلحة، الجراثيم والصلب" أن دايموند لا يتحدث عن المحاور مطلقاً، فهو يقدم مجادلة حاذقة عن المزايا المناخية التى (فى رأيه) تتمتع بها أقاليم خطوط العرض المتوسطة على الأقاليم الاستوائية. أكبر نطاق فى العالم يتمتع بمناخ "معتدل" أى ليس الحر الشديد ولا البرد الشديد، ليست استوائية ولا مجاورة للقطب الشمالى، يقع فى حزام يمتد فى أوروبا الآسيوية من أوروبا فى الغرب وحتى اليابان فى الشرق. ويصر على إغفال حقيقة كون معظم هذه المنطقة صحراء طاردة وجبال مرتفعة، ويصف دايموند هذا النطاق ذى المحور الشرق - غرب والواقع فى خطوط العرض

المتوسطة فى أوروبا الآسيوية بأنه الإقليم الذى امتلك أفضل البيئات لاختراع وتطور الزراعة وبالتالى للديناميكية التاريخية، وذلك بسبب - ليس هذا موضوع خلاف - أن مورد الرزق القائم على أساس زراعى يسمح بوجود مجتمعات مستقرة وكثافة سكانية وبالتالى نتائج متنوعة.

لماذا نتوقع أن يكون أصل الزراعة وتطورها الأول قد حدث فى حزام خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية؟ يقدم دايموند مجموعة من الأسباب البيئية التى سأختبرها بعد قليل. أولاً، بالرغم من ذلك يأتى السؤال عن المكان الأصلى للزراعة. يلاحظ دايموند، وهو محق فى هذا، أن من الواضح أنه كانت هناك عدة مراكز مستقلة وكان بها أصل الزراعة، اثنتين منها فقط يقعان فى الحزام المعتدل فى أوروبا الآسيوية. وهما الشرق الأدنى ("الهلال الخصيب") والصين. يحتاج دايموند أن يعرض لمجادلته الأساسية عن الأسباب البيئية فى التاريخ ويوضح أن هذين المركزين اللذين يقعان فى خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية كانا أسبق بل وأكثر أهمية من المراكز الاستوائية (غينيا الجديدة وأثيوبيا وغرب أفريقيا وإقليم خطوط العرض المتوسطة فى الأمريكتين (Mesoamerica) والإنديز وجنوب شرق آسيا والهند وإقليم الأمازون). إضافة لذلك يحتاج أن يوضح أن منطقة الهلال الخصيب كانت المركز الأول والأكثر أهمية وذلك لأن بيئة الإقليم أدت من خلال الانتشار غرباً إلى نهضة الحضارة الغربية. حقًا فى أماكن مختلفة من "الأسلحة والجراثيم والصلب" تُنقل رسالة المركزية الأوروبية التقليدية وهى أن الهلال الخصيب وأوروبا البحر المتوسط إقليم تاريخى واحد، وأن التاريخ تقدم من منطقة لأخرى باتجاه الغرب.

السؤال حول أين ومتى وكيف حدثت الثورة الزراعية لم يتم حسمه. ربما يعتقد غالبية المتخصصين أنه من المحتمل أن يكون "الهلال الخصيب" هو المركز الأول، ولكنهم جميعًا على علم بأن هناك مرشحين آخرين بمؤهلات جيدة. ترجع عملية استئناس وتدجين الحيوانات والنباتات إلى ٨٥٠٠ قبل الميلاد فى منطقة "الهلال الخصيب"، التواريخ التى حصلنا عليها بالنسبة لغينيا الجديدة والصين ليست قبل هذا بكثير،

٧٥٠٠ قبل الميلاد بالنسبة لغينيا الجديدة و٧٠٠٠ للصين. ولكن مع الأخذ فى الاعتبار أن علماء التنقيب عن الآثار كانوا يحفرون فى الشرق الأدنى لقرنين من الزمان، لذا نجد معلومات كثيرة تم الحصول عليها عن هذا الإقليم أكثر من غيره، وقُبلت الفرضية التى تزعم أن الزراعة ظهرت لبعض الوقت فى هذا الإقليم قبل ١٠,٠٠٠ أو ١١,٠٠٠ سنة. وعلى الجانب الآخر قبل ثلاثين سنة كان يُعتَقد أن عمر الزراعة الصينية ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ سنة، ولم يعتقد أحد أن الزراعة فى غينيا الجديدة كانت موغلة فى القدم. الأمر هنا هو أن علم التنقيب عن الآثار فى تلك الأقاليم وغيرها الكثير، غير مكتمل. من المحتمل أن يكون هناك تواريخ أقدم من تلك التى سبقت الثورة الزراعية سيتم قبولها بالنسبة لأقاليم عديدة فى الشرق الأدنى. أما بالنسبة لمصادر الزراعة فى المناطق الاستوائية الرطبة فمن الصعوبة بمكان أن نحدد أثرياً وقت حدوث الثورة أو الثورات الزراعية وذلك لسببين فى الأساس: أولاً: بقايا النباتات والبقايا العضوية الأخرى لم تحفظ بصورة جيدة فى هذا المناخ الدافئ؛ وثانياً، هناك حقيقة مثيرة للاهتمام وهى أن منطقة سهلية كبيرة فى جنوب شرق آسيا وهى الجزء السطحى من سلسلة الصخور المسطحة التى تسمى صخور سندا، كانت أرضاً جافة حتى ٧٠٠٠ سنة مضت تقريباً(٦) ويمكن أن تكون أحد المراكز الأساسية للزراعة الأولى قبل أن تغمرها مياه البحر.

يتجاهل دايموند هذين الأمرين المشكوك فيهما عن الوقت والمكان. بالنسبة له وصلت الزراعة أولاً فى "الهلال الخصيب"، وبطريقة مستقلة ظهرت الثورة الزراعية فى الصين بعد ذلك ثم فى الأقاليم الأخرى بعدها. يسمح له هذا الموقف بتطوير مجادلاته البيئية الأساسية. وكما يجادل دايموند فإن "الهلال الخصيب" طور الزراعة لسببين اثنين: أولاً، المناخ متوسطى (صيف حار جاف وشتاء معتدل مطير)، والكثير من أعشاب الحبوب البرية التى لها قابلية للاستئناس، وعلى وجه الخصوص فإن الأسلاف البرية للقمح والشعير تعتبر أصلية فى هذا الإقليم. أما لماذا يعتبر مناخ المتوسط هو المفضل بالنسبة للأصول الأولى للزراعة فإنه لم يتم توضيح تلك النقطة. من الواضح أن دايموند يفكر أن الحمية الغذائية فى منطقة المتوسط المطيرة شتاءً فضلت الحبوب ذات البذور الكبيرة ولكن الحبوب الأخرى التى وجدت برياً فى مناخات أخرى على وجه التحديد: الذرة،

الأرز وبعض أنواع أخرى من الذرة مثل السرغام كان لها أيضًا بذور كبيرة، بينما الحبوب ذات البذور الصغيرة مثل أنواع كثيرة من الذرة البيضاء هى محاصيل أساسية فى أقاليم أخرى مع أنواع أخرى من المناخات. (استبعد دايموند محاصيل أخرى ليست من الحبوب مثل البطاطس والبطاطا على أساس أنها غير هامة لأسباب سنناقشها بعد قليل). تأكيد دايموند على مناخات المتوسط له جرس غائى: لو أن الزراعة ظهرت فى هذا النوع من المناخ سيكون من الطبيعى إذن أن يتحرك التاريخ باتجاه الغرب وليس الشرق أو الجنوب وذلك لأن جنوب أوروبا يسوده مناخ متوسطى بينما الأقاليم المعتدلة الأخرى فى أوروبا الآسيوية تسودها مناخات صيف مطيرة.

مجادلة أوروبا الآسيوية ذات المحور شرق - غرب كما رأينا، هى فى الحقيقة مجادلة عن المكانة الهامة لبيئات خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية؛ وبالرغم من تمتع منطقة "الهلال الخصيب" بمزايا معينة فإن هناك مجادلة أوسع تتسع للإقليم كله من أوروبا من جهة وحتى الصين من جهة أخرى. هذه المجادلة هى ادعاء ذو جزأين، الأول، أن استئناس محاصيل الحبوب كان تاريخيًا أكثر أهمية من المواد الغذائية الأخرى (وبخاصة البطاطا الحلوة والبطاطس والقلقاس ونوع من النباتات التى تم تطويعها للزراعة فى مناطق خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية manioc المانوك، والموز). والثانى، محاصيل الحبوب التى تم تطويعها للزراعة فى مناطق خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية (خاصة القمح فى الشرق الأدنى والذرة البيضاء فى الصين) كانت أكثر أهمية من الحبوب الأخرى (خصوصًا الأرز والسرغام والذرة) التى أُستؤنست فى أماكن أخرى. تلك المحاصيل الغذائية الأخرى أُستؤنست فى الأقاليم الاستوائية وشبه الاستوائية: الأرز فى الأماكن البرية فى جنوب شرق آسيا أو الأقاليم المجاورة فى جنوب الصين والهند، والسرغام فى السودان فى الأقاليم شبه الصحراوية فى أفريقيا، والذرة فى إقليم خطوط العرض المتوسطة فى الأمريكتين. أما بالنسبة للمحاصيل الغذائية، غير الحبوب، فقد أُستؤنست البطاطا الحلوة فى غرب أفريقيا (كما وجدت أنواع أقل أهمية منها فى المنطقة الاستوائية)، وربما كانت البطاطس فى الأنديز ونبات المانوك فى إقليم الأمازون والبطاطا الحلوة فى أمريكا الاستوائية، القلقاس والموز فى جنوب شرق آسيا.

ولكن دايموند يجادل أن القمح والذرة البيضاء كانا أكثر أهمية تاريخيًا من المحاصيل الأخرى، وينسحب ذلك على تفسير نهضة الغرب والصين على التوالى. كما نجده يجادل بصورة غير مقنعة بأن الأرز والذرة يعتبران أفقر فى محتوى البروتين من القمح، الواقع أن الفرق صغير، فهو فى الأغلب أمر يتعلق بمحتوى الرطوبة. ثم نجده يقدم مجادلة غريبة عن الذرة: بما أن الأنواع المستأنسة الأولى كان لها أكواز وحبوب صغيرة فنتج عن هذا أن الذرة - من المفترض أنه أقدم مادة غذائية فى العالم الجديد - أخذ وقتًا أطول كى يصبح محصولاً مستأنسًا تمامًا ولم يصل لتلك المرحلة إلا بعد ظهور الزراعة بوقت طويل فى أماكن أخرى. يتناسب هذا مع نظريته التى تفضل البيئات غير الاستوائية. (أُستؤنس الذرة فى مناطق خطوط العرض المتوسطة فى الأمريكتين).

مجادلة دايموند عن المواد الغذائية الدرنية (البطاطس والبطاطا الحلوة وغيرها) تستحضر النظرية القديمة والضعيفة: هى أن تلك المحاصيل عالية فى محتواها من النشويات ومنخفضة فى محتواها من البروتين أكثر من الحبوب، ولذا فإن النظام الغذائى للناس الذين اعتمدوا عليها فى البداية من المفترض ألا يكون سليمًا، وعليه فقد أثر ذلك بالسلب على التطور الثقافى فى تلك الأقاليم. والحقيقة أن الشعوب التى تستخدم أو استخدمت تلك المحاصيل الدرنية تأكل كميات كبيرة من الأطعمة ذات محتوى الرطوبة العالى؛ للحصول على معظم العناصر الغذائية، كما يستخدمون محاصيل أخرى وفى بعض الأحوال: الحيوانات الأليفة للحصول على بروتين إضافى(٧). أخطأ دايموند حين جادل بأن المواد الغذائية الدرنية تحتل مرتبة أقل من الحبوب بالنسبة للاحتياجات الإنسانية، ولكن تلك المواد مع الذرة والأرز والسرغام كانت هى المواد الغذائية الأساسية فى المناطق الاستوائية، وشبه الاستوائية، ولذا لم تحتل المناطق الاستوائية مكانة هامة فى نهضة الإنتاج الغذائى بالنسبة له.

آخر "العوامل الأساسية" الثلاثة التى تذهب بعيدًا لتفسير "نماذج التاريخ الكبرى" هى الانتشار الجغرافى. يستحضر دايموند دور الانتشار فى المجادلات التى تحتاج لذلك: عندما يريد أن يوضح أن انتشار أى مستأنس أو صفة تكنولوجية أو فكرة ما

كان سريعًا ونتيجة تابعة، فهو يتجاهل الانتشار عندما يكون من المناسب القيام بذلك: عندما يريد أن يؤكد الانعزال المزعوم لإقليم معين (مثل أستراليا وجزر شاذام) وتبعات هذه العزلة. أما بالنسبة لنهضة وتطور الإنتاج الغذائي فإن نقطة الارتكاز لديه هي التشابه النسبي بين البيئات في حزام أوروبا الآسيوية المعتدلة وهو ما يفسر الانتشار السريع المفترض لإنتاج الغذاء في هذا الإقليم حينما نقارنه بباقي العالم. ويبدو أنه لا يلاحظ أن الأقاليم الإنتاجية الزراعية في هذا الحزام المعتدل معزولة بالفعل عن بعضها البعض حيث تفصلها الصحارى والجبال العالية. أضف إلى ذلك أن رؤية هذا الحزام المعتدل على أنه استمرارية جعلته يتجاهل حقيقة أن منطقة الوسط في هذا الإقليم ليست معتدلة نهائيًا: إنها الهند الاستوائية (شمال الهمالايا، مرة أخرى كانت هناك صحارى)[8]. وعلى النقيض من نظرية دايموند فإن الانتشار بين الشمال والجنوب، الذى كان يعنى بوجه عام الانتشار بين الأقاليم المعتدلة والاستوائية أو بين الأقاليم المعتدلة التى يفصلها نطاق من المناطق الاستوائية الرطبة، كان بنفس أهمية الانتشار بين الشرق والغرب.

يقدم دايموند المجادلة الاستنتاجية التى تبدو معقولة هى أن الزارعة ستجد صعوبة فى الانتشار جنوبًا وشمالاً بين مناطق خطوط العرض المتوسطة فى أوروبا الآسيوية والأقاليم الاستوائية الأفريقية والآسيوية، وذلك لأنها تتطلب حركة بين الأقاليم المختلفة بيئيًا، وعليه فإن محاصيل خطوط العرض المتوسطة ستتجه لعدم النمو بطريقة جيدة فى الأقاليم الاستوائية الرطبة والعكس صحيح بالنسبة للمحاصيل الاستوائية وذلك لأنها معتادة على درجات حرارة مختلفة، ومعدل سقوط أمطار مختلف، وكلاهما يحتاج إلى تغيرات فصلية فى وقت النهار، وإذا كان أى منها مزروعات مستأنسة فى خطوط العرض المتوسطة فهى تحتاج إلى تغيرات فصلية فى وقت النهار، وإذا كانت مزروعات مستأنسة فى خطوط العرض المنخفضة فهى لا تحتمل تلك التغيرات طوال فترة النهار. يستخدم دايموند هذه المجادلة لدعم نظريتين لديه. الأولى، نظرية أن الأقاليم الاستوائية فى نصف الكرة الشرقى تتطور متأخرة وبصورة أبطأ منها فى منطقة أوروبا الآسيوية المعتدلة. والثانية، هى أن أقاليم نصف الكرة الجنوبى فيما وراء المناطق الاستوائية،

وعلى وجه الخصوص أستراليا وإقليم رأس الرجاء فى جنوب أفريقيا، لم تنتشر فيها الزراعة بصورة كبيرة وذلك بسبب تداخل الأقاليم الاستوائية التى أبقتها معزولة عن مراكز أوروبا الآسيوية التى تجرى فيها عمليات الاستئناس. الاستنتاج هنا خاطئ أو بالأحرى فإن أثر حواجز الشمال - جنوب لا يمكن إغفاله. إن جوهر عملية الاستئناس هو تغيير المحاصيل عن طريق الانتقاء وغيرها من الوسائل، وذلك بجعلها مناسبة لسكان إقليم ما. ودائمًا ما يتطلب هذا بعض التغييرات للتأقلم مع ظروف الزراعة المختلفة. هناك بالتأكيد حدود بيئية حقيقية، ولكن مدى إمكانية التأقلم واسع جداً، فأى إقليم استوائى يتصف بفصول مطيرة وجافة متمايزة لديه الإمكانية ليكون ملائمًا لكل الحبوب الرئيسية المستأنسة فى أوروبا الآسيوية المعتدلة. طول فترة النهار مهم (كان مهمًا) بالنسبة لبعض المحاصيل وعلى وجه الخصوص القمح ولكنه فى أغلب الحالات يستطيع التأقلم وقد حدث هذا بالفعل واستبعد هذا القيد. مع كل ذلك، فى أزمنة قديمة كانت بعض أنواع من القمح تنمو جنوبًا فى أثيوبيا .(ليس بعيداً عن خط الاستواء)، وكان الأرز يزرع فى مناخات خطوط العرض المتوسطة الدافئة والاستوائية، أُستؤنس السرغام أولاً فى غرب أفريقيا السودانى وانتشر فى إقليم خطوط العرض المتوسطة فى آسيا. فى نصف الكرة الأرضية الغربى كانت الذرة تزرع بواسطة سكان أمريكا الأصليين من بيرو وحتى كندا. معظم المحاصيل الدرنية كانت تواجه مشكلات فى الانتشار فى أقاليم كانت باردة أو جافة موسميًا، ولكن الكثير من تلك المحاصيل أيضًا تكيف بشكل جيد: تذكر البطاطس والبطاطا الحلوة. خطأ دايموند هنا هو معاملة المحددات الطبيعية لإيكولوچيا النبات باعتبارها محددات للإيكولوچيا البشرية بطريقة ما، وهذا لا يعتبر علمًا صحيحًا.

يؤكد دايموند كذلك على الانتشار لكونه عاملاً هامًا فى تاريخ العالم القديم، وبعض آرائه هنا صحيح، ولكنه عندما يفترض عوائق البيئة الطبيعية، فى مجادلات متنوعة، على أنها أسباب عدم الانتشار أو الانتشار البطىء يقع فى أخطاء عدة. بعضها يتعلق بانتقالات المحاصيل شمالاً - جنوبًا وقد ناقشناه من تونا وهى أخطاء واقعية عن البيئة. أما الأخطاء الأخرى فهى قائمة على فشله الخطير فى فهم كيفية تأثير الثقافة على الانتشار (Blaut, 1987 b). وهنا مثالان يستحقان الذكر.

"الأمر [الذى] يصرخ طالبًا التوضيح هو فشل الإنتاج الغذائى فى الظهور فى بعض المناطق المواتية بيئيًا حتى العصر الحديث" (P.93). كل تلك المناطق هى أقاليم خطوط العرض المتوسطة المنفصلة عن أى كتلة مياه أو ما شابه. يركز دايموند اهتمامه على اثنتين من تلك المناطق: رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا وأستراليا. لماذا بقى هذان الإقليمان غير زراعيين لفترة طويلة؟ إن التفسير الذى ركن إليه من المفترض أنه مزيج من حواجز ضد الانتشار والعوائق البيئية المحلية. ويتم تجاهل العوامل الثقافية.

رأس الرجاء الصالح هو نطاق من المناخ المتوسطى (صيف حار وشتاء مطير). أما الذى "يصرخ طالبًا التوضيح" هنا فهو حقيقة أن هذه المنطقة، وفقًا لدايموند، كان لديها الإمكانات البيئية لأن تكون إقليمًا منتجًا للغذاء يمكن مقارنته بنطاق أوروبا الآسيوية الغربى ذى المناخ المشابه، ولكنه بقى إقليمًا للرعى حتى مجىء الأوروبيين؛ فهو يظن أن تلك المشكلة القديمة تساعد حتى فى تفسير العنصرية فى جنوب أفريقيا الحديثة.

انتشرت الشعوب الزراعية التى تحدثت لغة البانتو Bantu(*) جنوبًا فى جنوب أفريقيا، ولكن وفقًا لدايموند، فقد توقفوا عند حافة إقليم المناخ المتوسطى بالضبط. كان شعب الكوى khoi يقطن هذا الإقليم وكانوا رعاة. لماذا لم يقم بذلك متحدثو لغة البانتو الذين غزوا أرض الكوى شمالاً فى إقليم رأس الرجاء ثم قاموا بزراعة محاصيل هناك؟ لِمَ لم يتبن الكوى أنفسهم الزراعة؟ ينكر دايموند، وهو محق فى ذلك، أن يكون لهذا الأمر علاقة بأى قصور فكرى. إن الأسباب كما يجادل كانت تتعلق بالبيئة والانتشار. المحاصيل المزروعة بواسطة متحدثى لغة البانتو وهم هنا الخوسا Xhosa(**)، كانت استوائية، ووفقًا لدايموند، لم تستطع التأقلم مع الشتاء الممطر فى إقليم رأس الرجاء. ولذا لم ينتشر شعب الخوسا، ولم يستطع نشر إنتاج الغذاء فى رأس الرجاء بسبب مناخه المتوسطى. أما الكوى، فمن جانبهم، لم يتبنوا الزراعة بسبب أن محاصيل

(*) Bantu لغة قبيلة أفريقية. (المترجمة)

(**) Xhosa شعب فى جنوب أفريقيا يعيش فى مقاطعة شرق رأس الرجاء. (المترجمة)

المتوسط التى استؤنست فى شمال أفريقيا الاستوائية لم تستطع الانتشار فى إقليم البيئة والزراعة الاستوائية فى رأس الرجاء، ولأن إقليم رأس الرجاء لم يكن به أنواع برية تناسب الاستئناس[٩]. وكانت كما يقول إن الأوروبيين وصلوا إلى غرب أفريقيا فى الوقت الذى لم يكن فيه الأفارقة من متحدثى البانتو موجودين هناك، وبالتالى يكون للأوروبيين حقوق مسبقة فى الأرض. يبدو أن دايموند لا يعرف أنه هنا يقبل جزءاً كبيراً من خرافة تاريخية تستخدم لتبرير سياسة التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا المعروفة بـapartheid[١٠] ولذا: فهى مجادلة بيئية من المفترض أن تفسر جزءاً هاماً من تاريخ جنوب أفريقيا حتى الوقت الحديث.

ولكن من الواضح أن الكوى لم يتبنوا زراعة الخوسا لأسباب مختلفة، فالمنطقة كلها التى استوطنها الكوى فى جنوب أفريقيا قبل مجىء الأوروبيين كانت كلها تقريباً جافة جداً لتساعد زراعة تعتمد على مياه الأمطار، وهى مناطق ساڤانا وشبه صحراوية مناخها شبه استوائى وليس متوسطياً.

كان يمكن للكوى استخدام الرى وزراعة الحقل باستخدام الصرف من جيرانهم البانتو وقد زرعوا فى مناطق بجانب الأنهار فى مواسم مطيرة قليلة، ولكنهم اختاروا الإبقاء على الرعى. ليس لذلك علاقة بعدم انتشار محاصيل المتوسط وغياب النباتات المستأنسة. هناك صراع لدى شعوب الرعى حول التوقيت بين انتقالات القطعان للرعى واحتياجات المحاصيل التى تنمو فى مناطق مطيرة منتشرة فى البرية[١١]، والتغير من اقتصاد يعتمد على الرعى لاقتصاد آخر زراعى يتطلب تغييراً جذرياً فى أبعاد ثقافية أخرى. كان قرار الإبقاء على أسلوب الرعى فى الحياة صائبًا بيئيًا وثقافياً.

فى الواقع: نطاق بيئة المتوسط بمعدل سقوط أمطار يكفى لزراعة المحاصيل عبارة عن حزام صغير بطول الساحل الجنوبى المتاخم لجبال صلدة، وهو إقليم صغير جداً لا يقوى على حمل وزن المجادلة التى يُحملها له دايموند. (مناقشته لمشكلة عدم زراعة رأس الرجاء الصالح تشغل ما لا يقل عن ٢٥ صفحة من كتابه). مارس الخوسا المقايضة مع شعب الكوى فى هذا الإقليم، لمنتجات التربية الحيوانية والأسماك وعجول

البحر وما شابه ولم يكن لديهم دافع لأن يحلوا محل الكوى. كان هناك تواصل واسع بين متحدثى البانتو والكوى فى كثير من أقاليم السافانا (الممطرة صيفًا) فى جنوب غرب وجنوب أفريقيا، كما فى ناميبيا وبتسوانا. بعض متحدثى البانتو استقروا بالفعل فى جزء من مقاطعة الكوى والعكس صحيح.

"تصرخ" أستراليا أيضًا "مطالبة بالتوضيح" وفقًا لدايموند. لماذا لم يتبن سكان أستراليا الأصليون (الذين يطلق عليهم Aborigines) الزراعة أثناء آلاف السنين التى زرع فيها جيرانهم فى الشمال وحول غينيا الجديدة؟ مرة أخرى يتم إخبارنا بأن التفسير أمر يتعلق بالبيئة والموقع. يقبل دايموند بالرأى الشائع للإيكولوچيين الثقافيين وهو أن اقتصاد صيد الحيوانات- الجمع- وصيد الأسماك الذى تبناه سكان أستراليا الأصليون كان منتجًا لدرجة تحقق لهم مستوى معقولاً من المعيشة طالما تحكموا فى عدد السكان (وهو ما قاموا به فعلاً). من الممكن أيضًا أن يكون أسلوب حياتهم قد ساعدهم على مجابهة مجهودات غير الأستراليين فى استيطان شمال أستراليا. لماذا إذًا يتنازلون عن أسلوب المعيشة هذا ويتبنون الزراعة؟ يفترض دايموند ببساطة أنه كان يمكن لهم القيام بذلك لولا العوائق البيئية.

صحيح أن معظم أستراليا صحراء وسافانا جافة، ولكن الشمال الاستوائى والساحل الشمالى والشرق اللااستوائى والساحل الجنوبى الشرقى وجزءًا من جنوب غرب أستراليا يسقط فيه معدل أمطار منخفض لدعم الزراعة. ولكن تلك الأقاليم كما يقول دايموند لم تصبح زراعية بسبب عزلتها عن الشعوب الزراعية خارج أستراليا. يلاحظ دايموند أن الماكاساريين (Macassarese)(*) تاجروا مع سكان أستراليا الأصليين فى الشمال الغربى بالقرب من داروين الحديثة Darwin(**) ولكنه يعتقد بغرابة أن الماكاساريين - الذين كانوا بحارة مشهورين وجاؤوا من إقليم فى إندونيسيا اشتهر بالزراعة المنتجة - لم يكن باستطاعهم الإبحار ١,٠٠٠ كيلو متر باتجاه الشرق

(*) Macassarese: سكان أصليين فى إندونيسيا. (المترجمة)
(**) Darwin : مدينة فى شمال أستراليا. (المترجمة)

من رأس شبه جزيرة يورك، حيث كان يمكن للمحاصيل الاستوائية أن تنمو بصورة جيدة. ولكن رأس شبه جزيرة يورك هو نفسه قريب جداً من غينيا الجديدة ويفصله عنها مضيق توريس Torres الضيق. لماذا لم يتبن الأستراليون حول رأس يورك الزراعة التى مارسها الناس فى غينيا الجديدة؟ مرة أخرى: العزلة. يجادل دايموند بطريقة غير قادرة على الإقناع أن الأستراليين لم يزوروا غينيا الجديدة على مدى آلاف السنين التى مارسوا فيها الزراعة؟ يستعصى ذلك على التصديق، ويبدو أنه يوحى بفكرة أن الأستراليين الأصليين لم يتمتعوا بدرجة كافية من العقلانية. من الأسهل أن نتمسك بالمجادلة الإيكولوچية - الثقافية وهى أن الأستراليين اختاروا ألا يتبنوا الزراعة لأن أسلوب معيشتهم كان على ما يرام.

تمثل الأمريكتان مشكلة خاصة بالنسبة لدايموند. فهو يسأل: لماذا هُزمت شعوب العالم الجديد من قبل شعوب العالم القديم (الأوروبيين) بدلاً من العكس؟ لماذا؟ بطريقة أخرى، نصف الكرة هذا الذى تمتع معظمه بمناخ معتدل، وهو ما يراه دايموند مهمًا جدًا للتطور الثقافى، لم يتطور بسرعة مثل العالم القديم؟ هناك إجابة أكاديمية تقليدية عن هذا السؤال، وهى تجمع فى الواقع بين أسباب جغرافية عديدة. لم يكن العالم الجديد مأهولاً بالسكان حتى وقت حديث فى التاريخ البشرى: ربما منذ ١٥,٠٠٠ أو ٢٠,٠٠٠ سنة. الناس الذين وصلوا بأعداد صغيرة من سيبيريا كانوا يعتمدون على الصيد والجمع ولم يكونوا مزارعين(١٢).

فى ذلك الوقت كانت ثقافات العالم القديم فى بداية تجريبها للزراعة. فى العالم الجديد، بدأت الثورة الزراعية متأخرة نوعًا ما، ربما حوالى ٥٠٠٠ قبل الميلاد، كما أن مستوى التعقيد السياسى الاجتماعى الذى وصلوا إليه مع ١٤٩٢ كان متأخرًا عن العالم القديم. هناك مجادلة عامة هى أن سبب ذلك البطء يعود إلى أن أسلوب الصيد والجمع كان ملائمًا للأمريكيين فى هذه البيئة الغنية بالموارد التى لم تمس من قبل، حتى وصل تعداد سكانها تدريجيًا إلى المستوى الذى ظهرت معه معقولية تجريب وتبنى الزراعة لزيادة إمداد الغذاء. يجادل معظم الباحثين كذلك بأنه لم يكن هناك انتشار

هام لصفات ثقافية من العالم القديم فى العالم الجديد خلال تلك الفترة كلها. غزو العالم الجديد كان فى جزء منه بسبب مستوى التكنولوچيا المنخفض فى ١٤٩٢ ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو قابلية الأمريكيين للإصابة بأمراض العالم القديم، وبالتالى عانوا من خسائر كبيرة فى تعداد السكان. لا يقتنع دايموند بهذا التفسير بالرغم من كونه يجمع مجادلات عن العزلة والانتشار.

مذهب العلمية لدى دايموند يدفعه لأن يقدم أسئلة تاريخية فى صيغة مبادئ عالمية للسببية البيئية. فى جوهرها: "أينما وجد لدينا A، فسنجد لدينا B، لو لم يكن هناك A إذًا فلن يكون هناك B". تذكر مجادلته عن محور شمال - جنوب مقابل محور شرق - غرب. فهو يجادل أن كل الكتل اليابسة ذات محور شرق- غرب سوف تتفوق على تلك ذات محور شمال - جنوب. حتى يمكن لتلك المجادلة أن تكون صحيحة كتعميم علمى يجب أن تفسر كل حالات الشمال - جنوب، ولكن هناك ثلاثة فقط هى أفريقيا وشرق وجنوب شرق آسيا مع أستراليا والأمريكتين. بالإضافة إلى أنه يجادل بأن الأحزمة الاستوائية التى تدخل بين الأقاليم المعتدلة ستعرقل انتشار الزراعة (وأى شىء آخر) فيما بين الأقاليم المعتدلة. هناك أيضًا ثلاث حالات: أفريقيا والأمريكتان والإقليم الممتد من الصين جنوبًا فى جنوب شرق آسيا وإلى أوقيانيا Oceania(*).

فى كل حالة من تلك هناك أقاليم معتدلة فى الأطراف الشمالية والجنوبية وحزام استوائى فى الوسط. بالنسبة لدايموند أكثر تلك الحالات إثارة للحيرة هى العالم الجديد. يتمنى أن يفسر الاختلافات فى مستويات التطور فى ١٤٩٢ بين أوروبا الآسيوية ونصف الكرة الغربى مستخدمًا نفس المبادئ التى يعتقد أنها تنطبق على الأقاليم الأخرى، وبذلك يوضح أن حالة تفوق أوروبا الآسيوية أو أولويتها تنطبق على كل مناطق العالم بما فيها الأمريكتين.

(*) Oceania: جزر وسط وجنوب المحيط الهادى. (المترجمة)

لذا يرفض دايموند مجادلة أن الاختلافات كانت بسبب التأخر فى استيطان العالم الجديد مما أدى إلى ثورة زراعية متأخرة. بدلاً عن ذلك نجده يجادل، بدون دليل، بأن نمو السكان فى العالم الجديد كان سريعًا لدرجة أن المجادلة القائمة على حداثة الاستيطان ووفرة موارد الصيد والجمع يمكن أن تكون غير صحيحة، أى أن العالم الجديد كان على قدم المساواة اجتماعيًا وتكنولوجيًا مع العالم القديم فى ١٤٩٢، لولا تأثير العوامل البيئية. كما يقول إن هناك أربعة أسباب غير ثقافية رئيسية وراء تخلف نصف الكرة الغربى فى ١٤٩٢.

أولاً: محور الأمريكتين هو شمال - جنوب. وهو من شأنه أن يعيق انتشار الإبداعات الثقافية بين شمال وجنوب أمريكا وفيما بعد بين إقليمين من المجتمعات المركبة (فى الأساس المكسيك وبيرو).

ثانيًا: الإقليم الواقع بين المكسيك وبيرو استوائى، ولذا فهو عائق أمام محاصيل المناخ المعتدل المستأنسة فى كلا الإقليمين.

ثالثًا: شمال وجنوب أمريكا تربطهما قناة ضيقة هى قناة پنما، وهذا من شأنه أن يعرقل الانتشار.

رابعًا: الانتشار شمالاً من ثقافة الأمريكتين التى تقع فى خطوط العرض المتوسطة باتجاه أمريكا الشمالية المعتدلة كان صعبًا وبطيئًا وفقًا لدايموند بسبب صحارى شمال المكسيك التى تفصل وسط المكسيك عن أمريكا الشمالية المعتدلة[١٣]. نرد على المجادلتين البيئيتين الأولين بنفس المجادلات المضادة التى قدمناها فى مناقشتنا السابقة: أخطاء محاور الشمال - جنوب والمناخ الاستوائى السيئ. المجادلة الثالثة غير صحيحة وذلك لأن عرض مضيق پنما لم يعرقل الانتشار: كان هناك سفر بحرى وكذلك انتقال للمحاصيل (على وجه الخصوص الذرة) ومواد أخرى بين القارتين[١٤]. أما بالنسبة للمجادلة الرابعة فهى ببساطة جغرافيا سيئة. ومع ذلك فعلى الرغم مما قاله دايموند لا توجد صحراء تفصل شمال المكسيك عن وسطها وشرق أمريكا الشمالية،

فهى ساڤانا ذات ممرات مائية (وسط وشرق تكساس) وهذا إقليم يمكن عبوره بل بالفعل تم عبوره بواسطة عمليات الانتشار.

آخر جزء من تفسير دايموند لتفوق أوروبا الآسيوية الزراعى يتعلق بالحيوانات المستأنسة. هنا نجده يقف على أرض أصلب نوعًا ما عندما يؤكد تفوق منطقة خطوط العرض المتوسطة الغربية فى أوروبا الآسيوية حيث إن الكثير من الأنواع الهامة تم استئناسها فى الإقليم الممتد من شمال أفريقيا وفى الشرق الأدنى وحتى وسط آسيا؛ وهو إقليم يتميز بالعشب والصحارى والأدغال المفتوحة والغابات. لعب استئناس الحيوانات دورًا أقل من استئناس النباتات فى بدايات الزراعة، لذا فتفوق أوروبا الآسيوية فى هذا المجال من الزراعة يمكن أن نقابله بتفوق أقاليم أخرى فى مجالات أخرى مثل جنوب شرق آسيا فى الأرز والقلقاس، أفريقيا الآسيوية فى البطاطا الحلوة والسرغام وهكذا. كذلك بالرغم من أن الشرق الأدنى وشمال أفريقيا ووسط آسيا كانت مناطق استئناس الخراف، الماعز، الخيل والجمال. كانت الهند منطقة استئناس لأنواع أخرى من الحيوانات Bos indicus(*)، كما كان جاموس الماء فى جنوب شرق وجنوب آسيا وربما الخنزير واللاما والألباكا (alpaca) فى جنوب أمريكا وهكذا. كانت الماشية ترعى فى الإقليم الذى يتكون من الصحراء وشبه الصحراء. فى السودان ٧٠٠٠ قبل الميلاد، عندما كان معدل سقوط الأمطار فى هذا الإقليم أعلى منه الآن، ويمكن أن تكون المنطقة هى منطقة استئناس لنوعية معينة من الماشية[١٥]. إذًا فهى أكثر من مبالغة من جانب دايموند أن يقول إن "عملية استئناس [الحيوانات الكبيرة] كانت خاصة بأوروبا الآسيوية" (P.147).

يريد دايموند أن يوضح أن أهمية أوروبا الآسيوية فى استئناس الحيوان كانت أحد الأسباب الأساسية وراء تفوقها (المزعوم) فى التطور الثقافى. أحد المجادلات هى الحيوانات الكبيرة ذوات الحافر فى الأقاليم الاستوائية، على سبيل المثال، الحمير الوحشية لم تكن مناسبة للاستئناس. ولكن هذه مجادلة دائرية: يستطيع دايموند أن يوضح أن تلك الفصائل التى كانت مستأنسة بالفعل كانت مناسبة للاستئناس.

(*) Bos indicus: حيوان من الفصيلة البقرية. (المترجمة)

فهو يجادل بصورة ضعيفة أن فشل جهود صغيرة ومختصرة فى القرن التاسع عشر لاستئناس الحمار الوحشى دليل على أن هذه الفصيلة لا يمكن استئناسها، بينما كان الاستئناس فى الواقع يتطلب فترات زمنية طويلة وعملاً كبيراً من جانب ثقافات عديدة.

مجادلة دايموند الهامة عن استئناس الحيوان تهتم بالتبعات المفترضة لتلك العملية، وهو هنا يتدرب على بعض النظريات الشائعة والخاطئة. أحدها يدعى أن الحصان غير الحرب تغييراً ثورياً، وبهذا أعطت العربات التى يجرها الحصان فى غرب أوروبا الآسيوية، خصوصاً الأندوأوروبيين، ميزة على من سواهم، وهو الأمر الذى أدى إلى تطوير مجتمعات مركبة للمرة الأولى فى هذا الأقليم؛ وهذا محض تخمين كما أنه مثار جدل واسع. يمكن لاستخدام الخيل والعربات التى تجرها فى الحروب أن يكون ببساطة نتيجة كما كان سبباً فى غزوات قديمة. قناعة دايموند بأن الخيول والقطعان لم يمكن استخدامها بكفاءة فى أفريقيا الآسيوية بسبب أمراض مثل مرض النوم – قناعة خاطئة؛ فقد كانت الأنواع المقاومة للأمراض مستخدمة على نطاق واسع فى معظم (وليس كل) أجزاء هذا الإقليم[١٦]. ادعاؤه أن استئناس القطعان فى غرب أوروبا الآسيوية يفسر استخدام المحاريث فى هذا الإقليم هو أيضاً غير صحيح: كانت المحاريث مستخدمة منذ وقت قديم فى الهند (مع الماشية)، كذلك فى جنوب شرق آسيا (مع جاموس الماء)، كما أن المحاريث مستخدمة فى أماكن أخرى فى المناطق الاستوائية (بما فيها أثيوبيا)، كما عكس استخدام المحاريث طبيعة النظم الزراعية: الحرث بوجه عام، وهو تقليد غير جيد بالنسبة لمعظم المحاصيل الغذائية فى المناطق الاستوائية الرطبة. أخيراً، ادعاء دايموند بأن إستئناس الحصان والماشية فى غرب أوروبا الآسيوية أعطى هذا الإقليم ميزة كبيرة فى نقل الإنتاج وبالتالى توزيع الفائض هو أيضاً ادعاء خاطئ؛ فالحيوانات التى تساعد الإنسان فى العمل بدأ استخدامها كنتيجة لتطور الزراعة فى إنتاج الفائض، وليست سبباً لها. استئناس الحيوان وتربيته كانا بالفعل خطوة هامة بالنسبة للتطور الثقافى ولكنها لم تعط ميزة "أساسية" لأوروبا الآسيوية.

الحضـارة

استمرت العوامل أو القوى البيئية "الأساسية" التى كانت السبب وراء نهضة المجتمعات الزراعية فى بعض الأماكن وليس غيرها، لتشكل التطور الثقافى بعد ذلك وفقًا لدايموند. نجده يناقش تطور الكتابة، التعقيد الاجتماعى السياسى، والتكنولوچيا معطيًا معظم اهتمامه (ولا عجب) للتكنولوچيا. وهنا ملخص لمجادلته عن التطور التكنولوچى بعد حقبة العصر الحجرى.

> [ثلاثة] عوامل - توقيت بداية إنتاج الغذاء وحواجز الانتشار وحجم تعداد السكان- أدت بصورة مباشرة للاختلافات الملحوظة فيما بين القارات فى تطور التكنولوچيا. أوروبا الآسيوية... هى أكبر كتلة يابسة فى العالم تحتوى على أكبر عدد من المجتمعات المتنافسة. كما كانت أيضًا كتلة اليابسة التى يوجد بها مركزان بدأ فيهما إنتاج الغذاء مبكرًا: الهلال الخصيب والصين. محورها الشرق - غرب الرئيسى سمح للاختراعات العديدة فى جزء منها بالانتشار بصورة سريعة نسبيًا بالنسبة لمجتمعات فى خطوط عرض ومناخات مشابهة فى أماكن أخرى... كما أنها تفتقر للحواجز الإيكولوچية القاسية التى تتقاطع مع المحاور الرئيسية فى الأمريكتين وأفريقيا. ولذا كانت الحواجز الجغرافية والإيكولوچية أمام انتشار التكنولوچيا أقل خطورة فى أوروبا الآسيوية منها فى قارة أخرى. بفضل كل تلك العوامل كانت قارة أوروبا الآسيوية هى القارة التى بدأت فيها التكنولوچيا تصاعدها بعد فترة البليستوسين - العصر الجليدى Pleistocene(*) وأدت إلى التراكم المحلى العظيم للتكنولوچيات (PP.261-262).

يؤكد دايموند، وهو على حق فى هذا، أن الناس فى كل المجتمعات الإنسانية هم على نفس الدرجة من القدرة على الاختراع. لذا فهو يسأل: ما الذى يمكن أن يؤدى إلى تراكم أكبر عدد من الاختراعات فى مناطق معينة بين مجموعات معينة، وبذلك يستقر التطور التكنولوچى فى تلك المناطق؟ أعطيت الإجابة العامة فى الفقرة المقتبسة أعلاه.

(*) Pleistocene: حقبة چيولوچية كانت فيها الأرض مغطاة بالجليد. (المترجمة)

ولكننا رأينا أن "المحاور" فى غير محلها من هذا الموضوع و"الحواجز.... الجغرافية لانتشار التكنولوچيا" غير موجودة، أو بالأحرى الحواجز التى تقسم أوروبا الآسيوية الواقعة فى خطوط العرض المتوسطة إلى أقاليم زراعية منفصلة، هى على الأقل بنفس أهمية تلك الموجودة بين أوروبا الآسيوية فى خطوط العرض المتوسطة والأرض الاستوائية فى الجنوب.

ماذا يتبقى إذًا من تفسير دايموند؟ ليس الكثير. فهو يقدم وصفًا نموذجيًا مختصراً للطريقة التى تطورت بها التكنولوچيا بعد سومر والطريقة التى انتشرت بها الابتكارات غير التكنولوچية غربًا فى أوروبا وتبلورت فى الصين. فى هذا الوصف نجده يفشل فى ذكر حقيقة أن الانتشار شرقًا وجنوبيًا، من الشرق الأدنى عن طريق المحيط الهندى وجنوبيًا من الصين عن طريق بحر الصين الجنوبى، كان بنفس أهمية وسهولة الانتشار غربًا (الانتشار عن طريق الهند والطرق اليابسة الداخلية لم يناقش). المجادلة التالية هى نظرية بيئية بسيطة ومباشرة عن أشياء من المفترض أنها أدت إلى الاختراع والابتكار. فى جوهرها، كلما زاد عدد السكان وعدد ما يسمى بالمجتمعات المتنافسة، كلما زادت الاختراعات والابتكارات. وعليه حيث إن أوروبا الآسيوية من الناحية الجغرافية هى أكبر كتلة يابسة، فسيكون لديها أكبر عدد من الاختراعات والابتكارات التى سوف تنتشر فى حزامها المعتدل بصورة أسرع منها فى المناخات الاستوائية السيئة. ليس للثقافة أى دور فى هذه العملية. يستخدم دايموند شكل المجادلة نفسه تقريبًا، عندما يناقش انتشار الكتابة والتعقيد السياسى الاجتماعى من الشرق الأدنى غربًا إلى أوروبا.

لا يوجد هنا ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك عن تسجيل دايموند للتقدم البشرى منذ العصر الحجرى حتى الوقت الحاضر. اهتمامى فى هذا الفصل ليس مشكلة تفسير التطور الثقافى بعد العصر الحجرى، بقدر ما أتمنى توضيح أن دايموند لا يضيف شيئًا مهمًا لفهمنا لهذه العملية بتأكيده على أهمية الجغرافيا: البيئة والموقع. الجغرافيا هامة ولكنها ليست بتلك الدرجة من الأهمية.

أوروبا والصين

تستمر مجادلة دايموند بتعنت وتصميم وتصل لنتيجة مفادها أن قدر أوروبا والصين هو أن تكونا أهم الفائزين فى التنافس التاريخى العالمى بسبب مزايا بيئتهما. وقدر أوروبا هو أن تكون الفائز الرئيسى بسبب تفوق بيئتها على بيئة الصين (تذكر العنوان الفرعى: "أقدار المجتمعات الإنسانية"). يركز التاريخ نفسه على أوروبا الآسيوية المعتدلة والإقليمين اللذين لهما أفضل الظروف البيئية المواتية للزراعة فيها – بالنسبة لبدايات الزراعة والإنتاج الغذائى فيما بعد – وهما أوروبا والصين، ينظر دايموند لأوروبا على أنها الامتداد الطبيعى للهلال الخصيب، الذى خسر بعد ذلك بسبب إنتاجيته الإيكولوچية الضعيفة، ومن ثم تحرك التاريخ غربًا نحو أوروبا. لذا ننتهى مع آخر متسابقين وهما أوروبا والصين.

كما يقول دايموند فإن الصين سيطرت على الجزء الشرقى من أوروبا الآسيوية كما فعلت أوروبا فى الجزء الغربى. بدأت سيطرة الصين مع العصر الحجرى شمالها. ويقر دايموند كحقيقة، بعض الافتراضات الإيكولوچية وبعضٌ منها غير مؤكد بل ومشكوك فيه، ليجادل بأن الثورة الزراعية فى وسط الصين أدت إلى انتشار الشعوب الزراعية جنوبًا لتحل محل جماعات الصيد والجمع فى جنوب شرق آسيا الجزيرى، وذلك ليوضح أن محور الشمال – جنوب أتاح فرصًا أفضل للصين المعتدلة على حساب جنوب شرق آسيا الاستوائى (والجزر وراءها). ولكن ليس من المؤكد أن تكون الزراعة أقدم فى الصين منها فى جنوب شرق آسيا. تذكر أن التواريخ المعروفة للزراعة فى غينيا الجديدة هى تقريبًا مثل الصين، وتذكر كذلك صعوبة إيجاد دليل على بدايات الزراعة فى أقاليم استوائية رطبة مثل غينيا الجديدة. بالإضافة إلى أن الأرز ربما كان مستأنسًا فى الهند أو جنوب شرق آسيا، وليس الصين، وربما يكون فى قدم المحاصيل الغذائية التى أُستؤنست فى شمال الصين[١٧].

يعزز دايموند مجادلته ببيانات من اللغويات التاريخية تقدم ما يعتقد أنه دليل قوى على أن كل اللغات الاسترونيزية Austronesian(*) (مالاى وبولونيز) أخذت أصلاً من الصين عن طريق تايوان. بالتأكيد ليس هناك شك فى أن تلك اللغات ظهرت فى مكان ما فى هذا الإقليم ولكن يمكن أن تكون فى بعض أو كل مناطق الأقاليم الساحلية الممتدة من جنوب الصين وحتى فيتنام وتايلاند، ربما حتى من المناطق القريبة التى كانت مغمورة بسبب مستويات البحر المرتفعة، والآن هى أجزاء ضحلة من سلسلة صخور سندا (يجب أن نلاحظ أن تايوان أيضًا استوائية مثل الساحل الجنوبى للصين). باختصار، يجادل دايموند بأن الصين كان لها دائمًا الريادة والمركزية فى كل شرق أوروبا الآسيوية ويعكس التاريخ فى أى مكان آخر فى هذا الإقليم انتشارات وهجرات من المركز الصينى المعتدل(١٨). هذا تخمين فى الأساس ولكن نظرية دايموند تتطلب أن يكون ذلك صحيحًا. أخيرًا نأتى لأوروبا. معظم المجادلة فى "الأسلحة والجراثيم والصلب" مكرسة لإثبات تميز أوروبا الآسيوية الواقعة فى خطوط العرض المتوسطة على مدار التاريخ وفى داخل إقليم أوروبا (الوريث المفترض للهلال الخصيب) والصين. لو أن المجادلة توقفت هناك لكان لدينا نوع من المركزية الأوروبية الآسيوية وليس المركزية الأوروبية(١٩). ولكن هدف دايموند هو تفسير "نماذج التاريخ الكبرى"، ولذا يجب عليه أن يجيب عن السؤال الأخير: لماذا أوروبا وليس أوروبا الآسيوية ككل أو أوروبا والصين معًا هى التى نهضت لتصبح القوة المهيمنة فى العالم؟ يتكهن دايموند بأن الإجابة هى "البيئة الطبيعية". الأسباب "الأساسية" لنهضة أوروبا، مقارنة بالصين، هى مجموعة من الصفات التى تملكها البيئة الأوروبية وتفتقر إليها الصين أو تمتلكها ولكن بدرجة أقل. تُنتج الأسباب البيئية "الأساسية" الأسباب "المباشرة" والتى تعد ثقافية:

> [ال] العوامل المباشرة وراء نهضة أوروبا (هى) تطويرها لطبقة التجار والرأسمالية وحماية الاختراعات عن طريق براءة الاختراع وفشلها فى صنع طغاة وضرائب باهظة والتقليد المسيحى - اليهودى - اليونانى فى البحث الإمبيريقى (P.410).

(*) Austronesia: مجموعة من الجزر وسط وجنوب المحيط الهادى. (المترجمة)

هذا بالطبع تاريخ مركزى أوروبى تقليدى وقد ناقشنا هذا النموذج بالتفصيل فى الفصول السابقة من هذا الكتاب، الجزء الأول، ولا يحتاج إلى تكرار الأسباب التى أراها غير صحيحة. ولكن ما أحتاج أن أوضحه هو أن هناك أدبيات كثيرة تتساءل بطريقة منظمة بخصوص تلك التفسيرات الاقتصادية والسياسية والفكرية لنهضة أوروبا، ومعظمها يتكون من مجادلات مركزية أوروبية من نوع واحد تهاجم مجادلات المركزية الأوروبية من النوع الأخير- ومع هذا يتجاهل دايموند كل ذلك البحث الأكاديمى ويعلن ببساطة أن هذه الأسباب (وبعض الأشياء الثقافية القليلة) هى الأسباب "المباشرة" لنهضة أوروبا. من الواضح أن دايموند يعتبر هذا الأمر منتهيًا. المشكلة بالنسبة له هى إيجاد الأسباب البيئية التى كانت وراء ذلك.

الطوبوغرافيا هى المفتاح، أو على نحو أكثر دقة، تضاريس الأرض الطوبوغرافية وشكل الخط الساحلى.

> أوروبا لها خط ساحلى غير مستقيم (متعرج) مع شبه جزر كبيرة خمس تقترب من أن تكون جزرًا فى عزلتها.... خط الصين الساحلى أكثر انسيابية.... قُسمت أوروبا بواسطة جبال عالية (الألب، البرانس، كارباثيان، وجبال الحدود النرويجية)، بينما جبال الصين شرق، نجْد التبت تعتبر حواجز أقل جسامة (P.414).

هذه الملاحظات عن الجغرافيا الطبيعية - وهى غير دقيقة كما سنرى - تؤدى إلى إحدى المجادلات الكلاسيكية لتاريخ العالم من منظور المركزية الأوروبية: نظرية الاستبداد الشرقى[٢٠]. وهى الاعتقاد بأن ما يطلق عليه الحضارات "الشرقية" - بالتحديد الصين والهند وإسلام الشرق الأوسط- كانت استبدادية، والأوروبيون وحدهم هم الذين فهموا وبالتالى تمتعوا بالحرية، ولذا فإن أوروبا وحدها كان لديها الأساس التاريخى للإبداع الفكرى وبالتالى التقدم الاجتماعى. فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الحقيقة الواضحة بأن الأوروبيين وحدهم هم من عرفوا الحرية، تعزى (من قبل الأوروبيين) لحقيقة أنهم وحدهم آمنوا بالله الحق. بعد منتصف القرن التاسع عشر استحضر

المؤرخون الأوروبيون أسبابًا دنيوية، فى أساسها المجادلات التى ذكرت فى بداية هذا الفصل: العرق، الثقافة الأساسية والبيئة. معظم مؤرخى المركزية الأوروبية الذين نوقشوا فى هذا الكتاب يستحضرون دور الثقافة والبيئة. كأسباب تكميلية، على سبيل المثال، مايكل مان (الفصل السادس) يعتقد أن اليونانيين القدماء اخترعوا التفكير العقلانى، وأن القبائل الچيرمانية القديمة اخترعت حب الحرية ثم بعد ذلك الحرية الأوروبية الحقيقية والديمقراطية والفردانية وغيرها وأتت ثمارها بسبب بيئة أوروبا الفريدة. ينظر دايموند للبيئة على أنها السبب الحقيقى، ويستحضر اثنتين من النظريات البيئية القديمة ولا يضيف إليها شيئًا، وملخصها أن الجغرافيا الطبيعية هى السبب الأساسى وراء اكتساب أوروبا، وليس الصين، الخصائص الثقافية التى أعطتها سلطانها الرئيسى: "طبقة التجار والرأسمالية... وبراءة الاختراع لحماية المخترعات... والفشل فى تطوير طغاة مطلقين والضرائب الباهظة" وغيرها.

وهذه هى الطريقة التى تسير بها المجادلة وفقًا لدايموند. الصين ليست مقسمة طوبوغرافيًا إلى أقاليم معزولة، وذلك لعدم وجود جبال عالية مثل الألب، كما أنها لا تمتلك خطًا ساحليًا به مناطق مفصلية تكفى لعزل الأقاليم الساحلية القريبة عن بعضها البعض. وهذا يفسر حقيقة أن الصين أصبحت موحدة ثقافيًا وسياسيًا منذ ٢٠٠٠ سنة. أما أوروبا على الجانب الآخر، فلم تستطع أن تتوحد ثقافيًا وسياسيًا بسبب خطها الساحلى ذى الثنايا والمنحنيات ("رؤوسها وخلجانها" فى النظرية التقليدية)، وكذلك بسبب تضاريسها الطوبوغرافية المختلفة ("مراكزها الجغرافية المنفصلة العديدة") فى النظرية التقليدية. ولهذا فقد تطورت أوروبا فى شكل من الفسيفساء يحتوى ثقافات ودولاً منفصلة. وحدة الصين التى أملتها الجغرافيا أدت إلى أن تكون دولة واحدة، إمبراطورية، وهى بطبيعة الحال يجب أن تكون استبدادية. لماذا؟ لأن الشخص لا يستطيع أن يترك دولة ويهاجر لأخرى لتجنب القهر طالما أن هناك دولة واحدة، الإمبراطورية الصينية. ولذا هناك قهر مستمر لعامة الشعب وتحكم مركزى فى الاقتصاد. إذًا، لا حرية وتطور بسيط للفردية وباعث بسيط على الاختراع والابتكار

(ضرائب وتحكم سياسي وغيره)، لا تطور لأسواق حرة ولا تطور لحكومة تشبه الدولة/الأمة الديمقراطية الحديثة. هذه "الآثار الضارة للوحدة" (P.143) أدت إلى بداية تأخر الصين خلف أوروبا منذ ٥٠٠ سنة. يسلم دايموند أن الصين كانت بالفعل مبتكرة فى وقت قديم، وكانت قد بدأت بالفعل في التحرك نحو ثورة صناعية فى أوائل العصور الوسطى، ولكن الاستبداد الإمبراطورى القمعى فى الصين أدى بها إلى الركود بعد القرنين الرابع عشر والخامس عشر. بالمقارنة استمرت أوروبا فى التقدم للأمام، ولهذا انتصرت.

إن الجغرافيا خاطئة مثل التاريخ. جنوب أوروبا توجد به "الرؤوس والخلجان" (أو شبه الجزر) و"المراكز الجغرافية" المنفصلة المطلوبة. ولكن العمليات التاريخية التى يناقشها دايموند هنا تخص الخمسمائة سنة الأخيرة، ومعظم التطورات الكبيرة خلال تلك الفترة التى تتعلق بالمجادلة حدثت فى شمال وغرب أوروبا التى تعتبر مسطحة: السهل الأوروبى الشمالى من فرنسا إلى روسيا، امتداد هذا السهل فى فرنسا وإلى الحدود الإسبانية، جنوب إنجلترا (التى تكاد تكون معزولة عن كتلة اليابسة للقارة الأوروبية)، حتى وسط أوروبا ليس معزولاً عن شمالها وغربها. هناك القليل من الثنايا الهامة فى الخط الساحلى بين بوردو وبريمن. وإذا نظرنا إلى توزع السكان فى هذا الإقليم فليس هناك عزلة كما أن المراكز ليست على مستوى كبير من التطور. تبلور الحكومات الإقطاعية الصغيرة فى شمال أوروبا فى شكل دول حديثة كان لأسباب ذات علاقة ضعيفة بالاختلاف الطوبوغرافي، حدود معظم هذه الدول لا تعكس حواجز طوبوغرافية، كما أن معظم المراكز الثقافية ليست مراكز إيكولوچية. إن فكرة نموذج الدول المتعددة التى تميل إلى الديمقراطية فكرة مغلوطة: كل واحدة من تلك الدول كانت استبدادية مثل - وربما أكثر من - الصين. والهجرة من حكومة لغيرها لم تكن ملموسة للدرجة التى كان يمكن لها أن تحدث أثرًا فى تطور الديمقراطية. إضافة إلى ذلك فإن ما يطلق عليه دايموند (بطريقة مخففة) الدول "المتنافسة" فى أوروبا كانت فى الغالب دول حرب، وربما كانت الصين أكثر سلمًا أثناء معظم القرون من أوروبا (ربما حتى أثناء فترة

الانقسامات المنج - كنج)، وبالتأكيد فإن بيئة السلم تفضى إلى التقدم الاقتصادى أكثر من بيئة الحرب. وأخيراً فإن رأى دايموند عن المجتمع الصينى يقوم على معتقدات أوروبية قديمة وبالية. لم تُصب الصين بالجمود فى أواخر العصور الوسطى: التطور الصينى استمر بدون توقف، ولم تتفوق أوروبا على الصين فى مجال التكنولوجيا أو تطور مؤسسات السوق، كذلك فى مستوى معيشة الفرد حتى القرن الثامن عشر[٢١]؛ وباختصار، فإن فكرة أن طوبوغرافيا الصين هى التى أدت إلى وصول الصين لمرحلة المجتمع والحكومة الموحدة، تلك الوحدة التى أدت بطريقة ما إلى الاستبداد والركود، هى فكرة لا تدعمها الحقائق.

يفترض دايموند أن الانتشار لعب دوراً كبيراً فى فوز أوروبا على الصين. فى كتاب "الأسلحة والجراثيم والصلب"، يجادل دايموند بأن الحواجز الجغرافية أمام الانتشار كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء فشل المجتمعات فى التقدم. ولكن الصين، كما يجادل، كان لديها حواجز أقل أمام الانتشار من أوروبا. أكان يجب على الصين أن تتقدم بسرعة أكبر من أوروبا التى تحررت من تلك العوائق؟ كيف يواجه هذا التناقض؟ أولاً، يقدم نظرية ملتوية مفادها أن القليل من الانتشار ليس فقط عقبة أمام التطور، ولكن كذلك المقدار الكثير منه. مثل ثانى الدببة الثلاثة، كان لدى أوروبا النسبة المتوازنة المثلى وهو ما أدى بدوره إلى الانتشار المكثف للابتكارات فى أوروبا أكثر من الصين. ثانياً، يدعى دايموند - مجادلة تقليدية أخرى - وهى أن افتقاد أوروبا للوحدة السياسية رجح كفة انتشار الابتكارات على نحو ما، بينما كان دورها فى الحقيقة على العكس من ذلك. الحدود السياسية عوائق أمام التحرك الإنسانى، كما أنها عادة ما ترتبط مع العوائق اللغوية وبالتالى تكون عوائق أمام الاتصال والتواصل. المجادلة الثالثة تعد ضمنية على نحو كبير، وبالرغم من ذلك فهى واضحة وجلية. يدعى دايموند أن التطور الاجتماعى والتكنولوجى تحرك بثبات نحو الغرب من الهلال الخصيب لأوروبا. فهو يقرر (خطأً) أن الكتابة التى اخترعت فى الهلال الخصيب كانت ببساطة أداة البيروقراطيات الاستبدادية القديمة، إلى أن انتشرت الحروف الهجائية غرباً إلى

اليونان ويقول (وهذا أيضًا خطـأ) أن اليونانيين أضافوا كل حروف العلة (وليس بعضٌ منهم فقط)، وبهذا حولوها إلى أداة للكتابة الإبداعية وللابتكار وللفكر المجدد وللشعر وما شابه. الخلاصة أنها مجادلة بأن التقدم الفكرى انتشر غربًا وأصبح تابعًا أو نتيجة عندما وصلت الكتابة أوروبا. يجب أن يكون هذا أسـاس مجـادلته "التقليد المسيحى - اليهودى - اليونانى فى البحث الإمبيريقى" وأحد الأسباب وراء انتصار أوروبا. ومع ذلك ففى كتاب "الأسلحة والجراثيم والصلب" يصر دايموند (وهو على حق فى ذلك) على أن كل الشعوب متساوية فى قدرتها الإبداعية وعقلانيتها، وهذا تناقض، ولكن هذا أمر لا قيمة له حيث إن "البحث الإمبيريقى" لم يخترع بواسطة الأوروبيين، كما كان على نفس درجة التطور فى الصين وحضارات أخرى مثلما كان فى أوروبا.

لقد وصفت مجادلة دايموند بأنها علمية بصورة زائدة عن الحد، وهذا ليس لأنه يحاول أن يستخدم بيانات علمية وتفكيراً علميًا لحل مشكلات التاريخ الإنسانى، فهذا محمود. مجادلته يمكن وصفها بذلك لأنه يدعى الوصول إلى إجابات علمية يمكن الاعتماد عليها لحل هذه المشكلات. ولكنه، فى الحقيقة، ليس لديه هذه الإجابات كما أنه يطرح جانبًا ونهائيًا نتائج العلم الاجتماعى، بينما يقحم نظريات قديمة ومغلوطة عن الحتمية البيئية. وهذا يعتبر علمًا رديئًا.

الهـــوامـــش

(١) Diamond, Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies (1997).

(٢) أرقام الصفحات بين الأقواس فى هذا الفصل تشير إلى "الأسلحة، الجراثيم والصلب".

(٣) Davidson, The Prehistory of New Zealand (1984); King, Moriori: A People Discovered (1989); Bulmer, "Gardens in the South: Diversity and Change in Prehistoric Maaori Agriculture" (1989).

(٤) انظر Lewis and Wigen, The Myth of Continents: A Critique of Metageography (1997), لمناقشة جيدة عن جزافية مفهوم القارات.

(٥) للمزيد حول فكرة أن محاور القارات لديها أثر عميق على تاريخ العالم هى فكرة قديمة، انظر على سبيل المثال Karl Ritter's 1865 book Comparative Geography فى الجزء بعنوان "The Position of the Continents and its Influence on the Course of History" (pp. 46 et seq.). يعتقد Ritter أن الله شكل القارات لتستفيد البشرية.

(٦) "The Position of the Continents and its Influence on the Course of History" (pp. 46 et seq.).

(٧) كانت تلك المجادلة تفسيراً شائعاً فى "نظرية التحديث". حقيقة أن الأقاليم الرطبة الاستوائية غير متطورة: المشكلة هى عادات غذائية سيئة. چاك هارلان Jack Harlan، كعالم نبات، يوضح: "يستطيع الإنسان أن يعيش بدرجة كبيرة أو صغيرة على البطاطس لو أكل القدر الكافى منها" Harlan, The Living Fields: Our Agricultural Heritage (1995), p. 190. انظر كذلك Blaut, "The Ecology of Tropical Farming Systems" (1963).

(٨) تم تطوير طريق الحرير الأسيوى الداخلى فى الصحارى شمال التبت مؤخراً جداً ليكون له علاقة بتلك القضية. يفترض المؤرخون فى بعض الأحيان أن التنقلات الأولى لشعوب الرعى فى هذا الإقليم أدت إلى انتشار محاصيل الغذاء من الشرق للغرب، ولكن هؤلاء الناس لم يكونوا مزارعين، كما أن الواحات كانت قليلة وبعيدة.

(٩) Blumler, "Ecology, Evolutionary Theory, and Agricultural Origins" (1996), p.36, يشكك بلمر فى الادعاء بأن الأنواع البرية التى كان من الممكن أن تكون محاصيل غذاء مستأنسة لم تكن متوفرة فى هذا الإقليم.

(١٠) يسلم دايموند بأن شعب الكوى ربما كانوا يتمتعون بميزات خاصة ولكنهم أبيدوا أو أخرجوا عن طريق الأوروبيين وبالتالى لا يمكن أخذهم فى الحسبان. يجوز كذلك أنه أضاف أن الأوروبيين عرفوا الرعاة الكوى على أنهم رحل، وبالتالى شعب ليس لديه الادعاء المشروع فى أى مقاطعة - وهذا مثال كلاسيكى للاستعمار "أسطورة الفراغ" (انظر الجزء الأول).

(١١) الحقيقة أن شعب الكوى عاش بين السوشا فى بعض المناطق، ربما سنجد أن الكوى الرعاة مارسوا زراعة المحاصيل على الجانب أو فى مناطق قريبة من مستوطنات السوشا.

(١٢) من يطلق عليهم جماعات الصيد والجمع كانوا أيضًا فى مناطق أخرى صيادى أسماك وقواقع.

(١٣) يوافق دايموند مع الآخرين كذلك على أن نقص المناعة أمام أمراض العالم القديم التى جلبها الأوروبيون كان عاملاً فى الغزو.

(١٤) Blumler, "Ecology, Evolutionary Theory, and Agricultural Origins" (1996), p. 36.

(١٥) انظر Blench, "Ethnographic and Linguistic Evidence for the Prehistory of African Ruminant Livestock, Horses, and Ponies" (1993).

(١٦) Giblin, "Trypanosomiasis Control in African History: An Evaded Issue?" (1990); Turshen, "Population Growth and the Deterioration of Health: Mainland Tanzania, 1920-1960" (1987); Shaw, The Archaeology of Africa (1993).

(١٧) انظر MacNeish, The Origins of Agriculture and Settled Life (1991); Glover and Higham, "New Evidence".

(١٨) يرجع دايموند حقيقة أن كوريا لديها لغة مختلفة جدًا عن الصينية "لعزلتها الجغرافية" عن الصين، ولكن هذه العزلة غير موجودة، وهذا تناقض آخر فى معالجة دايموند للانتشار وعدم الانتشار.

(١٩) حققت مركزية أوروبا الآسيوية نوعًا من الذيوع فى الماضى لعدة عقود. يعكس تيار البحث الأكاديمى الجديد الذى يوضح إنجازات الصين التاريخية، وكذلك النجاح الاقتصادى الحالى لليابان. لم تحل مركزية أوروبا الآسيوية محل المركزية الأوروبية بالطبع.

(٢٠) تناقش أشكال متعددة من نظرية الاستبداد الشرقى فى الفصول الثانى والخامس والتاسع. دايموند لا يطلق على نظريته "الاستبداد الشرقى"، ولكنها كذلك.

(٢١) انظر فى هذا الشأن MacNeish, The Origins of Agriculture and Settled Life (1991); Glover and Higham, "New Evidence".

الفصل التاسع

ديفيد لاندز

الإمبراطورية ترد الضربة

قوبل كتاب ديفيد لاندز عن تاريخ العالم الصادر ١٩٩٨ بعنوان "غنى وفقر الأمم: لماذا البعض غنى جداً والبعض فقير جداً" بحفاوة كبيرة فى جريدة وول ستريت Wall Street Journal ونيويورك تايمز Newyork Times وكذلك جريدة الواشنطن بوست Washington Post وذلك حتى قبل أن يصل إلى المكتبات[١]. عندما يحظى كتاب تاريخ بهذا النوع من الاهتمام يساورنا الشك فى أنه يقول شيئاً يرغب صناع الرأى فى مجتمعنا أن نؤمن به. الكتاب يرد الضربة لنقاد تاريخ المركزية الأوروبية، فهم على حد قول لاندز مرضى "بالفوبيا الأوروبية" (P.514) "Europhobia" هم بالأساس حماة الحمى الذين بسببهم اعتبرت "فكرة... تاريخ عالمى مركزى أوروبى... متغطرسة وجائرة" (P.513). إنهم يهدفون "لتطويع الحقيقة لأهداف عليا" (P.348). يقول لاندز إن التاريخ البحثى يجب أن يكون مركزياً أوروبياً: "البعض يقول إن المركزية الأوروبية سيئة... أما بالنسبة لى، فأنا أفضل الحقيقة على الفكر الجيد" (P.xxi).

بالرغم من ذلك تبدو "حقيقة" لاندز أيديولوچية. على سبيل المثال: "فكرة التطور الاقتصادى كانت اختراعاً غربياً". (P.32). "على مدار ما يربو على ألف سنة من... التقدم... كانت القوة المحركة هى الحضارة الغربية وانتشارها" (P.513). "أفريقيا شبه الصحراوية تهدد كل من يعيش فيها أو يذهب إليها" (P.8). يفضل المزارعون الأفارقة الأسر الكبيرة

"كدليل على الفحولة" (P.501). "الصينيون افتقدوا .. حب الفضول" (P.96). "لم يكن لدى علماء الصين أى طريقة لمعرفة متى كانوا على صواب". التأكيد فى الأصل، (P.344)، "على عكس الصين، كانت أوروبا متعلمة" (P.348) . "فى أمريكا اللاتينية" كان هناك نقص فى المهارات وفى الولع بالمعرفة وفى المبادرة والاهتمامات المدنية الخاصة بأمريكا الشمالية "كما أن" الاستقلال تسلل داخلاً كمفاجأة لكيانات غير متطورة، "بدائية لم يكن لديها إلا هدف واحد وهو تغيير السادة" (P.318). وقد أظهر اليابانيون "ضراوة مميزة" (P.355). وكان الهنود (قبل الحكم الإنجليزى) "شعبًا طيعًا" (P.396). "حتى وإن لم توجد إسرائيل، فسيمسك [العرب] بتلابيب بعضهم البعض" (P.409)، وهكذا. كل هذه الاستشهادات خارجة عن السياق بالطبع، ولكنها توضح الاتجاه العام فى كتاب "غنى وفقر الأمم".

ومع ذلك فإن المركزية الأوروبية العادية ليست أخبارًا ساخنة. لكن الذى أثار "الوول ستريت" على وجه التحديد هو مجادلة لاندز التى مفادها أن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب، وتاريخ الغرب هو سير نحو هدف "مجتمع التطور والنمو المثالى" (P.216). الذى يشبه إلى حد كبير رأسمالية العمل الحر الصرفة. والمثير كذلك هو مجادلة لاندز بأن الإمبريالية طبيعية: "فهى تعبير عن دافع إنسانى عميق" (P.63). كما أنها شىء جيد، وكذلك العولمة الحديثة، والمواءمات الهيكلية وما شابهها تعد طبيعية وجيدة أيضًا. إن هذه المجادلات مفيدة جدًا لأولئك الذين أرادوا، إذا جاز التعبير، أن يجمدوا التاريخ حيث هو الآن.

فى هذا الفصل سأحلل نظرية لاندز فى التاريخ بالتفصيل وأوضح - باستعارة كلماته - أنها ليست حقيقة، وإنما فكر مركزى أوروبى جيد. سيتبع التحليل ترتيب المجادلات فى "غنى وفقر الأمم". المجادلة الأولى (الفصلان الأول والثانى) تدعى أن أوروبا، وعلى وجه الخصوص شمال غرب أوروبا، لديها بيئة طبيعية متفوقة على ما عداها فى العالم. المجادلة الثانية (الفصلان الثالث والرابع) تختص بالثقافة الأوروبية وبالذات العقل الأوروبى وكيف أن الثقافة الأوروبية والعقل الأوروبى متفوقان على غيرهما منذ أيام العهد القديم. أما المجادلة الثالثة (الفصول من الخامس إلى الثانى عشر)

تبحث فى تاريخ التوسع الأوروبى والإمبريالية والاستعمار وتشرح، من وجهة نظر لاندز، لماذا كانت تلك العملية طبيعية وجيدة معًا. المجادلة الرابعة (الفصول من الثالث عشر إلى التاسع عشر) هى جهد لتفسير الثورة الصناعية من منطلق مركزى أوروبى. المجادلة الخامسة والأخيرة (الفصول من العشرين إلى الثامن والعشرين)، هى نظرة على المجتمعات الرئيسية فى العالم اليوم موضحة فرضًا تفوق الأوروبيين والأسلوب الأوروبى على غيره من الشعوب، كذلك حياتهم وأساليب الإنتاج المتنوعة لديهم، وموضحة كذلك السبب الذى يستدعى أن يخضعوا تحت مظلة الأوروبيين.

"رياح دافئة وأمطار خفيفة"

لاحظنا فى الفصل الثامن أن هناك نظريتين أساسيتين تنضوى تحتهما معظم المجادلات الحديثة الداعية إلى التفوق التاريخى لأوروبا: بيئة طبيعية أفضل وثقافة تقدمية أكثر[٢]. يستخدم لاندز الاثنتين ويبدأ بالبيئة.

ما بين أيدينا هو نظرية للحتمية البيئية الكلاسيكية. نحتاج أن نقول من البداية أن الجغرافيين طرحوا هذه النظرية جانبًا منذ وقت بعيد[٣]، ومما لا يثير الاستغراب أن يبعث لاندز الحياة فى أفكار اليسورث هنتجتون Ellsworth Huntigton فى أوائل القرن العشرين، التى تتعلق بالتأثير المفترض للمناخ على النشاط الإنسانى[٤]. كان هنتجتون نصير ما نطلق عليه فى هذا الكتاب "نظرية البيئة الأوروبية" أى الحتمية البيئية، التى انتشرت لخدمة المركزية الأوروبية. متتبعًا هنتجتون يجادل لاندز أن المناخات الآسيوية تعد غير ملائمة للنشاط الإنسانى والتقدم الثقافى. ولم ذلك؟ يقدم لاندز سلسلة من الأسباب المفترضة التى سأوضح خطأ كل منها.

يبدأ لاندز بالإشارة إلى الخريطة وسؤالنا أن نلاحظ أن الدول الغنية تتجه لأن تقع فى أقاليم (خطوط العرض المتوسطة) "المعتدلة" والدول الفقيرة فى المناطق الاستوائية. ويؤكد لاندز أن هذه علاقة سببية وليست ارتباطًا فقط: المناخات الاستوائية سيئة بالنسبة

للتقدم الإنسانى. فى الحقيقة، أى نظرية تاريخية تشرح حقيقة أن أوروبا بدأت "تنهض" بعد ١٥٠٠ ومن ثم أصبحت أغنى من غيرها من المجتمعات، ستفيد فى توضيح سبب أن الدول فى الأقاليم المعتدلة بشكل عام، أغنى من تلك التى تقع فى أقاليم استوائية. لقد استقر الأوروبيون فى أقاليم سمحت لهم بممارسة نظم زراعية معروفة، ومن هذا الأساس الزراعى طورت مجموعات من المجتمع الأوروبى (البريطانى) فى تلك الأقاليم المعتدلة. المناطق الأنجلو - أمريكية(*) كذلك أستراليا ونيوزيلندة كانت أجزاء مكملة لاقتصاد واحد مركزه بريطانيا حتى أواخر القرن التاسع عشر. أما العراقيل المؤقتة مثل الثورة الأمريكية فلم تغير من هذه الحقيقة فى واقع الأمر.

وبصورة أخرى: لم تكن العلاقة بين بريطانيا وأنجلو - أمريكا علاقة بين مركز إمبريالى وتابع مستَغَل، ولكنها كانت علاقة على قدم المساواة بين أطراف متكافئة فى نظام واحد. وبالعكس، كان باقى العالم من وجهة نظر البريطانيين (والهولنديين والفرنسيين، إلخ) أماكن لاغتنام الأرباح. كان السكر والقطن أكثر السلع الزراعية إدراراً للربح حتى بداية القرن التاسع عشر، فهى محاصيل استوائية وشبه استوائية ولهذا تطور اقتصاد زراعى تمكن فيه الأوروبيون من استغلال الأرض التى (خلت) من السكان فى أمريكا اللاتينية وقاموا بالاستيلاء على العمالة لهذه المزارع من مراكز قريبة ذات كثافة سكانية عالية وهى غرب أفريقيا. فى آسيا، كانت الصين غير الاستوائية واليابان بعيدتين بحيث يصعب ضمهما للاقتصاد المتمركز فى أوروبا حتى القرن التاسع عشر، ثم بدأت الصين فى التدهور بينما اليابان، لكونها أبعد عن القوة الأوروبية العسكرية، قاومت الإمبريالية الأوروبية بنجاح. كل ما سبق يلخص ما كان يناقش بتفصيل أكبر فى الجزء الأول. نقطتى هنا هى: تدهور الأقاليم الاستوائية نتيجة للتاريخ وليس المناخ.

أحد فرضيات نظرية الحتمية البيئية الكلاسيكية كانت فكرة أن الحرارة تعوق النشاط الإنسانى الذهنى والجسمانى إلى حد ما. يكرر لاندز هذه المجادلة، ومن الواضح

(*) الأنجلو - أمريكية: هى تلك المناطق فى الأمريكتين التى تتحدث الإنجليزية. (المترجمة)

عدم علمه بثبوت خطئها. مرة أخرى، متتبعًا خطا هنتجتون، نجده يؤكـد أن نوعًا من نظم الحرارة المتوسطة أو المعتدلة هو أفضل للناس من آخر حار جداً أو بارد جداً. ولكنه يقول إن البرد الشديد يمكن التغلب عليه بالملبس والمسكن وهو ما يستحيل مع الحرارة الشديدة. نعرف فى الواقع، أن الأجساد البشرية المعتادة على درجات الحرارة المنخفضة يمكنها العمل بنفس كفاءة تلك المعتادة على درجات الحرارة المرتفعة(٥). يرى لاندز أن المناخ جزء من تفسير العبودية. لم يستطع الأوروبيون العمل تحت وطأة الشمس الحارة، لذا بدا من الطبيعى إجبار الأفارقة على العمل فى المزارع(٦). (كانت هذه مجادلة مفضلة من قِبل مروجى وأنصار العبودية قديمًا. أما بالنسبة للاندز فهى تناسب نظريته كى يبرئ ساحة الأوروبيين من أى لوم بخصوص الآثار السلبية للإمبريالية).

وتلك فكرة مغلوطة. هناك العديد من الأقاليم الاستوائية، منها كوينزلاند Queensland(*)، التى قام فيها الأوروبيون بالعمل فى الحقل، ويمكن أن نلاحظ أن المزارعين البيض عملوا فى المناطق شبه الاستوائية فى جنوب الولايات المتحدة فى الحقول بعد الحرب الأهلية مثلما كان يفعل العبيد السود من قبل، والبعض ما زال يقوم بذلك. لنلاحظ كذلك أن المزارعين فى المناطق الاستوائية الرطبة، حيث لا شتاء، يمكن أن يعملوا فى الحقل على مدار العام. قد يتفق القليل من المزارعين مع لاندز فى أن "الشتاء... هو صديق الإنسانية العظيم" (P.8)(٧).

ثم يؤكد لاندز أن الناس فى المناخات الاستوائية مصابون بالأمراض. فى الحقيقة، الناس فى الدول الفقيرة عمومًا مصابون بالأمراض والسبب هو الفقر وليس المناخ. صحيح أن الطقس البارد، كما يقول، يثبط عمل الحشرات التى تنقل الأمراض ولكن هذا متغير واحد فقط من عدة متغيرات بيئية وثيقة الصلة بهذا الشأن(٨). من المعروف الآن أن الثدييات تعد مصادر العدوى الرئيسية لكثير من الأمراض البشرية، وتحظى

(*) Queensland منطقة فى شمال شرق أستراليا. (المترجمة)

الحيوانات الأليفة (مع الجرذان) بنفس الأهمية فى هذا السياق فى خطوط العرض المتوسطة مثل المناطق الاستوائية. كثير مما يطلق عليه أمراض استوائية أصابت أيضاً أقاليم مناطق خطوط العرض المتوسطة: الملاريا، على سبيل المثال، كانت لعنة فى مدينة نيويورك. يركز لاندز على ذبابة التسى تسى ومرض النوام ويروى مغالطات الحقبة الاستعمارية القديمة عن هذا المرض فى أفريقيا. "تتسبب ذبابة التسى تسى فى جعل مناطق كبيرة من أفريقيا الاستوائية خالية من الماشية بل معادية للإنسان... كانت تربية الحيوان والمواصلات مستحيلة". (P.9) لم يكن الحال كذلك. فى الحقيقة، يبدو من المحتمل الآن أن مشكلة ذبابة التسى تسى كانت تحت السيطرة فى أفريقيا - ربما، مثلما كانت الجمرة الخبيثة فى أوروبا الآسيوية - حتى قضت تجارة العبيد على العديد من سكان المناطق هناك، مما أدى إلى زيادة الأحراش والتى بدورها زادت من أعداد الحيوانات المتوحشة[٩].

يحكم لاندز الاتهام الموجه للمناطق الاستوائية باستخدام عدد من التأكيدات الخاطئة. "المياه مشكلة أخرى فى المناطق الاستوائية الرطبة... فتوقيت (سقوط الأمطار) غير منتظم فى الغالب... كما أن معدل سقوطها غزير جداً". (P.18). فى الحقيقة، اختلاف سقوط الأمطار يعد مشكلة فى كل الأقاليم شبه القاحلة، استوائية وغير استوائية (لكن ليست الاستوائية المطيرة)، كذلك الأمطار الغزيرة. (والشىء بالشىء يذكر، أكثر عواصف الشتاء قسوة فى شمال أوروبا مخيفة تماماً مثل الأعاصير فى الأقاليم الاستوائية). يدعى لاندز، خطأ أيضاً، أن مشاكل مخزون الغذاء نتائج هذه الصعوبات. وهذا، كما يقول لاندز خطأ، ينبع من حقيقة أن الزراعة الاستوائية زراعة متنقلة (ما يطلق عليها "القطع" و"الصدق") والتى تعد غير منتجة. أما التربة الاستوائية فهى، على الرغم من لاندز، خصبة[١٠]. مشاكل الغذاء فى العادة مشاكل فقر وليست بيئة[١١]. ولكن نتيجة لاندز بسيطة فهى حتمية مناخية تقليدية:

الحياة فى المناخات الفقيرة... متزعزعة، كئيبة وموحشة (P.14).

هناك ظروف أفضل بكثير فى المناطق المعتدلة، وعلى رأسها أوروبا وعلى رأس أوروبا أولاً وأخيراً غربها. (P.17). مرة أخرى لدينا سلسلة من المجادلات البيئية القديمة والتى ثبت خطؤها. الشتاء فى غرب أوروبا لطيف. "استطاع الأوروبيون زراعة المحاصيل على مدار العام"، ولكن "لطيف" هنا ما هو إلا حكم قيمى، وزراعة الشتاء فضلاً عن تلك المستديمة، كانت ممكنة فى مناطق صغيرة فى جنوب (وليس غرب) أوروبا (P.17). امتاز غرب أوروبا "برياح دافئة وأمطار خفيفة، مياه فى كل الفصول ومعدلات منخفضة من البخر" (P.18). فى الواقع، المناخ فى معظم هذا الإقليم وبالخصوص فى الشمال الغربى مطير لدرجة تحد من الطاقة الشمسية، كما قد لا تفلح زراعة محاصيل الحبوب، كما أن التربة لا تجف حتى أواخر فصل الربيع هذا إن جفت(١٢). يقول لاندز: الشتاء فى شرق أوروبا أكثر قسوة، بينما فى جنوبها المطر أكثر ندرة، - وهذه مغالطة كلاسيكية أخرى - وقد أدى كل ذلك إلى فقر أكبر وتصنيع أقل فى شرق وجنوب أوروبا منه فى غربها. المواشى والدواب فى أوروبا أقوى وأصح منها فى أقاليم أخرى بفضل المناخ، وفقًا للاندز. (ليس كذلك ١٣) ويضيف معتقدات بيئية أوروبية خاطئة أخرى، فى معظمها مستعارة من إيريك جونز فى كتابه "المعجزة الأوروبية"، وتم تفنيدها فى الفصل الخامس من هذا الجزء.

ينادى لاندز بمزايا الأقاليم المعتدلة بوجه عام، لذا يجب عليه أن يتعامل مع الصين(١٤). فهو يقارن بين الصين - غير مفضلاً إياها - وأوروبا فى سياقات مختلفة فى "غنى وفقر الأمم"، وفى الغالب مستخفًا بعدم عقلانية الصينيين فى أمور مثل السلوك الاقتصادى والسياسى، والجنسى ("تناسلى") وهى أمور نناقشها فى موضع آخر من هذا الفصل. ولكنه يستحضر نظرية بيئية كلاسيكية كجزء من تفسيره لنقص الصين مقارنة بأوروبا على مدار التاريخ. وهى نظرية الاستبداد الشرقى، التى تفيد بأن الحضارات المتمركزة حول أودية الأنهار وتعتمد على الزراعة بالرى من المفترض أن تكون استبدادية وغير تقدمية. لقد ناقشنا هذه النظرية فى الفصول الثانى والخامس والسادس وأوضحت، كما أتمنى، أنه لا أساس لها من الصحة.

ثقافة تقدمية فريدة

الأمر اللافت للنظر فى "غنى وفقر الأمم" هو عدد المجادلات المختلفة التى يقدمها المؤلف لتفسير التفوق الأوروبى الآن وفى الماضى. صيغة المجادلات كلها صيغة سببية وهى تمتد عبر سلسلة كاملة من المناخ والثقافة والسياسة والاقتصاد والمجتمع ويبدو لاندز وكأنه يخبر القارئ أن أى واحدة من تلك المجادلات وحدها يمكن أن تكون كافية لتفسير التفوق الأوروبى. قراءة الكتاب أقرب لقراءة مذكرة قانونية. ولكن المجادلات منظمة، بصورة عامة، فى مجموعتين هما البيئة والثقافة. نتحول الآن للثقافة.

هناك نظام تقريبى لهذه المجادلات الخاصة بالثقافة. يأتى أولاً فصل يستعرض كل جوانب المجتمع على مدار تاريخه. ثم يأتى فصل آخر يركز على العقل الأوروبى. فى كلا الفصلين نرى الصفات الفائقة للأوروبيين مع مناقشة مقارنة مع غير الأوروبيين الأقل شأنًا. ثم بعد ذلك تأتى فصول مخصصة لانتقاد غير الأوروبيين: الصفات اللاتقدمية للإسلام والهند والصين وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. سأناقش هذه المجادلات بشكل عام بنفس النظام الذى قدمت به.

هناك فرق أساسى بين الشرق والغرب كما يقول لاندز. ثم بعد ذلك يقوم بسرد، ولكنه لا يناقش، عدد ملحوظ من المعتقدات المركزية الأوروبية القديمة عن كيف ولماذا كان الغرب أكثر تقدمًا وأكثر تنويرًا من الشرق على مدار التاريخ. يجب أن يقال هنا أن معظم تلك المعتقدات القديمة أو النظريات مازال ينادى بها بعض مؤرخى المركزية الأوروبية بمن فيهم هؤلاء الذين نناقش آراءهم فى هذا الكتاب، ولكن من المهم أن ندرك أن كل تلك النظريات تم الاعتراض عليها من قِبل الباحثين – ومع ذلك يعلن لاندز بسعادة عنها وكأنها حقائق مقبولة[١٥].

> كانت الحضارات الشرقية فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى استبدادًا شرقيًا (عبودية للجميع)... لماذا وجد الناس العاديون إلا لإسعاد حكامهم؟ بالتأكيد ليس لإطلاق العنان لإرادتهم... فكرة التطور الاقتصادى

> اختراع غربي. الإمبراطوريات الأرستقراطية (الاستبدادية) كانت عبارة عن عمليات ضغط: عندما رغب الصفوة في المزيد، لم يفكروا في مكاسب في الإنتاج... ببساطة ضغطوا (وقهروا) بقوة أكثر[١٦] (PP.31.32).

إذا نحينا جانبًا لبرهة السؤال عما إذا كان هذا التأكيد المتذمر ينطبق على الشرق القديم أكثر منه على الغرب القديم، يجب أن نقدم بعض التفنيدات. أصبح مقبولاً بشكل واسع الآن أن الحضارات الشرقية تطورت اقتصاديًا بمعدلات ليست أقل سرعة من الغرب، وكذلك كانت التكنولوجيا الشرقية. كما أن مستويات المعيشة لم تكن أقل في آسيا منها في أوروبا حتى العصر الحديث، ربما حتى منتصف أو أواخر القرن الثامن عشر. ما أطلق عليه استبداد ترك الفلاحين والتجار لحالهم (هذا إن دفعوا ما عليهم)، وشكلت الطبقات الحاكمة نسبة صغيرة نسبيًا من السكان، كما أن أنشطتهم الاستغلالية في معظم الأوقات والأماكن لم تكن تمثل عبئًا ثقيلاً على عامة الناس مثلما يصور لاندز[١٧].

الحضارة الغربية، وفقًا للاندز سلكت طريقًا مختلفًا كليًا. نعرف أولاً بأن كل حقوق الملكية الخاصة متأصلة في التقليد المسيحي - اليهودي[١٨]، كذلك فكرة الحرية الفردية (التي شاركهم فيها اليونانيون)[١٩]. أما روما فتوقفت لفترة مؤقتة حيث كانت إمبراطورية استبدادية[٢٠]. التعاليم المسيحية، والأهم منها النزعة الفردية للقبائل الجيرمانية، طورت الأفكار الأوروبية الفريدة للحرية والملكية الخاصة. هناك مسحة غائية في كل ذلك: كانت الديمقراطية والرأسمالية هي قدر الله المكتوب في الماضي الأوروبي القديم وفي العصور الوسطى، ولم يكتب في أي مكان غير أوروبا.

هذه ميثولوجيا كلاسيكية مركزية أوروبية. كل تلك المجادلات التي قدمت من قبل مؤرخي المركزية الأوروبية نوقشت وفندت في الفصول السابقة، لذا يبقى فقط بعض التعليقات المختصرة.

أولاً: الاعتراف ببعض حقوق الملكية المحدودة كان عامًا في الحضارات القديمة بالرغم من أنها كانت محددة بأشكال معينة كما كانت تتعرض لضغط تحت اسم حق الحاكم العرضي والنهائي. لم يكن الغرب فريدًا.

ثانيًا، ليس هناك دليل جيد على أن الحرية الشخصية كان معترفًا بها فى الغرب أكثر من الشرق. ديمقراطية اليونان كانت مساواة بين الصفوة من الذكور(٢١).

ثالثًا: ثقافة قبائل التيوتونية فى أوروبا لم يكن لديها شعور متأصل بالحرية الشخصية والملكية أكثر مما وجد فى العديد من الثقافات القبلية الأخرى: المجادلة هى مفاخرة أوروبية ثقافية تقليدية(٢٢).

يقارن لاندز بعد ذلك بين إمبراطوريات الشرق الشريرة وما يرى أنها دول ديمقراطية فى طور التطور فى الغرب القديم والعصور الوسطى؛ ومرة أخرى هنا واحدة من القصص التقليدية فى تاريخ المركزية الأوروبية. (لقد استخدمت هذه القصة من قبل إيريك جونز ومايكل مان وجون هول كما ناقشنا فى فصول سابقة). أصل تلك المجادلة هو الاعتقاد بأن فكرة الحرية والاستمتاع بها احتكار غربى لآلاف السنين. ثم نجد أن تفكك الحكومات الأوروبية أثناء الفترة الإقطاعية كان يعنى أن هذه الوحدات السياسية كانت أكثر ديمقراطية من الإمبراطوريات الكبيرة فى آسيا. الحقيقة أن تلك الكيانات لم تكن دولاً فى حقيقة الأمر: فقد عكست سلطة طبقية مقسمة فى تلك الفترة، مع ممتلكات إقطاعية تقع فى نطاق كيانات أكبر حتى مستوى البارون والملك.

خطأ لاندز مثل أخطاء غيره من مؤرخى المركزية الأوروبية ممن يستخدمون هذه المجادلة يكمن فى التجسيد أو التشبيه Anthropomorphism(*) للحكومة الإقطاعية: بشكل ما تتحول أحجية الصور الناقصة على الخريطة إلى أفراد أحرار ومتساوين. تحت هذا التجسيد يختبئ المفهوم بأن اللوردات فى هذه الحكومات الإقطاعية ذاتها كانوا هم الحكومات وسلوكهم الكريم تجاه بعضهم البعض - داخل الطبقة الحاكمة الإقطاعية بالطبع - أوحى على نحو ما بديمقراطية فى الكيانات السياسية التى حكموها(٢٣). ولكن ليس هناك دليل على أن النظم السياسية داخل الحكومات الإقطاعية كانت أكثر ديمقراطية من النظم الموجودة فى إمبراطوريات آسيا. يصف لاندز الأخيرة على أنها

(*) Anthropomorphism: نسبة الصفات البشرية إلى كائنات غير إنسانية. (المترجمة)

استبدادات رديئة بينما الحقيقة شيء آخر. أوضح البحث الأكاديمى الحديث عن الصين أن الإمبراطورية الصينية كانت تسمح بدرجة كبيرة من الحرية لرعاياها، وقد كان هذا بالفعل أحد مفاتيح استمرارها(٢٤). ليس ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن الحكومات الأوروبية فى العصور الوسطى وفرت حرية أكثر من الإمبراطوريات فى الشرق.

بعد ذلك نجد فرضية ڤيبر الكلاسيكية بأن المدينة فى أوروبا فى العصور الوسطى كانت فريدة بين مدن العالم، كما كانت عاملاً مهمًا فى تقدم أوروبا السياسى نحو الديمقراطية الحديثة. ڤيبر كما رأينا فى الفصل الثانى، كان يعتقد أن المدن الأوروبية كانت أكثر استقلالية من المدن الآسيوية فى العصور الوسطى ولكن دراسات حديثة عن المدن الآسيوية عارضت هذا الرأى معلنة بأن المدن الآسيوية كانت على قدم المساواة مع تلك الأوروبية فى الشئون السياسية والاقتصادية(٢٥). يتجاوز لاندز ما قاله ڤيبر حين يقول: إن المدن الأوروبية منحت "القوة المدنية... المكانة الاجتماعية والحقوق السياسية لقاطنيها... كانت [ال] مدن بوابات الحرية، ثقوبًا فى نسيج العبودية الذى كسا الريف" (p.36). هذه خرافة: فقد استطاعت مجموعة صغيرة من العبيد فى أوروبا أن تفر إلى المدن التى كانت عدائية بشكل عام لهجرة الغرباء. صحيح أن قاطنى المدن كانوا يتمتعون بحريات أكبر من الفلاحين المقيدين، وعلى وجه الخصوص العبيد فى الريف الإقطاعى، كذلك تمكن الاقتصاد المدنى من التطور تكنولوجيًا بسرعة أكبر من الاقتصاد الريفى ولكن هذا الأمر يعد صحيحًا فى آسيا (وأفريقيا) كما هو صحيح فى أوروبا.

يجادل لاندز بعد ذلك فى أن المدن الأوروبية كانت حلفاء طبيعيين للملوك فى صراعهم المتصاعد ضد أصحاب الأرض الإقطاعيين – وهى عملية كما نعلم حدثت مع نهاية الإقطاع ممهدة الطريق أمام ممالك أولية حديثة طاغية – ولكن كانت هناك عمليات مشابهة تحدث فى أماكن أخرى، وعلى أى حال من الصعب أن نتبع مجادلة تعكس واقع اللوردات الإقطاعيين الأوروبيين كعملاء للتقدم وفى نفس الوقت تدينهم كأعداء له ("نسيج العبودية" وما إلى ذلك)، لا يستوى الأمر فى الحالتين معًا.

مخترعو الاختراعات[٢٦]

ظن لاندز لسنوات عديدة أن القدرة التكنولوچية على الاختراع التى نعرف أنها تميز المجتمع الصناعى الحديث كانت فى الحقيقة منطلقة بأقصى سرعة فى أوروبا (وليس فى أماكن أخرى) وذلك أثناء العصور الوسطى. يمكن وصف لاندز بأنه عضو فى مدرسة تاريخية للحتمية التكنولوچية الأوروبية المركزية، هذا إذا لم يكن انتقائيًا فى استحضار عدد من الحتميات المختلفة (منها كما رأينا الحتمية البيئية) وذلك كلما كان يحتاج لأى منها للتأكيد على واحدة أو أخرى من مجادلات المركزية الأوروبية. قام لاندز نفسه بإجراء بحثى أكاديمى عن تطور تكنولوچيات معينة فى أوروبا فى العصور الوسطى، والمشكلة هنا، مثلما هى فى أى مكان آخر، أنه يفشل فى رؤية أن التطورات التى حدثت فى أوروبا فى العصور الوسطى كانت متوازية مع مثيلاتها فى الصين ومجتمعات أخرى ربما فى نفس المجال التقنى وربما فى مجالات مرتبطة به، فقد كانت الصين والهند والشرق الأوسط إما على قدم المساواة مع أوروبا فى التكنولوچيا بصفة عامة والتقدم التكنولوچى فى العصور الوسطى، أو (كما يجادل بعض الباحثين) كانت فى الواقع أكثر تقدمًا من أوروبا حتى القرن السادس عشر على الأقل[٢٧]، ولكن لاندز يعتقد فى العكس.

كان الأوروبيون هم أكثر الشعوب قدرة على الاختراع على وجه الأرض على مدى آلاف السنين وفقًا للاندز؛ فهو يرسم صورة لمجتمع تقدمى مفتوح له قدرة على الاختراع وله جذور موغلة فى القدم لآلاف السنين، من البدايات الإنجيلية، إلى اليونان القديمة وإلى الثقافة الچيرمانية. ولكن هذه الفكرة قدمت فى الأغلب عبر مقارنات فردية مع الحضارات القديمة التى تميزت بكونها غير تقدمية، ويبدو أن الحضارات الآسيوية تعرقلت فى مسيرة الاختراع والابتكار بسبب:

(١) الاستبداد الشرقى.

(٢) السلوك الإنجابى اللاعقلانى، أما الاستبداد الشرقى فيعود إلى الحضارات النهرية القديمة التى تنطبق على الصين والهند والشرق الأوسط على مدار تاريخها.

> بالنسبة للصين كبت البلاط الإمبراطورى والماندارين(*) المعارضة والإبداع، حتى الابتكار التكنولوچى. لقد كان مجتمعًا مستقرًا ثقافيًا وفكريًا... حيثما كان هناك تهديد للوضع الراهن كانت الدولة تتدخل لتغيير النظام[٢٨].

هذا كله هراء، فالصين ببساطة لم تكن "مجتمعًا مستقرًا ثقافيًا وفكريًا". يتبنى لاندز الرأى المالثوسى التقليدى عن الزيادة السكانية: فحواه أن غير الأوروبيين ليسوا عقلانيين بالدرجة الكافية التى تجعلهم يتحكمون فى رغباتهم الجنسية، ولذا توجد لديهم أخطاء أكثر مما يجب وبالتالى يخرج تعداد السكان عن السيطرة. لذا فمن المفترض أن آسيا كان يوجد بها "زواج مبكر بدون أى اعتبار للموارد المادية... وعلى العكس فإن أوروبا المسيحية، وعلى وجه التحديد الغربية، قبلت فكرة التبتل أو الفردية وبالتالى الزواج المتأخر (حتى يستطيع المرء توفير نفقاته) وباعدت بين المواليد"[٢٩]. إن "الإستراتيچية الإنجابية العتيقة" للصين كانت "الزواج المبكر والكثير من الأطفال. وهذا بدوره يتطلب الطعام الذى بدوره يتطلب الأفراد. طاحونة. وتعود هذه الإستراتيچية إلى آلاف من السنين" (p.23). هناك مجهود ضعيف مقدم لتوضيح كل ذلك بطريقة غير منحازة: "الطلب على العمالة فى موسم الأمطار والمحاصيل الوفيرة تتطلب الزيادة فى أعداد السكان" (p.21)، ولكن الكثافات السكانية اتجهت لتناسب الإنتاجية الزراعية بصورة تقريبية فى المجتمعات الزراعية القديمة: ليس هناك منطق فى المجادلة التى مفادها أن الناس الذين يمارسون الزراعة القائمة على الرى يجب أن تكون لديهم قيود على الإنجاب أقل من أولئك الذين يمارسون أى شكل آخر من الزراعة لو كان كلا الشكلين يوفران كمية الغذاء نفسها بالنسبة للفرد.

على أية حال، تطورت التكنولوچيا الزراعية (وغيرها) بشكل جيد فى الصين وفى أماكن أخرى فى آسيا، وتتجه الدراسات الأكاديمية الحديثة لتقرر أن أوروبا لم تكن

(*) The Mandarins: كبار موظفى البلاط فى الصين من ذوى النفوذ. (المترجمة)

مختلفة عن غيرها فى حجم الأسرة ومعدل المواليد، وما شابه حتى أثناء العصور الوسطى[٣٠]. أى أن المؤرخ لاندز يقع فريسة للأدلة الإمبيريقية.

شهدت الفترة من (١٠٠٠-١٥٠٠) بعد الميلاد فى أوروبا "ثورة اقتصادية... لم يشهدها العالم منذ... الأزل"[٣١]. لقد كانت تلك الفترة كما يقول لاندز الفترة التى أينعت فيها القدرة الأوروبية الفريدة على الاختراع، وكانت الظروف الممهدة لذلك هى الوحدة بين المسيحية والثقافة الجيرمانية فى نهاية عصور الظلام[٣٢]، ولكنه لم يفصح عن كيفية حدوث هذا الاندماج. هنا مثلما فى أماكن أخرى يقدم لاندز نمطًا من النظرية وضدها. وهى مقارنة مثيرة للاستياء مع الصين (وبالأخص) مع الشرق الأوسط الإسلامى. كان لدى تلك الحضارات قدرات كامنة للنمو. الصين (كما يقول لاندز) فقدت القوة الدافعة بصورة واضحة مع نهاية فترة سونج، وذلك بسبب الأمراض القديمة للاستبداد الشرقى وكثرة عدد السكان، ومن ثم بدأت فى التقهقر علميًا وتكنولوجيًا ونواحىَ أخرى عديدة. أما التقدم فى الشرق الأوسط فكانت جنوته قد انطفأت بسبب الديانة الإسلامية. يرسم لاندز صورة سلبية جدًا للإسلام وللشعوب الإسلامية. كان العالم الإسلامى تقدميًا حتى ١١٠٠ بعد الميلاد "ثم حدث خطأ ما. مال العلم الإسلامى تحت وطأة الضغوط الدينية لتحقيق الانسجام الروحى... أما بالنسبة للإسلام العسكرى فقد تم الكشف عن الحقيقة بالفعل"[٣٣]. ولكن هذا الرأى عن الصين فى العصور الوسطى والمجتمع الإسلامى تم إثبات خطئه بواسطة الباحثين: نعلم الآن أن العلم والتكنولوجيا ازدهرا فى تلك الحضارات فى فترة العصور الوسطى.

هناك خطأ واضح نجده فى مناقشات لاندز عن التكنولوجيا الأوروبية فى العصور الوسطى. مثل كثيرين غيره من مؤرخى المركزية الأوروبية يصف لاندز السمات الحديثة ويدعى أنها كانت موجودة لمئات من السنين قبل ظهورها بالفعل مستخدمًا بعض البشائر الأولية لتلك الصفات كدليل على ذلك. على عكس ذلك يقدم صفات بدائية للدول غير الأوروبية ويدعى أنها كانت خصائص دائمة فى تلك المجتمعات. كل ذلك يجعل أوروبا العصور الوسطى تبدو أكثر حداثة مما كانت عليه بينما يبدو غيرها فى الفترة نفسها أكثر تخلفًا[٣٤]. ينصب الخطأ على الاتجاهات - القدرة على الاختراع والابتكار

على وجه الخصوص - والصفات المادية، بالنسبة لأوروبا نجد بشائر أولية لتقنية فى العصور الوسطى تتحول بصورة سحرية إلى الشكل الحديث المتطور، وفى مجتمعات مثل الصين ينكر ظهور تقنية تامة التشكيل (متجاهلاً الأدلة المعروفة) أو يعزو ذلك لسبب لاعقلانى. مثال: يسلم لاندز، كما يجب عليه، أن البارود ظهر فى الصين قبل أوروبا، كذلك المدافع (فى نهاية القرن الثالث عشر)، ولكن بالنسبة للصين كانت المدافع غير فعالة، عمل لاعقلانى. "من الواضح أنها كانت تقيّم حسب ما تصدره من صوت تماماً مثل قدرتها القتالية. يجد العقل البراجماتى هذه الرؤية للتكنولوجيا محيرة". ثم يقفز لاندز على ثلاثة قرون من تاريخ العالم إلى أوروبا فى القرن السادس عشر ويعلن أن أوروبا "لديها أحسن مدفع فى العالم" (p.53). يوضح هذا المثال أيضًا خطأ آخر مميزًا: عندما تُختَرع أداة خارج أوروبا لا يقع التأكيد على الاختراع ذاته، ولكن على الطريقة التى استطاع عن طريقها العقل "البراجماتى" الأوروبى أن يطورها.

كان المزارعون فى أوروبا فى العصور الوسطى أكثر حداثة وتقدمًا من نظرائهم فى أماكن أخرى وفقًا للاندز (فهو يحتفظ حقًّا بلقب "فلاح" للمزارعين من غير الأوروبيين). كانت ملكية الأرض خاصة ولم تكن كذلك فى أماكن أخرى. تحظى إنجلترا العصور الوسطى باهتمام ونجد صفات "الفردية" للمزارع الإنجليزى من صغار الملاك، مقارنة "بالخضوع الصامت للفلاح الآسيوى". "كان الإنجليز أحرارًا ومحظوظين"[٣٥] إلخ. لذا نجد أن الإقطاعية بكل بربريتها قد انتزعت من المنظر الريفى فى العصور الوسطى. (وماذا حدث يا ترى "لنسيج العبودية" الذى، كما يقول، "ساد الريف"؟) بالإضافة إلى أن هناك ثورة تكنولوجية تغير الأوضاع فى غرب أوروبا أثناء العصور الوسطى. يسرد لاندز عدداً من التكنولوجيات الثورية المزعومة فى الزراعة مقتفيًا أثر لين وايت الابن (انظر الفصل الثالث)، فهو يفشل فى إخبار قرائه أن فكرة الثورة التكنولوجية فى الزراعة كانت نتيجة خلاف كبير بين مؤرخى التيار السائد، وليس ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن التغيير كان يحدث بسرعة فى أوروبا أكثر من غيرها[٣٦]، وكما رأينا فى مناقشتنا لوايت لم يكن اختراع المحراث الثقيل اختراعًا أوروبيًا حصريًا، كما أنه ظهر فى شمال أوروبا كأسلوب يتناسب مع طبيعة التربة هناك، كما أن الاستعانة بالحيوانات

لم يكن جديداً ولا أوروبيًا صرفًا، لم يكن نظام الدوران الثلاثي في الزراعة ابتكاراً ثوريًا أوروبيًا (كان معروفًا في أماكن أخرى). الحكم نفسه ينطبق على طاحونة الهواء والسواقي ونظم الري والصرف، وكل التقدمات التكنولوچية خارج أوروبا. على نطاق نصف الكرة كانت الزراعة تتطور ببطء نسبي (وليس ثوريًا) وكانت أوروبا على المدى الطويل ربما تعير وتستعير الابتكارات بنفس المعدل في غيرها من الأقاليم.

يعتقد لاندز أن جذور الثورة الصناعية في أوروبا تعود إلى زمن وقت العهد القديم، ولكن الأمور تسارعت منذ ألف سنة. نجد أفكاراً عن الفردية و"مؤسسات الملكية الفردية" أورثها أولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب واليونانيون والقبائل الچيرمانية للأوروبيين في العصور الوسطى (p.33) وعن الحرية الرائعة التي تمتع بها قاطنو المدن الأوروبية في العصور الوسطى – والأكثر أهمية من ذلك – عن القدرة الفريدة للأوروبيين على الاختراع والتقدم. يقدم لاندز هذه الآراء بصراحة وبدون دليل أو مجادلة، وبقوة أكبر يقدم لنا فكرة افتقار مجتمعات أخرى معاصرة للمجتمع الأوروبي لتلك المزايا والصفات: والصين هي وسيلة المقارنة الأساسية؛ هل اخترع الصينيون أي ماكينة أو تقنية في العصور الوسطى؟ إذا كان هذا الأمر يعتريه أي شك فإن لاندز ينتقد الخبراء في الصين والثقافة الصينية لسذاجتهم؛ ويوجه اللوم إلى چوزيف نيدهام Joseph Needham على سبيل المثال لأنه ركز على الاختراعات الصينية وأهمل ما يعتبره لاندز السؤال البحثي الأكثر أهمية: لماذا فشل الصينيون بعد ذلك في تطوير الاختراعات لما هو أبعد من ذلك؟ إذا لم يكن هناك شك في أن الصينيين هم الذين اخترعوا أي آلة أو أداة، فمن ثم نجد لاندز إما يؤكد التحسينات التي أضافها الأوروبيون عليها أو الطريقة الفريدة ("البراجماتية") التي استخدمها بها الأوروبيون. ويضع المناقشة كلها في إطار يبدو فيه نموذج للصين كمجتمع غير متقدم تكنولوچيًا، وبعد حوالي ١٢٠٠ أصبح راكداً بل متردياً.

يلتفت لاندز بعد ذلك لأوروبا ويختار على سبيل العرض بعض الاختراعات الميكانيكية الهامة التي يظن أنها تمت في أوروبا أو تطورت فيها. فهو يصرح بأن تلك الاختراعات هي قلب وروح الثورة الصناعية في العصور الوسطى. كما يستفيض

فى وصف التحسينات التى طرأت على هذه الاختراعات حتى بعد نهاية العصور الوسطى، وبهذا يترك انطباعًا لدى القارئ أن هذا الاختراع قام به - اخترعه واستخدمه - الأوروبيون فى العصور الوسطى. وبهذا تكون: ثورة صناعية لم تحدث أبداً.

توصف ثلاث تكنولوچيات باعتبارها مقياسًا للثورة الصناعية المفترضة فى العصور الوسطى، وهناك ما يجب أن يقال بشأن كل منها[٣٧]. التكنولوچيات الثلاث هى الطباعة، الساعات والنظارات. من المعروف أن كل واحدة من تلك الاختراعات لها أهمية تاريخية عظيمة من حيث آثارها ودورها، كعلامة على العقل الأوروبى المخترع والمبتكر. قبل البحث الذى أجرى من قبل نيدهام وسيڤين sivin وغيرهما عن تاريخ التكنولوچيا الصينية، كان معروفًا أن كل تلك التكنولوچيات الثلاث كانت أوروبية فريدة فى نشأتها وتطورها. والآن نعرف أن هذا ليس صحيحاً.

أولاً، بالنسبة للطباعة يسلم لاندز أن اختراع الحرف المعدنى المتحرك تم فى شرق آسيا وليس فى أوروبا، ولكنه يؤكد بعد ذلك وبدون دليل أن الصينيين لم يقوموا بالكثير من القراءة أثناء أو بعد العصور الوسطى (هذا بالطبع هراء)[٣٨]. ثم ينتقل إلى بدايات الفترة الحديثة فى أوروبا ويصف بحماسة عدد النسخ من إنجيل جوتنبرج، والتى كان يتم تداولها فى أوروبا فى القرن السادس عشر، مزينًا المجادلة بتعليقات عن تطور الطباعة فى أوروبا فى أوقات لاحقة؛ ومن ثم يقاد القارئ إلى الاعتقاد خطأً أن النتائج الفكرية للقراءة والكتابة كانت خاصة بأوروبا. لا أعرف أى بحث يوضح أن الصينيين كانوا أبطأ من الأوروبيين فى تطوير الطباعة والتمتع بفوائدها.

صناعة الساعات ظهرت فى الصين قبل أوروبا. اخترع الصينيون العنصر الأساسى وهو ميزان الساعة قبل أكثر من ألف سنة[٣٩]. بالنسبة للاندز فإن الساعات الصينية واستخدامها لم يعنِ أى أهمية تاريخية. فهو يصف كل ذلك بصورة غير دقيقة وبلا اهتمام[٤٠]، كما يغلف وصفه بخطاب مركزية أوروبية. "تعامل الصينيون مع الوقت ومعرفته كجانب سرى له علاقة بالسلطة ولا يشترك فيه عامة الشعب" (p.50)

(لم يعر الصينيون أى اهتمام للوقت؟) "فى المدن، كانت الطبول وغيرها من الآلات التى تحدث أصواتًا تشير إلى الساعات". (p.50) (ألم تكن هناك ساعات شمسية وساعات مائية، وساعات رملية؟) وفى مقارنة متشددة، يقول "كان يجب على الأوروبيين معرفة وتنظيم الوقت وذلك حتى يتسنى لهم تنظيم نشاطهم الجماعى... تخصيص وقت للاستيقاظ ووقت للذهاب للعمل ولفتح السوق ولغلق السوق وللانتهاء من العمل... وللذهاب للنوم" (p.50)، هذا وصف لحياة فى القرن العشرين وليس فى العصور الوسطى.

"الساعة الميكانيكية... كانت اختراعًا أوروبيًا عظيمًا فى أواخر القرن الثالث عشر وتعود أهميته إلى إسهامه فى الانضباط والإنتاجية" (p.336) هذا التعليق مضلل. لم تكن صناعة الساعة اختراعًا وبالتالى "اختراعًا عظيمًا". كانت تركيبة من الاختراعات الصغيرة على مدى عدة قرون بعضها فى الصين وبعضها فى الشرق الأوسط وبعضها فى أوروبا. نيدهام يوضح بحق أن الابتكارات كانت متقاطعة على نطاق نصف الكرة الأرضية فى تلك الفترة(٤١). بالرغم من أهمية العملية فالجدلى فقط هو من يمكن أن يعتبرها أوروبية فريدة. وبالرغم من ذلك فقد قام الأوروبيون باختراع هام فى أواخر القرن الثالث عشر وهو الساعة التى تديرها الأثقال المعدنية وليس الماء أو الرمل (بالرغم من أنه على نحو آخر يمكن اعتباره آلة ميكانيكية تمامًا مثل الساعات الصينية). نعلم أنها انتشرت على نطاق واسع وبسرعة كبيرة، ولكن تطور المكان - والزمن لآلات معرفة الوقت مثل الساعة الرملية لم تكن معروفة بعد. وبشكل عام فإن الحكم المتزن يمكن أن يكون: فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استثمر الأوروبيون المبادئ الميكانيكية التى استعاروا بعضها بالضرورة من غيرهم، ولكن لم يكن لهم السبق فى نواح تكنولوجية عديدة بالمقارنة بالساعات من حيث الأهمية التاريخية (على سبيل المثال: البوصلة والمدافع والفرن العالى والطباعة)(٤٢).

أخيرًا النظارات. كما نعرف أن الإيطاليين اخترعوا النظارات سنة ١٣٠٠ تقريبًا، ولكن يجب أن نلقى نظرة نقدية على ادعاء لاندز أنها كانت اختراعًا محوريًا. مرة أخرى يتم تضليلنا بطريقتين: أولاً، مثلما الحال مع الساعات، يتجاهل دور غير الأوروبيين والطريق يبدو أوروبيًا صرفًا. ولكن وفقًا لنيدهام كان الصينيون يقرءون باستخدام

النظارة المعظمة قبل قرنين من تلك الفترة(٤٣). الاختراع الأوروبى كان لعينين وليس لعين واحدة، ويتعامل لاندز مع هذا الابتكار كأنه أساسى: "أداة تلبس... تاركة اليدين حرة". ثم يقدم نظرية غريبة لا أساس لها عن قياس الإبصار. عدسة العين "تقوى مع الأربعين" وبالتالى يؤدى هذا إلى "طول النظر... من المعقول أن نتوقع أن يعيش حرفى فى العصور الوسطى عشرين سنة أخرى، أفضل سنوات عمره... إذا كان يتمكن من الرؤية الجيدة. قامت النظارات بحل المشكلة". لا يقدم لاندز أى أدلة على هذه النظرية التى لا تعدو أن تكون ملاحظة عن العيون، وعن حياة وعمل الحرفيين وما إلى ذلك. ثم يسلم أن النظارات الخاصة بقصر النظر لم تظهر إلا بعد ١٥٠ سنة. تستطيع النظارات حقًا ترك اليد حرة وهذا مهم، ولكن ما مدى هذه الأهمية؟ بالنسبة للاندز فإن هذا الاختراع "ساهم فى زيادة العمل للحرفيين المهرة بأكثر من الضعف"، وهذه مجادلة لا تصدق. النظارات "شجعت اختراع الأدوات الدقيقة ودفعت بأوروبا فى اتجاه لم يوجد فى أى مكان آخر... كانت أوروبا بالفعل تسير قدمًا... ثم إلى الإنتاج على نطاق واسع" (p.47). يكشف هذا عن الطريقة الثانية التى يضللنا بها لاندز حيث يضخم من أهمية هذا الاختراع (كما يفعل مع الساعات والطباعة)، ليبدو وكأن الأوروبيين فى العصور الوسطى كانوا أكثر قدرة على الاختراع من غيرهم، وقد كان هذا دليلاً وسببًا لتقدم أوروبا المزعوم أكثر من كل الحضارات الأخرى فى ذلك الوقت وبعده. فى مواضع أخرى فى "غنى وفقر الأمم" نجده يؤكد جذور الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر كانت متطورة فى أوروبا العصور الوسطى.

لا أحد ينكر أن اختراعات هامة ومترتبة على ما سبقها ظهرت فى أوروبا فى العصور الوسطى. ولكن لاندز مثل غيره من مؤرخى المركزية الأوروبية، على غرار ماكس فيبر، يرسم صورة لأوروبيى العصور الوسطى، كأن لهم قدرة فريدة على الاختراع والابتكار - والعقلانية - وهذا لا يصدق. إن الأمر أساسى. بدأ الأوروبيون فى التفاعل بكثافة مع الحضارات الأخرى فى نصف الكرة الشرقى بعد ١٥٠٠. ولو كانت لديهم بالفعل تلك الصفات الرائعة (هذا ولا نريد أن ننسى البيئة الرائعة) التى أنعم بها عليهم لاندز وآخرون، إذًا لعادت نهضة أوروبا بعد ذلك للغنى والقوة ولتفوق فطرى قديم لدى الأوروبيين على من سواهم. النظريات البديلة تعامل الحضارات الأوروبية

وغير الأوروبية على أنها متساوية فى قدرتها على النجاح ومتشابهة فى مستوى التطور فيما قبل غزو الأمريكتين. هناك عدد من النظريات بعد ذلك يفسر نهضة أوروبا مقارنة بالحضارات الأخرى من خلال الحقائق والقوى التى كانت تعتمل بعد ١٤٩٢[٤٤]. إحداها هى مجادلة هذا الكتاب.

إمبراطورية

يكره لاندز إمبراطوريات آسيا ولكنه يحب الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية، يحب الإمبريالية. ويعرّفها باعتبارها نوعًا من التوجه الطبيعى للمجتمعات فى أن تتوسع عن طريق الغزو. فهو يقول إن الإمبريالية تجرى فى دمائنا: إنها "التعبير عن دافع إنسانى عميق". "لقد كانت الإمبريالية دومًا معنا" (p.63) كونها "دافعًا إنسانيًا عميقًا" لا يجعلها إستراتيچية قاسية لسرقة أراض وثروات للآخرين. "استفاد الاقتصاد الأوروبى قليلاً هذا إن كان قد استفاد" منها[٤٥]. كان هناك العديد من الإمبرياليات الهامة فى التاريخ: التوسع الإسلامى و"توسع أوروبا المسيحية" (p.393). بدأ التوسع الأوروبى فى نفس الوقت تقريبًا مع الإسلامى؛ ووفقًا للاندز تعود الإمبريالية الأوروبية إلى الغزوات الإسكندناڤية، والحروب الصليبية، والاتجاه نحو الشرق أو Drang nach Osten(*). ولكن مع الحالة الإسلامية نجده يؤكد أنها كانت مختلفة جدًا عن الأوروبية؛ فقد استند التوسع الإسلامى على أساليب قديمة وكان متعلقًا بحماسة العاطفة (p.393)، أما التوسع الأوروبى فقد ارتكز على تكنولوچيا فائقة وكان فى الأساس تعبيرًا عن القوة والسعى وراء الربح، وبعض الباعث الدينى والفضول. لذا فقد كان عقلانيًا. كما كان طبيعيًا كذلك. كان سكان البلاد الأصليون متخلفين وجهلاء وخانعين فى ظل الاستبداد الذى لم يستطيعوا مقاومته.

(*) Drang nach Osten: تعبير ألمانى يعنى الاتجاه نحو الشرق وقد استخدم من قبل مفكرى القرن التاسع عشر ومن ثم بواسطة الحزب النازى فى ألمانيا لتفسير رغبة ألمانيا فى الحصول على الأرض والنفوذ فى شرق أوروبا. (المترجمة)

مناقشة لاندز للإمبريالية الأوروبية وتبعات ما بعد الحقبة الاستعمارية تشغل حوالى نصف عدد صفحات كتاب "غنى وفقر الأمم". وهناك مكون هام فى نظريته وهو أن أوروبا كانت متفوقة على غيرها لمدة ألف سنة، وما زالت كذلك فى عصر العولمة اليوم. ولكن ذلك أكثر بكثير من أن يكون نظرية فى التاريخ.

فهو تصريح سياسى ويمكن حتى أن يكون طعنًا سياسيًا لاذعًا. يريد لاندز أن يؤيد ويدافع عن المجتمع الرأسمالى الأوروبى فى شكله اليوم: فهو يقول مرارًا وتكرارًا منتقدًا الباحثين الذين يدعون أن غير الأوروبيين كانوا وما زالوا على قدم المساواة مع الأوروبيين فى أمر أو غيره، وكذلك الذين يدعون وجود أصول غير أوروبية للتقدمات الثقافية الأوروبية، الباحثين الذين ينتقدون الإمبريالية الغربية كقوة سلبية فى التاريخ أو ينتقدون جوانب من هيمنة الغرب على العالم الثالث اليوم. من يقللون من العظمة الأوروبية بوصف الإمبريالية بأنها إستراتيجية اقتصادية(٤٦). نقاد المركزية الأوروبية هؤلاء هم مدافعون عن آرائهم فحسب أما لاندز ومن يتفق معه فهم "يفضلون الحقيقة".

فى الفصل الأول من هذا الكتاب قمت بتعريف انتشار المركزية الأوروبية كنظرية أو نموذج للعالم قائم على أساس مجادلتين أساسيتين ضروريتين لمنطقه؛ واحدة هى المجادلة البديهية فى أن أوروبا تتقدم بصورة طبيعية بينما غيرها يبقى متخلفًا وتقليديًا وغير تاريخى، والثانية هى المجادلة البديهية بأنه منذ ١٤٩٢ ارتكز التطور فى العالم غير الأوروبى على انتشار الابتكارات من أوروبا. وبهذا يكون لدينا عالم ذو قطاعين: الداخل الأوروبى يتقدم من خلال قواه الداخلية الباعثة على التقدم بينما يتطور الخارج أو الفرع عن طريق استقبال ثمار الحداثة من أوروبا عن طريق الخضوع والاستسلام للهيمنة الأوروبية، أو كما يقول لاندز "السيادة الأوروبية (الغربية) وثمارها" (p.36). كتاب "غنى وفقر الأمم" يتبع هذا المنطق، ومن هنا تأتى أهمية مناقشة لاندز الطويلة والمعجبة بالإمبريالية الأوروبية ونتائجها اليوم.

تاريخ الإمبريالية يتم تلخيصه بطريقة تقليدية جدًا. يقلل لانذر بصفة دائمة من الجوانب السلبية ويبالغ فى الفوائد. فقد كانت العبودية وتجارة العبيد مستعارة من

النخاسين العرب غرب أفريقيا؛ أى أن الأساس كان موجوداً ولكن الأوروبيين هم الذين قاموا باستخدام العبودية لأغراض إنتاجية. (والحقيقة أن الكثير من العبودية بدايتها - كان يقوم بها الأوروبيون الذين استعبدوا أوروبيين أو غيرهم - لا يمكن مقارنتها فى شكلها ومداها بالعبودية فى المزارع التى وجدت فى المستعمرات الأوروبية).

انخفاض أعداد السكان فى الأمريكتين أمر لا يمكن للاندز إنكاره ولكنه يقلل من أهمية الغزو: لا يجب أن نمضى الكثير من الوقت على أبحاث بورا وساور Borah & sauer(*) وعامل الأمراض، بالنسبة للاندز كان الشىء المهم هو التفوق التقنى والثقافى[٤٧]. (كان المرض بالفعل هو العامل الحاسم: إذا لم تهلك أعداد كبيرة من سكان العالم الجديد بسبب الأمراض التى أتى بها الأوروبيون - ربما أُبيد ثلاثة أرباع أعداد السكان فى أمريكا وتوقف فى القرن السادس عشر - لتمكن السكان الأصليون من أن يتعلموا التكنولوجيا الأوروبية العسكرية بعد ١٤٩٢ ولتمكنوا من الزج بآلاف الجنود الأوروبيين فى عرض البحر). كان الأمريكيون، كما يؤكد لاندز، قساة، يؤمنون بالخرافة، وفى بعض الأحيان من أكلة لحوم البشر[٤٨]. لقد كان الغزو طبيعياً.

بعد ذلك يقدم لنا سلسلة من الأحكام المركزية الأوروبية الخاطئة عن استعمار المزارع الكبيرة، لم تكن مستعمرات المزارع القائمة على العبيد فى حقيقة الأمر مهمة تاريخياً. (خطأ كبير). كان الطقس الكاريبى غير مواتٍ للاستقرار الأوروبى. (خرافة بيئية). كان السكر بالطبع محصولاً قيماً جداً، يسمح لاندز بهذا، ولكنه لم يحظ بنفس الأهمية عند باحثين آخرين (مثل إيريك وليامز Eric Williams): فهو "لم يغير مسار التطور الإنجليزى" بصورة مهمة[٤٩]. (هذا الحكم تقليدى فى البحث الأوروبى ولكنه قوبل بهجوم قوى: انظر الجزء الأول)، بالطبع كانت هناك مقاومة من قبل العبيد ولكن كما يقول لاندز، كانت، جزئية، بإيعاز من الأوروبيين - عبيد هايتى "شجعتهم مبادئ

(*) Borah & sauer: باحثان فى ديموغرافيا الأمريكتين، جادلا بوجود أعداد كبيرة من السكان الأصليين فى الأمريكتين قبل الغزو الأوروبى، مركزين على أمراض العالم القديم التى ساهمت فى إبادة أعداد كبيرة من السكان الأصليين. (المترجمة)

الثورة الفرنسية وهبوا ليثوروا ... لقد هزم الفرنسيون بالمرض أكثر من الرصاص"(٥٠). (خرافة تقليدية أخرى، فشعب هايتى فى الحقيقة هو الذى صنع ثورته بنفسه. لقد هزموا جيوش نابليون بعد ووتر بفترة طويلة)، وعليه يظهر الأوروبيون لدى لاندز كفاعلين نشطاء، أما الأفارقة وسكان أمريكا الأصليين فيظهرون كمفعول بهم سلبيين.

لدينا نفس الصورة الخاطئة عن الاستعمار فى آسيا، فقد أراد الإنجليز فى الهند أن ينخرطوا فى تجارة سلمية، وحاول الهنود تقييدهم، وهذا "حول فكر الدخلاء إلى أفكار عدائية" (p.154). من المفترض أن الهند قبل حكم الإنجليز كانت أرض تأخُر تكنولوجى وحقوق ملكية محدودة، وفقر مدقع، فقد كانت محكومة من قبل مستبدين طغاة (وهذا ليس صحيحًا)(٥١). ومن ثم حرر الإنجليز الهنود من هذا الوضع المأساوى عن طريق استعمارهم. (ولكن المستعمرات غير حرة كما يبدو من اسمها هى غير حرة). كان الهولنديون فى إندونيسيا يفضلون أن يكونوا وسطاء ووكلاء وموزعين، ولكن الصراع مع الأيبيريين فى البلد الأم أجبرهم، على غير رغبتهم، على أن يصبحوا حكامًا مستعمرين. وهذا يصور الاستعمار الأوروبى بشكل عام على أنه أمر طبيعى فى التاريخ البشرى، مدفوع بكل أنواع القوى من بينها العطش لتراكم الثروة - كان صغيرًا نسبيًا - لأمر (بالرغم من الاعتراف بجوانبه السيئة) مفيد ونافع للسكان الأصليين الذين فى كل الأحوال لم يكن فى مقدورهم عمل أى شىء لدرئه. كذلك يتم تصوير الاستقلال بنفس الطريقة. فى أمريكا اللاتينية، "تسلل الاستقلال، مفاجأة للكيانات غير المكتملة التشكيل والبدائية التى لم تكن تهدف إلا لتغيير رؤسائها". منحت إندونيسيا استقلالها طواعية "بسبب الرأى العام الهولندى ونقد الذات النادم" (p.149). فى المستعمرات بوجه عام، "أثبتت رموز الحرية الأوروبية وحقوق الإنسان أن تكون مُعدية وتعلمت الشعوب الخاضعة من رؤسائها كيف تقاومهم" (p.438). وباختصار فإن كل شىء ينتشر من أوروبا.

يناقش لاندز كذلك الظروف بعد الحقبة الاستعمارية والوقت الحالى فى بعض أجزاء العالم الثالث وما نجده لدينا هو نفس نموذج انتشار المركزية الأوروبية.

الرسالة هى أن الفقر خطؤهم، ولكى يتقدموا يجب عليهم أن يقبلوا الانتشار من أوروبا، والأهم من ذلك الرأسمالية العالمية، المركزية الأوروبية التى من المتفرض أن يلعبوا فيها دور الخاضع التابع. (يبدو أن تلك هى الرسالة الهامة لغنى وفقر الأمم بالفعل. وربما كان ذلك هو السبب الأساسى الذى جعل صحيفة الوول ستريت وغيرها من وسائل الإعلام الكبرى توليه أهمية كبيرة). يناقش لاندز تباعًا أمريكا اللاتينية بعد الاستعمار والصين فى أوائل الحداثة والفترة الحديثة وكذلك العالم الإسلامى فى أوائل الحداثة والفترة الحديثة و(باختصار) أفريقيا. فهو أولاً، بالنسبة لعدم تقدم أمريكا اللاتينية بعد الاستقلال من أنجلو - أمريكا. يقول إن هناك أسباب ثقافية وبيئية. بينما استقرت عائلات إنجليزية فى أنجلو - أمريكا اللاتينية فقد اتجه الرجال العزاب من أيبيريا إلى الاستقرار فى أمريكا اللاتينية ومن ثم تزوجوا من السود والهنود ليكونوا نوعًا مختلفًا من المجتمع. لا أثر للعنصرية هنا ولكنه حكم لافت للنظر فى أن المجتمع المختلط فى أمريكا اللاتينية كان سيئًا: "لا توجه، لا هوية، لا رمز للوطنية، لا ضغط للتوقعات. المجتمع المدنى كان غائبًا" (p.133). ويجد سببًا آخر أكثر عمقًا فى حقيقة (كما يراها) أن جذور أمريكا اللاتينية تعود إلى أيبيريا الكاثوليكية المعارضة للإصلاح الدينى، فقد كانت "محاكاة تافهة للمجتمع الأيبيرى"، مفتقدة "المهارات، حب المعرفة، المبادرات، والاهتمامات المدنية لأمريكا الشمالية" (p.312)، وبالطبع يضع لاندز أوروبا فى مرتبة أعلى من غيرها ولكنه يضع أوروبا الكاثوليكية فى مرتبة أقل من أوروبا البروتستانتية أما أسبانيا فهى أقل الجميع. كانت إنجلترا البروتستانتية مجتمعًا متشككًا، ذا عقل علمى، معارضًا، يقدس أخلاق العمل - وهنا انحناءة لماكس ڤيبر - قامت بتصدير كل ذلك إلى أمريكا الشمالية. أما أسبانيا الكاثوليكية فقد كانت مجتمعًا طيعًا، مطحونًا تحت "الأرثوذوكسية المضادة للإصلاح الدينى، وحماسات الخرافات" (p.312) (بعيدة عن المجادلة المتوازنة) ويفسر فقر أمريكا اللاتينية وعدم استقرارها السياسى بهذه الطريقة، لقد كانت هناك أسباب بيئية: فلكون أمريكا اللاتينية استوائية نجدها بيئة فقيرة للتطور الاقتصادى(٥٢).

يتهكم لانذر على أولئك الذين يجدون عوامل خارجية وراء فقر أمريكا اللاتينية وعدم استقرارها. فهو يتجاهل حقيقة مشاركة المستعمرات الاستيطانية البريطانية فى التطور الاقتصادى لبريطانيا الحديثة، وظل باقى العالم بما فيه أمريكا اللاتينية أرض صيد جيدة لاستغلال الأوروبيين، كما يشجب بقوة أصحاب نظرية التبعية فى إلقاء اللوم على الإمبريالية فى مناقشة مشاكل أمريكا اللاتينية(٥٣).

بعد ذلك يخبرنا لاندز عن سبب (كما يعتقد) عدم تطور الصين فى أواخر العصور الوسطى وأوائل القرون الحديثة. مجادلاته هنا ليست تاريخًا مركزيًا أوروبيًا تقليديًا فحسب ولكنها تتجاهل الكثير من نتائج الدراسات الحديثة (فهو يستشهد بعدد محدود من المصادر لا يوجد من بينها مصدر أولى). الأساس، كما ناقشنا سابقًا، هو رأيه فى الصين على مر التاريخ ومعاناتها من الاستبداد الشرقى والعادات الإنجابية السيئة مع الفقر وعدم التطور كنتيجة منطقية لذلك كله. ولكنه لا يجد مناصًا من تأكيد الحقيقة المقبولة وهى أن الصين كانت على نفس المستوى إن لم تكن أعلى من أوروبا فى جوانب تكنولوچية عديدة حتى القرن الثالث عشر على الأقل، فهو يسلم أن التطور كان يعتمل من قبل بدون إبداء أى تفسير لكيفية حدوثه فى الصين فى ظل الاستبداد الشرقى وصعوبات مالثوس التى سمحت بالتطور. بعد ذلك يجادل مثلما يفعل مؤرخو المركزية الأوروبية بأن شيئًا ما حدث فى الصين فى العصور الوسطى، وهو الأمر الذى من شأنه أن يوقف التقدم التكنولوچى والاقتصادى ويؤدى إلى التقهقر. يصف لاندز هذا التوقف المفترض بلغة غنية: "الركود والتراجع"(٥٤) و"النسيان التكنولوچى والتقهقر" و"كاملة، مكتملة، هادئة ظاهريًا متناغمة بصورة تفوق الوصف هكذا استمرت الإمبراطورية الصينية..." (p.98) "لم يتوقف التطور فقط ولكن مأساة التوقف نفسه... (p.200). باختصار: توقفت الصين.

لم تتوقف الصين. فقد كان هذا هو الرأى التقليدى لمؤرخى الغرب. ولكن هناك كمًا كبيرًا من الأبحاث التى أجريت فى العقود الحديثة عن التكنولوچيا الصينية فى العصور

الوسطى تشير إلى التقدم المتواصل. أما اليوم فمعظم المؤرخين عن الصين قبلوا الأدلة القوية على هذا الأمر؛ ويتراجع مؤرخو المركزية الأوروبية الآن إلى موضع نكوص؛ فهم إما أن يركزوا على بعض مجالات التكنولوچيا التى تقدمت فيها الصين ببطء أو توقفت - كما يحدث فى كل مكان فى وقت ما - أو يتجاهلوا أو يقللوا من تلك المجالات التى لم يتوقف فيها التقدم، وقد يركزون على القرن الخامس عشر ويدعون أن هناك نوعًا من التغيير الجذرى حدث فى الصين، تراجعت ومن بعده فى مجال التكنولوچيا(٥٥). ما يثير الاهتمام هنا هو أن لاندز يستخدم تلك المجادلات التراجعية مع تأكيده العام على توقف التقدم. وحينما يسلم ببعض التقدم، نجده يقلل من أهميته. على سبيل المثال، الاعتراف باختراع الآسيويين الشرقيين للطباعة بالحرف المتحرك، فهو يقول (خطأ) إن "بعض المطابع الصينية استخدمت الحرف المتحرك... ولكن التقنية لم تنتشر مثلما حدث فى الغرب".

فى فصول سابقة قمت بمراجعة بعض هذه الأمور، لذا سأقتصر هنا على بعض التعليقات(٥٦). من الخطأ النظر إلى تاريخ التكنولوچيا الصينية والاقتصاد من خلال المواقف التى اتخذتها الحكومة الإمبراطورية فى أوقات مختلفة. معظم القطاعات، بما فيها الزراعة، كانت تتجاوب مع قوى السوق ومصادر القوى المحلية بما فيها أصحاب الأرض(٥٧). وقد أيدت الفرمانات الإمبراطورية التقدم فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى عرقلت التقدم فى تلك المجالات، ولكن تم تجاهل تلك الفرمانات وأحيانًا كانت حقوق الانتفاع تُشترى عن طريق الرشاوى. على سبيل المثال، الرأى التقليدى الذى ردده لاندز يرى أن الصينين تراجعوا فى مجال التجارة البحرية فى القرن الخامس عشر، وقد صدرت الفرمانات الإمبراطورية فى أوقات مختلفة إما لتمنع هذه التجارة أو تقيدها ولكن الحقيقة أنها لم تتوقف وربما لم تتباطأ فى معدلها(٥٨).

يتعلق الدليل الهام بالقرنين السادس عشر والسابع عشر وليس القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهو يخضع للمقارنة: التجارة البحرية الأوروبية فى آسيا تزايدت

بسرعة كبيرة بينما لم يكن الحال كذلك بالنسبة للصينيين. ولكن يمكن تفسير ذلك من خلال نموذج مختلف تماماً، وهو ذلك الذى يركز على آليات التوسع الأوروبى وليس على التوقف الصينى الوهمى. لقد قدمت نظريتى فى الجزء الأول وقمت بتلخيصها فى الفصل الأول من هذا الجزء: نتج التوسع الأوروبى أعالى البحار عن الثروات التى حصلوا عليها فى القرن السادس عشر فى أمريكا. ولكن بالرغم من لاندز فإن أوروبا مع ذلك لم تتمتع بأى ميزة، حقيقية أو كامنة، على آسيا فيما قبل ١٤٩٢.

قبل أن نترك الصين يجب أن نعلق على رأى لاندز الخاطئ بأن الأوروبيين كانوا أفضل من الصينيين فيما يتعلق بالعمل البحرى. ولهذا فقد وجب عليه أن يلتف على حقيقة كون الإنجازات البحرية العظيمة فى العصور الوسطى كانت سلسلة الأساطيل الضخمة التى أرسلتها الصين فى بداية القرن الخامس عشر، والتى أبحرت فى المحيط الهندى ووصلت للساحل الأفريقى، وقد كان ذلك قبل ستين عامًا من أول رحلة لكولمبوس، وهذا يمثل مشكلتين بالنسبة للاندز:

أولاً: كيف يمكن التقليل من أهمية هذا الإنجاز من أجل الحفاظ على فكرة تفوق أوروبا المطلق فى مستوى ومعدل التطور التكنولوچى؟

ثانيًا: لو وصلت الصين إلى ما وصلت إليه فى الرحلات البحرية الطويلة المدى فكيف لنا أن نفسر أن الأوروبيين، وليس الصينيين، هم من استطاعوا استخدام الرحلات البعيدة كخطوة للوصول للحداثة الاقتصادية والهيمنة العالمية؟ كلتا المشكلتين تعامل معهما بأسلوب مركزى أوروبى تقليدى.

فقد تناقص المشروع الصينى نفسه بصورة خفية: إذ جاءت الرحلات بعد "انغماس مفرط فى بناء السفن" تم خلاله "تجريد الغابات من أخشابها" وكان يتم إجبار أعداد كبيرة من العمال على العمل فى بناء السفن "التى كانت تبنى للرفاهية"، كان ثمن هذا المشروع يدفع عن طريق "استنزاف الشعب فى دفع الضرائب أو العمل مقابل الإعفاء منها" (p.514) وهكذا. كما يضيف (خطأ بدون دليل) أن الصينيين كانوا بحارة أسوأ من الأوروبيين. ثم يقارن بين ذلك وبين الرحلات الأكثر عملية وهدفًا وعقلانية،

والتى قام بها الأوروبيون. ولكن لاندز هنا يستخدم الأساليب البلاغية لإخفاء (أو تشويه) أكثر الإنجازات التكنولوچية أهمية فى العصور الوسطى.

أما فيما يتعلق بالتبعات بعيدة المدى لتاريخ العالم فإن لاندز يتراجع لمجموعة من المجادلات المعروفة التى تم تفنيدها فى البحث الأكاديمى الحديث الذى يطرحه جانبًا: "لقد رأينا أمثلة على هذا الخوف المرضى من أوروبا فى المناقشات الحديثة لعمر الرحلات والاكتشافات" (p.96). لم يمتلك الصينيون العقلانية للبناء على الأساس الذى أرساه الأدميرال شنج هى فى رحلاته: "افتقر الصينيون للمدى والتركيز، والأكثر من ذلك الشغف بالمعرفة". (p.96). كان مجتمعهم راكدًا ومتراجعًا، كان استبداديًا شرقيًا. ولكن الصين لم تكن راكدة أو متراجعة. وقد حققت الرحلات العظيمة أهدافها (بعد حوالى ١٤٤٠) ووجدت الحكومة أنه من المعقول أن تخصص مواردها للذود عن الحدود البرية فى الشمال الغربى أكثر من تأمين رحلات إضافية. يتساءل لاندز، لماذا لم تصل الرحلات الصينية لأمريكا؟ ويرد مستخدمًا كل المجادلات التى نوقشت عن الركود مثل افتقاد الشغف بالمعرفة وهكذا. ولكن الإجابة كما رأينا فى فصول سابقة مباشرة. الأمريكتان أقرب إلى أوروبا من الصين. وقد كان لدى أوروبا سبب قوى لتغامر فى الأطلنطى وهو الأمل فى الوصول إلى ثروة آسيا. لم يكن للصين مثل هذا الهدف: ما الميزة التى كانت ستعود على الصين لو أنها وجدت طريقًا بحريًا مباشرًا لأوروبا؟ استمرت السفن الصينية التجارية فى الإبحار من وإلى جنوب شرق آسيا ووجهات أجنبية أخرى: ولم يكن هناك انقطاع. مثلما كان الحال فى مجالات التكنولوچيا والمجتمع، كان الصينيون تقدميين وعقلانيين مثل الأوروبيين.

يحول لاندز اهتمامه بعد ذلك للشرق الأوسط. فهو يدعى أن العالم الإسلامى بما فيه المغول فى الهند لم يكن لديه الفرصة للنهوض مثل أوروبا. تاريخه هو "تاريخ ضل الطريق"[٥٩]. مناقشته للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى وأوائل الفترة الحديثة خطأ من أساسها، فهو يزيف بعض الجوانب فى المجتمع الإسلامى الأول. كما يدعى خطأ أن المجتمع الإسلامى، على مدار تاريخه، تميز بخصائص قديمة - مختارة -

للديانة الإسلامية وبعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة - المختارة - غير ديمقراطية وغير حديثة. (مثل تعريف التاريخ الأوروبى كتركيبة من المحاكم التفتيشية وألمانيا النازية). يقول لاندز عن الدين والمجتمع (بما فى ذلك المغول فى الهند): "يربط الإسلام بين الإيمان والقوة والسيادة.... لقد تجنبت أوروبا فكرة التحكم التى ثبت أنها لعنة على الإسلام" (p.394) "بعكس الإسلام... فرقت المسيحية منذ البداية بين الله والقيصر" (p.38) "الإسلام لا يفرق، مثلما تفعل المسيحية، بين الدينى والمدنى... فالدولة المثالية ثيوقراطية... فالحاكم الجيد يترك أمور العقل لأطباء الإيمان، ويمكن أن يكون هذا صعبًا على العلماء". (p.54) وينبغى أن نرد على ذلك: المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى حظيت بالكثير من حرية الفكر والعلم مثل العالم المسيحى، وقد تم قبول ذلك من قبل الباحثين فى إسلام العصور الوسطى(٦٠)؛ أما بالنسبة للإسلام الحديث فمن بين العديد من التأكيدات التى تنتقص من قدره والتى قدمها لاندز نجد هذا التعليق اللافت للنظر: "فالمرض أكثر شمولية من الصراع العربى - الإسرائيلى.... فهو يكذب... مع الثقافة". (p.410) ولا حاجة هنا للتعليق.

هناك القليل الذى قيل عن أفريقيا بخلاف بعض التأكيدات القليلة عن بدائية الثقافات وسوء المناخ. هنا بعض تعليقات لاندز المنزوعة من سياقها ولكنها توضح رأيه وموقفه: "تهدد شبه الصحراء الأفريقية كل من يعيش أو يذهب إلى هناك". "ربما يفضل الأفارقة الأدوية السرية التقليدية والرقيات السحرية على الدواء الأجنبى الذى لا رب له" (p.12) ازدهرت تجارة العبيد "فى أفريقيا قبل الحقبة الاستعمارية" (p.69) المزارعون الصغار كانوا "ينبشون الأرض" (p.500) "بشكل عام" تفعل النساء ما يُملى عليهن... مرض الإيدز؟ "ننسى الواقى الذكرى، لا يفضله الرجال" (p.501) ووصف عام لأفريقيا شبه الصحراوية فيما بعد الحقبة الاستعمارية "حكم سيئ، سيادة غير متوقعة، تكنولوجيا متخلفة، تعليم غير واف، نصيحة غير كاملة أو غير أمينة، فقر، جوع، مرض، زيادة سكانية" (P.499) لو أن هناك أدلة بحثية تدعم تلك الأحكام السلبية، فلربما استحقت أن تؤخذ بصورة أكثر جدية. إنها تعبر عن جهل.

تلخيص

يقول لاندز فى بداية "غنى وفقر الأمم" إنه يفضل الحقيقة على الأيديولوچيا، فهو يعتقد أن ما يقوله هو الحق، وأنا متأكد من أنه أمين فى اعتقاده؛ ولكن معظم المدافعين عن أيديولوچيا معينة يعتقدون أن ما يقولونه هو الصواب. يقدم لاندز جزءاً من الحقيقة عن تاريخ العالم وهو الجزء الذى يجعل منظر الأوروبيين جيداً وغيرهم سيئاً، وهو يقدم مجموعة من الخرافات القديمة التى تتحدث عن تفوق وأولوية أوروبا القديمة والمعاصرة على أنها حقائق. البحث الأكاديمى الحديث الذى يتساءل بشأن هذه الخرافات إما يتم شجبه لكونه هرطقة أو (بصورة أكبر) يتم تجاهله.

هذه أيديولوچيا وليست حقيقة. ولذا أقترح أن ننظر لهذا الكتاب باعتباره سرداً لخرافات الأصول الأوروبية، وليس كعمل بحثى تاريخى، وما هو بذلك.

الهـــوامـــش

(١) David Landes, The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor (1998). أرقام الصفحات بين الأقواس تشير إلى هذا العمل.

(٢) كما لاحظنا فى الفصل الأول، نظريتان أخريان أساسيتان كانتا شائعتين فى الماضى: الأولى مبنية على الدين، والثانية على العرق. انظر الجزء الأول لمناقشة أعمق.

(٣) انظر Peet, Modem Geographical Thought (1998).

(٤) انظر على سبيل المثال Huntington, Civilization and Climate (1924). الكثير من مجادلات لاندز البيئية مستعار من "المعجزة الأوروبية" لجونز ١٩٨١ كما بينا فى الفصل الخامس. تذكر أننا نستخدم "نظرية البيئة" و"الحتمية البيئية" كمرادفات.

(٥) انظر على سبيل المثال Collins and Roberts, Capacity for Work in the Tropics (1988). وفقًا للاندز فإن "المناخات الرطبة" تقلل التأثير المرطب لإفراز العرق" (P.6) هراء: إفراز العرق هو رد فعل للحرارة الزائدة.

(٦) "ليس صدفة أن عمل العبيد ارتبط تاريخيًا بالمناخات الاستوائية وشبه الاستوائية". نجد لدى لاندز هامشًا يتفق فيه مع آدم سميث: "دستور أولئك الذين ولدوا فى المناخ المعتدل فى أوروبا لا يمكن، كما هو مفترض، أن يساعد على العمل فى حفر الأرض تحت أشعة الشمس الحارقة" (P.7).

(٧) إمكانيات الإنتاج فى الأقاليم الرطبة الاستوائية وشبه الاستوائية هى العليا. بعض المحاصيل الاستوائية (قصب السكر، والأرز على سبيل المثال) يمكن أن تعطى محاصيل عالية أكثر من محاصيل خطوط العرض المتوسطة، مع تساوى كل الظروف الأخرى (التسميد، رطوبة التربة، وهكذا).

(٨) تقدر منظمة الصحة العالمية أن الأمراض الاستوائية بما فيها الملاريا تقتل حوالى ربع البشر فى السنة مثل الأمراض التنفسية، التى، فى معظمها، ليست مهمة فى المناطق الاستوائية الرطبة مثلما هىْ فى الأقاليم الباردة. انظر Porter and Sheppard, A World of Difference: Society, Nature, Development (1998), pp. 211-259; and see Chapter 8.

(٩) انظر Giblin, "Trypanosomiasis Control in African History: An Evaded Issue?" (1990); Turshen, "Population Growth and the Deterioration of Health: Mainland Tanzania, 1920-1960" (1987); and Volume 1. الماشية والبشر، على السواء، لديهم مناعة ضد مرض النوام فى أفريقيا. انظر Blench (1993).

(١٠) حول هذا الأمر، انظر الجزء الأول. تأكيد خاطئ آخر من قبل لاندز: هناك "معدلات عالية جداً من البخر" فى المناطق الاستوائية (P.14) معدلات البخر فى المناطق الاستوائية الرطبة مساوية تقريبًا لها فى المناطق الرطبة فى خطوط العرض المتوسطة خلال فصل الصيف. على مدار العام، هى الضعف فى تلك المناطق ولكنها ليست "عالية جداً". مغالطة أخرى: "لا يمكن للمدن أن تزدهر فى أفريقيا الاستوائية" بسبب نقص الغذاء الناتج، عن قصور الزراعة الاستوائية المفترض (P.13) لا معنى لهذا الكلام: انظر إلى المدن الكبيرة فى أفريقيا. ومغالطة أخرى، فى الواقع اثنتان فى واحدة: "الأمطار الموسمية... تختلف كثيراً من فصل لآخر ومن سنة لأخرى. الفيضانات والجفاف من طبائع الأمور" (P.28). تنوع معدل سقوط الأمطار فى الأقاليم الموسمية وعلى وجه الخصوص الهند وباكستان، يعد خطيراً فى مناطق شبه قاحلة مثلما فى غيرها. الفيضانات والجفاف أيضاً ليست أسوأ هنا منها فى أقاليم أخرى عديدة بالرغم من أن نتائجها أسوأ، وهذا بسبب الفقر.

(١١) يقدم لاندز تأكيدات أخرى خاطئة عن المناخات المجدبة ويستخدمها كأساس لنظريته عن الطبيعة الاستبدادية غير التقدمية للشرق الأوسط، نعود لهذا الأمر لاحقًا.

(١٢) لم تصبح الزراعة منتجة فى كثير من سهول الشمال الأوروبى إلى أن وصلت البطاطس المحبة للرطوبة من جنوب أميركا مكان استئناسها.

(١٣) يقول لاندز (وهذا خطأ) إن الخيول الأوروبية كانت أفضل من غيرها، وبالتالى كانت "خيول الحرب" أفضل. لم يكن الأوروبيون "متميزين فى العمل الشاق والنقل" كان سماد الخيول يعنى تربة ذات خصوبة عالية، "وبالتالى حافظ الأوروبيون على حمية غذائية غنية بمنتجات الألبان واللحوم والبروتينات الحيوانية" (كل ذلك فى صفحة ٢٠)، وهذا هراء أوروبى بيئى قديم. انظر الفصل الثالث.

(١٤) عنوان الفصل الثانى فى "غنى وفقر الأمم" هو "إجابات عن الجغرافيا: أوروبا والصين".

(١٥) بالرغم من أن "غنى وفقر الأمم" مكتوب لجمهور عريض من القراء، فإن لاندز يتحمل مسئولية علمية ولكنه يحاول التملص منها. معظم القضايا فى هذا الكتاب مقدمة على أنها حقائق صرفة بالرغم من أن العديد منها مثار جدل.

(١٦) يشار إلى الاستبداد الشرقى فى صفحات ٢٨-٢٧ و٣٤ و٣٩ و١١١ و٥٨-١٥٦ و٣١٣ و٤١٠. انظر الفصل الثانى، الهامش ٧ فى هذا الجزء.

(١٧) انظر الفصل الخامس من الجزء الأول PP.80-92 وكذلك Blaut, "Where Was Capitalism Born?" (1976).

(١٨) "يرجع مفهوم الحقوق إلى الأزمنة الإنجيلية وقد انتقل وتغير من خلال التعاليم المسيحية" (p.34).

(١٩) "عداء اليهودى للأوتوقراطية... جعل بنى إسرائيل بعيدين عن أى مملكة فى الجوار" – وهى بالطبع "الممالك الاستبدادية" الآسيوية.

(٢٠) "من سخرية القدر... جاء الحظ الكبير لأوروبا مع سقوط روما وما تلاه من ضعف وانقسام" (P.37) حقوق [الملكية] "كان يجب إعادة اكتشافها وتأكيدها بعد سقوط روما" (P.33). مايكل مان له نفس الرأى (انظر الفصل السادس).

(٢١) يقول لاندز: "فى الصين، حتى وإن لم تضطلع الدولة بدورها فقد أشرفت، ونظمت وقمعت. لا ينبغى للسلطة أن تعتمد على النوايا الحسنة والتصرفات السليمة والفضائل الشخصية" (P.35)، وهذا هراء. انظر Hucker, "Ming government" (1998). وكذلك الفصل الثامن والجزء الأول PP.107-108. للمزيد عن الجمهوريات الأوليجاركية فى الهند القديمة التى يمكن مقارنتها فى بعض الأمور بأثينا القديمة انظر Mukerji, The Republican Trend in Ancient India (1969).

(٢٢) انظر الجزء الأول PP.131-132.

(٢٣) لاندز: "التشرذم مهد الطريق للمنافسة" P.36، يدعى بعض مؤرخى المركزية الأوروبية أن أخوة الأرستقراطيين الإقطاعيين كانت ديمقراطية فى حد ذاتها، وتطورت لاحقًا فى شكل الدول الأوروبية الديمقراطية. انظر تعليقى على هذه النظرية فى الفصل السادس.

(٢٤) انظر Hucker, "Ming government," p. 105; Heijdra, "The Socioeconomic Development of Rural China During the Ming" (1998), p. 571; Goody, The East in the West (1996), pp. 230-231.

(٢٥) Goody, The East in the West; Frank, ReORIENT (1998); Rowe, Hankow: Commerce and Society in a Chinese City, 1769-1889 (1984); Champakalakshmi, Trade, Ideology and Urbanization: South India 300 B.C. to AD. 1300 (1996).

(٢٦) الفصل الثالث فى كتاب لاندز بعنوان "اختراع الاختراع".

(٢٧) انظر على سبيل المثال Needham, Science and Civilization in China (1954-); Kuppuram and Kumudamani, History of Science and Technology in India (1990); al Hassan and Hill, Islamic Science Technology (1986); Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic Warld (1983).

(٢٨) صفحة ٣٨. انظر أيضًا PP.24,35,27,98، للهند PP.14,157,395 انظر Ross (1998) on Malthusianism.

(٢٩) صفحة ٢٢. تعليقات مالثوسية أخرى: PP.21,23,24,187,345,499.

(٣٠) انظر Goody, The East in the West, pp. 138-161, ومراجع فى هوامش ١١ و١٢ فى الفصل الخامس من هذا الجزء.

(٣١) صفحة ٤٠. توصف هذه الثورة فى الفصل بعنوان "اختراع الاختراع" (PP.45-59).

(٣٢) تقدم هذه النظرية نوعًا من الانطلاق من ناحية أوروبا تقريبًا منذ ألف سنة، وهى مقبولة من قبل مؤرخى المركزية الأوروبية اليوم بمن فيهم لين وايت وإيريك جونز وجون هول (انظر الفصول الثالث والخامس والسابع من هذا الجزء) وجميعهم مقتبسون بكثرة بواسطة لاندز ومايكل مان (الفصل ٦) الذى لم يقتبس ولكنه يطور النظرية بتفصيل أكثر.

(٣٣) صفحة ٥٤. "خطأ التاريخ" هو عنوان الفصل الذى يندد بالمجتمع الإسلامى- لا أستطيع أن أهذب هذه العبارة - على مدار التاريخ.

(٣٤) كما رأينا فى فصول سابقة، الخطأ كان قد ارتكبه إيريك چونز وچون هول وروبرت برينر، وكلهم، ما عدا الأخير، مقتبسون من قبل لاندز كمصادر ثقة، ولذا فالأخطاء تنتج نفسها.

(٣٥) P.220 كان الفلاحون فى الصين "قطعان بشرية" (P.37)، وكان هناك "غياب للحرية" (P.56) وهذا هراء بالطبع.

(٣٦) انظر على سبيل المثال Grantham, "Contra Ricardo: On the Macroeconomics of PreIndustrial Economies" (1999); Titow, English Rural Society, 1200-1350 (1969); Clark and Van Der Weif, "Work in Progress: The Industrious Revolution" (1998); Smith, An Historical Geography of Western Europe (1967).

(٣٧) يؤكد على تكنولوچيتين أخريين: البارود وطاحونة المياه. نناقشهما فى موضع آخر من هذا الفصل.

(٣٨) غرور غربى آخر: "الأعمال الكتابية المعتمدة على الرموز الشكلية فى مقابل معرفة القراءة والكتابة" (P.51).

(٣٩) أدين بالفضل لناثان سيڤين Nathan Sivin لتوضيحه لى المعنى الهام للاختراع الصينى: آلية ميزان الساعة: انظر Needham, Science and Civilization in China: Vol. 4, Part 2: Physics and Physical Technology: Mechanical Engineering (1965), pp. 435-545, المناقشة الشاملة لتطور الساعات فى أوروبا والشرق الأوسط والصين. انظر Sivin, "Why the Scientific Revolution Did Not Take Place in China-Or Didn't It?" (1984).

(٤٠) أمور تجانبها الدقة: "لم يتخط الصينيون مرحلة الساعات المائية" (P.50) انظر Needham, Science and Civilization, Vol. 4, Part 2, عن الساعات الصينية الأكثر تطورًا فى جميع الأحوال الجوية والساعات الرملية: "بنى الصينيون بعض الساعات المائية الفلكية فى حقب تانج وسنج Tang & Sung... هذه الماكينات الضخمة كانت مشاريع إمبراطورية" (P.50)، وهذا يضلل القارئ لأنه يعود إلى وقت قديم جدًا، بعد ذلك أثناء فترة مينج Ming انتشرت الساعات الرملية. انظر Needham, loc. cit.

(٤١) Needham, Science and Civilization in China. Vol. 4, Part 2, pp. 532-546. انظر على وجه الخصوص شكل الانتشار صفحة ٥٣٢.

(٤٢) Needham, Science and Civilization in China. Vol. 4, Part 2, pp. 544-545. انظر أيضًا al Hassan and Hill, Islamic Technology; Kuppuram and Kumudamani, History of Science and Technology in India (1990).

(٤٣) Needham, Science and Civilization in China. Vol. 4, Part 2, p. 120.

(٤٤) ينبغى ألا نضع بجانب هذه النظريات تعبير چانيت أبو لغد: كان نصف الكرة الأرضية نظامًا من المجتمعات المترابطة التى كان فيها مستوى التكنولوچيا الأوروبية أقل منه فى آسيا حتى حوالى ١٣٥٠، ومن ثم فهى تعتقد أن الطاعون الأسود ضرب آسيا بقوة أكثر مما ضرب أوروبا، وأدى ذلك إلى بداية النهضة النسبية لأوروبا. لاحظ أن هذه النظرية ليست مركزية أوروبية تمامًا بالرغم من أنها ترجع بالأصول إلى زمن أقدم مما أقول (١٤٩٢).

(٤٥) صفحة ٤٢٩ وانظر أيضاً صفحة ٤٢٣.

(٤٦) انظر pp. 4-5, 63, 103-104, 107, 119-121, 163, 165, 216-218, 225, 321, 326328, 346-349, 409, 415-418, 423-425, 432, 438, 525, 551, 553, 557, 565.

(٤٧) كارل سوير Carl Sauer الجغرافي الأمريكي الأهم في زمنه، يعرفه لاندز باعتباره "عالم آثار أنثروبولوجي زراعي" (P.25) من الواضح أن لاندز لا يعرف شيئًا عن علم الجغرافيا. قد يكون هذا أمرًا تافهًا لو لم يكن هناك تأكيد من لاندز في أول فصلين في كتابه على ما يعتبره جغرافيا علمية (ولكنها ليست كذلك) وتعليقه في بداية الفصل الأول واستنكاره المكانة الضئيلة للجغرافيا في الحقل الأكاديمي الأمريكي. لسنا في حاجة إلى أن نحسن من مكانة الجغرافيا ولكن ليس الجغرافيا، البيئية التي يعرضها لاندز. أنا أكتب كجغرافي.

(٤٨) شعب الأزتيك بالطبع فرصة ذهبية للهدف، لاندز يصف أحد نبلائهم بأنه "أمير الظلام المكسيكي" (PP.104-105) يوصف الأوروبيون بمثل هذا الوصف في أي مكان آخر.

(٤٩) "دول العالم الثالث والمتعاطفون معهم يريدون أن يرفعوا قيمة فاتورة الاتهامات ضد الدول الإمبريالية الغنية" (P.122) يشخص إيريك وليامز Eric Williams، خطأ، باعتباره ماركسيًا: "يقلل كل شيء إلى مستوى الدوافع والاهتمامات الاقتصادية" (P.119).

(٥٠) صفحة ١١٧. عن سفن العبيد "كان من الصعب التعامل بلطف لو كانت سفن العبيد يملؤها الخوف والكراهية" (P.118) تعاطف مع العبيد؟

(٥١) انظر Richards, "Early Modem India in World History" (1997); Habib, "Merchant Communities in Precolonial India" (1990); Kuppuram and Kumudamanik, HistoD' of Science and Technology in India; Perlin, The Invisible City (1993); Subramanian, India's International Economy, 1500-1800 (1999); Frank, ReORIENT; Goody, The East in the West.

(٥٢) يعلق لاندز أن الأرجنتين لا تملك بيئة استوائية ولكن كل الأسباب الاجتماعية التي نوقشت تفسر تأخر الأرجنتين.

(٥٣) أحد تعليقات لاندز على نظريات التبعية: "بتشجيع ميل مرضي لإيجاد خطأ مع الغير فقط... [مبادئ التبعية] تعزز من العجز الاقتصادي" ثم بخط مائل: "حتى لو كانوا على حق، يكون من الأفضل أن نضعهم جانبًا" (P.328) نستشعر هنا بعض الأيديولوجية.

(٥٤) عنوان أحد الفصول: الإمبراطورية العلوية: الركود والتراجع .PP.335-349

(٥٥) يجادل غالبًا أن القرن الخامس عشر في أوروبا كان أيضًا زمن الركود التكنولوجي أو التقدم البطيء جدًا. انظر Lopez and Miskimin, "The Economic Depression of the Renaissance" (1961-1962); Thorndyke, "Renaissance or Prenaissance?" (1943); and Chapter 2 of Volume1

(٥٦) انظر الجزء الأول: الفصلين الثاني والرابع.

(٥٧) Pomeranz, The Making of a Hinterland: State, Society, and Economy in Inland North China 1853-1937 (1993); Wong, China Transformed (1997); Marks, Tigers, Rice, Silk, and Silt (1998); Goody, The East in the West; S. Mann, Local Merchants and the Chinese Bureaucracy, 1750-1950 (1987).

(٥٨) Heijdra, "The Socioeconomic Development of Rural China During the Ming" (1998); Wang, "Merchants Without Empire: The Hokkien Sojourning Communities" (1991); Volume 1, p. 181.

(٥٩) "خطأ التاريخ" هو عنوان الفصل فى "غنى وفقر الأمم" الذى يتناول العالم الإسلامى (PP.392-421).

(٦٠) انظر على سبيل المثال Hodgson, The Venture of Islam (1974); al Hassan and Hill, Islamic Technology (1986); Rodinson, Islam and Capitalism (1973); Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World (1983).

الفصل العاشر

ثلاثون سببًا لتفوق الأوروبيين على غيرهم

قائمة

وفق تقديرى هناك ثلاثون سببًا مختلفًا قدمها المؤرخون الثمانية لتفسير تفوق وأولوية أوروبا قديمًا وفى العصور الوسطى وأوائل الفترة الحديثة. أشك فى أن هذه الافتراضات الثلاثين تتضمن معظم مجادلات المركزية الأوروبية التى تستخدم بهذه الطريقة من قبل المؤرخين اليوم. تذكر أننا نصف المجادلة فى هذا الكتاب بأنها "مركزية أوروبية" عندما تدعى خطأ تفوق أوروبا والأوروبيين على شعوب وأماكن أخرى.

فى هذا الفصل سأقدم قائمة بالأسباب الثلاثين لأوضح المدى التاريخى الواسع لمجادلات المركزية الأوروبية، وسأوضح كيف تُنسج تلك المجادلات فى إطار نموذج عام (تاركة القليل من الأطراف غير المربوطة بإحكام) مع بعض الصفات التى قدمها سبعة من المؤرخين الذين ناقشتهم هنا.

ستقدم هذا القائمة فى شكل سلسلة مرقمة من الافتراضات وستذكر اسم المؤرخ الذى قدمها[١]. ولن أقدم أى تعليقات.

١- أناس الجنس الأبيض متفوقون وراثيًا على غيرهم من الأجناس الأخرى. (جادل ڤيبر بهذا الأسلوب، ولكن أيًا من المؤرخين السبعة الآخرين لا يعبر عن أى آراء عنصرية).

٢- مناخ أوروبا أو شمال غرب أوروبا موات للزراعة. (چونز ومان وهول ولاندز) أو: تمتلك أوروبا مع الصين مناخًا مواتيًا للزراعة أكثر من المناخات الأخرى في كل الأقاليم الأخرى وبخاصة المناطق الاستوائية الرطبة (دايموند).

٣- مناخ أوروبا أفضل للراحة الإنسانية والإنتاج أكثر من غيره في الأقاليم الأخرى. (چونز، ولاندز).

٤- تربة أوروبا فريدة في خصوبتها. (چونز، ومان، وهول، ولاندز).

٥- شكل الأرض في أوروبا فريد من حيث سهولة الاتصال وانتشار الأفكار. (چونز ودايموند ولاندز).

٦- شكل الأرض في أوروبا يقسم القارة إلى مناطق مركزية إيكولوچية منفصلة، الأمر الذي يفسر حقيقة وجود العديد من الدول متوسطة الحجم في أوروبا بدلاً من إمبراطورية واحدة. (چونز وهول ودايموند ولاندز).

٧- الخط الساحلي المتعرج لأوروبا يفسر جزئيًا الاختلاف اللغوي، والعرقي والسياسي لأوروبا (چونز، ومان، ودايموند).

٨- تاريخيًا ساهمت الحياة النباتية في غابات أوروبا في تطور أشخاص ذوي نزعة فردية وأسر صغيرة مما مهد الطريق للملكية الخاصة والرأسمالية (ڤيبر ومان وهول ولاندز)، وقد أدى ذلك إلى مساعدة أوروبا على تجنب كوارث مالثوس من الكثافة السكانية (مان وهول ولاندز).

٩- بيئة أوروبا أقل عرضة للكوارث الطبيعية من غيرها من الأقاليم مما أدى إلى تنشيط التطور. (چونز وهول).

١٠- تاريخيًا، كانت أوروبا أقل عرضة للأمراض من أماكن أخرى. (چونز ودايموند ولاندز).

١١- تاريخيًا، كانت تغذية الأوروبيين أفضل من غيرهم (وايت وچونز ولاندز).

١٢- كان لدى الأوروبيين قدرة فريدة على الاختراع. (ڤيبر ووايت وبرينر وچونز ومان وهول ولاندز).

١٣- كان لدى الأوروبيين قدرة عقلانية فريدة على استخدام وسائل تنظيم النسل مما أسهم فى تجنبهم الكثافة السكانية وكوارث مالثوس (چونز وهول ولاندز).

١٤- كان لدى الأوروبيين قدرة فريدة على الابتكار والتقدم (ڤيبر ووايت وبرينر وچونز ومان وهول ودايموند ولاندز).

١٥- قدرة الأوروبيين على الفكر العلمى الخلاق فريدة (ڤيبر ووايت ومان وهول ولاندز).

١٦- كان للأوروبيين قيم ديمقراطية وأخلاقية فريدة (ڤيبر ووايت ومان وهول ولاندز).

١٧- كان تطور الطبقات و/ أو صراع الطبقات مكتمل النمو فى أوروبا (ڤيبر وبرينر ومان وهول ولاندز).

١٨- أدت الديانة المسيحية، كعقيدة، إلى التطور الفريد لأوروبا (ڤيبر ووايت ومان وهول).

١٩- أدت الكنيسة المسيحية، كمؤسسة، إلى التطور الفريد لأوروبا (ڤيبر ووايت ومان وهول ولاندز).

٢٠- لاءم التطور الأسرة الأوروبية (انظر أيضًا رقم ٨) (چونز ومان وهول ولاندز).

٢١- بطريقة فريدة، طور الأوروبيون منذ القدم أو العصور الوسطى مفهوم ومؤسسة الملكية الفردية الخاصة (ڤيبر ووايت وبرينر وچونز ومان وهول ودايموند ولاندز).

٢٢- بطريقة فريدة، طور الأوروبيون منذ القدم أو العصور الوسطى مؤسسة السوق (چونز وهول ودايموند ولاندز).

٢٣- كانت المدنية فى أوروبا تناسب التطـور أكثر منها فى أى مكـان آخـر، كما كانت المدن الأوروبية أكثر تقـدمية وحرية من غيرها. (ڤيـبر وچـونز وهول ودايمـوند ولانـدز).

٢٤- تطورت الدولة فى أوروبا باتجاه السياسة الحديثة أسرع منها فى أى مكان أخر (انظر أيضاً رقم ٢٥ و ٢٦) (ڤيبر وچونز ومان وهول ودايموند ولاندز).

٢٥- عرقلت الإمبراطورية، كشكل سياسى، التطور فى أقاليم غير أوروبية (ڤيبر وچونز ومان وهول ودايموند ولاندز).

٢٦- عرقل الاستبداد الشرقى التطور الاجتماعى والتكنولوچى فى الأقاليم غير الأوروبية. (انظر أيضاً رقم ٢٥) (ڤيبر وچونز ومان وهول ودايموند ولاندز).

٢٧- لأسباب عدة استطاعت أوروبا بتفرد تجنب الكوارث المالثوسية (انظر أيضاً رقم ٨ و١٣) (بريتر وچونز ومان وهول ولاندز).

٢٨- ممارسة الرى والاعتماد عليه أبطأت، أو بالأحرى أوقفت، التطور فى المجتمعات الهيدروليكية أو التى تعتمد على الرى. (انظر أيضاً رقم ٢٦) (ڤيبر وچونز ومان وهول ولاندز).

٢٩- مهد تطور الإقطاع فى أوروبا لنهضة الديمقراطية والملكية الخاصة (انظر أيضاً رقم ٢١) (ڤيبر وچونز ومان ولاندز).

٣٠- تفرُد الأوروبيين بحس المغامرة لديهم والاستكشاف والتوسع عبر المحيطات. (چونز ومان وهول).

يمكن للقارئ أن يلاحظ أن الإيمان الدينى، الذى ذكرته فى الفصل الأول، كان أحد الأقسام الأربعة فى التفسير التاريخى للمركزية الأوروبية منذ القدم، وهو لا يظهر فى هذه القائمة. كذلك يظهر العرق، فقط كرأى لڤيبر منذ قرن مضى. لا يعبر أى من

المؤرخين المعاصرين السبعة عن آراء كهذه(٢). كذلك يجب على القارئ أيضًا أن يلاحظ أنه يجب إضافة مجادلات أخرى إذا ما كنا نناقش التاريخ الحديث: على سبيل المثال، تفسيرات المركزية الأوروبية للثورة الصناعية(٣). كذلك بالطبع نحتاج إلى قائمة مراجعة أكبر لتقديم النماذج الكئيبة من المجادلات السلبية عن أماكن معينة من العالم غير الأوروبي، وهي المجادلات التي نوقشت بإسهام في فصول سابقة. (على سبيل المثال، فضّل الصينيون "التزاوج على السلع"، وفقًا لچونز، "لم تعرف الهند أي معنى للأخوة"، وفقًا لهول، النساء الأفارقة "مغلوبات على أمرهن" وفقًا للاندز). أخيرًا يجب أن يلاحظ القارئ أن تقسيمي لتاريخ المركزية الأوروبية ككل إلى ثلاثين قسمًا، هو على نحو ما تقسيم جزافي. الكعكة كبيرة يمكن أن تقطع بطرق مختلفة.

نستطيع بالطبع محاولة حساب عدد المجادلات المستخدمة من قبل كل مؤرخ وعدد المؤرخين الذين يستخدمون كل مجادلة ولكن هذا الجهد له قيمة محدودة، وهذا صحيح لأن الكعكة قد تم تقسيمها بالفعل بطريقة جزافية، كذلك بسبب تأكيد المؤرخين على مجادلات مختلفة، بالإضافة إلى أن أيًا منهم قد يتجاهل مجادلة معينة لا يتيح لنا أن نعرف أنه (كل المؤرخين الثمانية ذكور) لا يقبل هذه المجادلة على أنها صحيحة، كذلك بسبب اختلاف الباحثين حول أهمية المجادلات بالرغم من استثناء واحد (برينر الماركسي) فإن المؤرخين المحدثين يشتركون في نموذج تفسيري عام وهو ما نناقشه في الفصل الحادي عشر. مع تجاهل هذه الاختلافات، فإن لدينا عددًا مثيرًا للاهتمام.

خمسة من الباحثين هم چونز ومان وهول ودايموند ولاندز يبدو أنهم يريدون سرد كل الأسباب الهامة وراء تفوق أوروبا تاريخيًا. تأكيد دايموند الساحق على المجادلات البيئية (ما يطلق عليه الأسباب "الأساسية" لتفوق أوروبا) يخفي أو يحجب تلك الحقيقة، ولكنه يقدم خمسًا من المجادلات الاجتماعية الثقافية (باعتبارها الأسباب "المباشرة"). يبدو من الأفضل أن ننحي دايموند جانبًا ونفكر في الأمور المشتركة بين چونز ومان وهول ولاندز.

اثنتا عشرة مجادلة من الثلاثين تستخدم من قِبل المؤرخين الأربعة. ومن الواضح أن هناك درجة من الاتفاق هنا وسوف نناقش معنى هذا الاتفاق الجزئى فى الفصل القادم. نجد لاندز يبرز عن الباقين: فهو يستخدم خمسًا وعشرين من المجادلات الثلاثين. ومن الواضح أنه يريد أن يستخدم كل مكونات طبخة التفوق الأوروبى المتاحة[٤].

لن نستفيد الكثير إذا قمنا بحساب عدد المؤرخين الذين يستخدمون كل مجادلة من المجادلات الثلاثين. الأهمية الصغيرة نسبيًا للمجادلات البيئية (التربة والمناخ وغيره) ربما تعكس حقيقة أن معظم الباحثين علماء اجتماع ولكن النموذج يوحى بتفضيلهم كلهم للمجادلات البيئية إلى درجة ما: المجادلة المفضلة هى تفوق البيئة الأوروبية من ناحية الزراعة. لاندز ودايموند وچونز على وجه الخصوص ميالون لاستخدام الحتمية البيئية. كذلك نجد أن المجادلات المالثوسية تحظى بقبول لديهم. ولكن المجادلات الهامة بصورة طاغية هى تلك الڤيبرية، التى تدعى تفوق العقل الأوروبى: عقلانيته وقدرته على الاختراع والابتكار وحب المغامرة،... إلخ

ما زال ماكس ڤيبر هو الأب الروحى لتأريخ المركزية الأوروبية.

الهوامش

(١) عند ذكر مؤرخ بجانب مجادلة معينة فإن ذلك يعود في معظم الحالات إلى أمور نوقشت في فصول سابقة. وفي حالات قليلة، يشير ذكر الاسم إلى أن المؤرخ أكد المجادلة في كتابات أخرى (وهذا ينطبق بالأخص على ڤيبر) فبالنسبة لجونز، نجده استخدم المجادلات المؤكدة في المعجزة الأوروبية ولم يتراجع عنها في كتابه "النمو من جديد". بالنسبة لمعظم الفرضيات، لا أشير إلى الفترة التاريخية التي يشير إليها مؤرخ بعينه، بعضهم يؤكد الفرضية بالنسبة لزمن قديم وبعده، والبعض يؤكدها بالنسبة للعصور الوسطى وأوائل الحداثة والبعض يؤكدها على مدار التاريخ.

(٢) تبدو لي بعض المجادلات التي قدمها لين وايت في كتابه Machina Ex Deo: Essays in the Dynamism of Western Culture (1982) وكأنها تقول إن آراءه حول نهضة الغرب كانت مرتكزة جزئيًا أو مؤكدة جزئيًا عن طريق إيمانه الديني (انظر الفصول الثالث والرابع والخامس في هذا الكتاب). K.F. werner. ڤيرنر عالم ألماني متخصص في العصور الوسطى نوقشت آراؤه في الجزء الأول PP.147-148 يبدو أيضًا أنه يخبرنا بأن آراءه التاريخية متأثرة بإيمانه: انظر مقاله (١٩٨٨) "Political and Social Structures of the West, 300-1300"، يبرر للمؤرخ عندما يقر بالرأي الذي يبني عليه عمله أو عملها. قد يكون مثيرًا أن نعرف ما إذا كان الرأي القديم أن الله ساعد الأوروبيين في التقدم في مضمار الحضارة ونشرها في الأرض، رأيًا يقبله أي من المؤرخين المعاصرين.

(٣) أخطط لتفسير غير مركزي أوروبي للثورة الصناعية في الجزء الثالث من نموذج المستعمر للعالم.

(٤) "يؤكد لاندز في كتابه الجديد التفسيرات المركزية الأوروبية المهيمنة على التاريخ الحديث التي سادت بين المؤرخين الأوروبيين ومؤرخي أمريكا الشمالية لمدة قرنين على الأقل" Buck, "Was It Pluck or Luck That Made the West Grow Rich?", 1999, p. 417). أيضًا انظر Goldstone (2000).

الفصل الحادى عشر

النمـــوذج

تم اختيار مؤرخى المركزية الأوروبية للتحليل فى هذا الكتاب بدقة وذلك لأنهم ينتمون لمدرسة المركزية الأوروبية، كما أنهم لا يعكسون الآراء التى يعتنقها المؤرخون بوجه عام. ولكن يبدو أن معظم المؤرخين الغربيين يشتركون فى بعض الآراء المركزية الأوروبية التى خضعت للمناقشة هنا. ولتوضيح الأمر بصورة أخرى: يبدو أن هناك نموذجًا لتاريخ العالم يحظى بقبول واسع ولا يخلو من أخطاء المركزية الأوروبية.

يجادل بعض المؤرخين أن أوروبا (أو الغرب بعامة) كانت أكثر تطورًا وتقدمًا من كل المجتمعات الأخرى فى ١٥٠٠، مع ذلك فإن الكثير من المؤرخين يقبلون الدليل الجديد (وبخاصة عن الصين) وهو أن المجتمعات الأخرى كانت على قدم المساواة مع أوروبا إن لم تكن فى مستوى أعلى منها فى ١٥٠٠ فى مسائل تتعلق بالتطور الاقتصادى والتكنولوچى. ولكن معظم هؤلاء المؤرخين يجادلون بأسلوب أرى أنه مركزى أوروبى، وهو أن أوروبا فى ١٥٠٠ كانت لديها قدرة دفينة على التطور: عادة هى العقلانية الڤيبرية فى أمور مثل القدرة على الاختراع والتقدمية وحب المغامرة وما شابه.

لذا يبدو أن معظم المؤرخين يقبلون بالفرضية التالية: مع حلول ١٥٠٠ يمكن أن نقول إن أوروبا كانت قد تبوأت مكانتها بسبب تفردها، أى نهضتها، وهذا بمقاييس نسبية ومطلقة وقد بدأ هذا قبل اكتشاف أمريكا. وترجع التفسيرات إلى عمليات كان

يعتقد فى اعتمالها فى أزمنة قديمة أو العصور الوسطى أو كليهما أو أثناء فترة أطول (مثلما يجادل ڤيبر ودايموند وچونز ومان ولاندز). بالنسبة لكلتا المجموعتين من الباحثين هؤلاء الذين يعتقدون أن أوروبا كانت لديها إمكانيات فريدة تدفع بها للتقدم فى ١٥٠٠ حيث تتقدم لاحقًا - لتنهض - فإن المشكلة الأساسية هى شرح لماذا كانت أوروبا أكثر تقدمًا وأكثر قدرة على التطور المستقبلى من كل المجتمعات الأخرى فى بداية الحقبة الحديثة. ولهذا السؤال هناك بالطبع عدة آراء يمتد نطاقها من باحثى المركزية الأوروبية الماركسيين مثل روبرت برينر إلى المحافظين منهم مثل چونز ولاندز، وربما يمكن القول إن جميع مؤرخى المركزية الأوروبية يتفقون على النتيجة ولكنهم يختلفون (فى الغالب مع كثير من العنف) حول أسبابها.

ستة من المؤرخين الثمانية الذين تمت مناقشتهم فى هذا الكتاب يقبلون ببعض مبادئ الحتمية البيئية باعتبارها سببًا ثانويًا أو سببًا هامًا أو أهم سبب (دايموند) وراء تفوق وتميز أوروبا. حقًا، معظم الأعمال الحديثة عن تاريخ العالم التى اطلعت عليها بما فيها المقررات الدراسية يبدو أنه يتم تضمينها على الأقل جزء من نظرية البيئة فى تفسيراتها للنهضة النسبية والمطلقة لأوروبا. يبدو أن هناك قبولاً واسعًا للنظرية القديمة (التى عبر عنها ڤيبر، كما رأينا، ولكنها أقدم من حيث مصدرها وأصلها)، وهى أن مناخ أوروبا أعطاها مزايا خاصة على الأقاليم الاستوائية والقاحلة (بما فيها الهند). من المفترض أن الأقاليم القاحلة تتطلب زراعة معتمدة على الرى، وبالنسبة لمؤرخين كثيرين كان للرى تبعات سيئة عديدة ومن أهمها الاستبداد. شعوب الأقاليم الاستوائية الرطبة (لا تستبعد الهند دائمًا) يتم طرحها جانبًا على أنها لم يكن لها دور تاريخى: وهذا واضح لدى بعض المؤرخين بما فيهم چونز ودايموند ولاندز بالطبع، وبصورة ضمنية لدى غيرهم. أما الوجه الآخر لهذا الرأى البيئى فهو مجموعة من الافتراضات عن بيئة أوروبا المفترض تميزها: مياه أمطار غزيرة وتربة جيدة وتنوع طوبوغرافى فى "مراكز" تشجع التعددية العرقية والاقتصادية والسياسية وتمنح أوروبا مناعة ضد مرض الإمبراطورية. عدد صغير على الأقل من تلك المجادلات (تسع منها ذكرناها فى القائمة)

تستخدم على حد علمى بواسطة معظم المؤرخين الغربيين الآخرين كجزء من تفسيرهم لنهضة أوروبا.

السبب الثانى وراء تفوق أوروبا المزعوم هو الثقافة، ولكن بالنسبة لمؤرخين عديدين من بينهم الثمانية هنا فى هذا الكتاب يتم اختصار هذا العامل فى العقلانية: عقلية تفضل الاختراع والابتكار إلخ. وبالرغم من أن جونز فى "النمو من جديد" يوجه النقد لڤيبر، نجده يصف الأوروبيين بأنهم أكثر قدرة على الاختراع من غيرهم، وهو بهذا يشترك مع كل المؤرخين الآخرين الذين تمت مناقشتهم هنا فى هذا الكتاب، وفى النهاية يعبر عن وجهة نظر ڤيبرية. يكتشف برينر أن العقلانية الأوروبية الفريدة نتاج نهضة الرأسمالية فى أواخر العصور الوسطى، التى من المفترض أنها جلبت معها عقلانية (ڤيبرية) فريدة فى الاختراع وما إلى ذلك. يُضمن دايموند العقلانية فى تفسيره لنهضة أوروبا على الصين، ومن ثم النظرية الڤيبرية التى مفادها وجود عقلانية أوروبية (أو غربية) فريدة مما أسهم بقوة فى نهضة الغرب وهو أمر مقبول من قبل الباحثين الثمانية كلهم، وهو أمر مقبول كذلك من قبل كثير من المؤرخين اليوم.

معظم المؤرخين المناقشين هنا يقبلون أيضًا بالنظرية القديمة جدًا وهى أن ثقافة أوروبا لها جذران: الفضائل الفردية القوية المفترضة لقبائل شمال أوروبا والإسهام الدينى والفكرى والأخلاقى لشعوب البحر المتوسط: اليونانيون القدماء والرومان (يعترض مان ولاندز على هذا بوضوح)[1] وبعد ذلك المسيحية الأولى والكنيسة الغربية. كلاهما يركز اهتمامه على نهضة نوع من الشخصية الرأسمالية والملكية الخاصة والأسواق الحرة، كقوة سببية أساسية، ولكن كل المجادلات التى تدعى التفرد الأوروبى فى هذه الأمور تبدو لى وكأنها تأسست على مبدأ أن هذه الأمور هى نتاج العقلانية الأوروبية التى تعود بدورها إلى مصدرين اثنين رئيسيين هما مزايا القبائل الإندوأوروبية، والإرث المسيحى - اليهودى - اليونانى. كثير من المؤرخين الآخرين يقبلون هذه النظرية ذات الجذرين عن أصول تفرد أوروبا. إنها نظرية قديمة: تجدها، على سبيل المثال، لدى ماركس وڤيبر.

شكل المجادلة نفسه يبدو أنه تأكيد تميز أوروبا (أو سبقها) فى اختراع وتطوير المؤسسات الاجتماعية. نظرية الأسرة الأوروبية الغربية التقدمية تشكلت فى تفسير مالثوسى لقدرة أوروبا الغربية المزعومة على التحكم فى عدد السكان وذلك بسبب النزعة الفردية ورغبة الأوروبيين فى القيام بمشاريع وهى الفكرة التى أكدها مؤرخو المركزية الأوروبية اليوم، من بين المؤرخين السبعة الذين نناقشهم نجد هناك تأكيداً واضحاً على هذه النظرية - بالرغم من عدم تأكدها - من قبل چونز ومان وهول ولاندز(٢). مما يثير الاهتمام هو أن چونز فى عمله "النمو من جديد" يذكر حقيقة أن الأبحاث الجديدة تتساءل بشأن تلك النظرية: لم تكن الأسرة النووية تميز أوروبا فى العصور الوسطى فقط، ويبدو أنها كانت أثراً وليست سبباً للحداثة(٣). تفسير التفرد المزعوم للأسرة الغربية مرة أخرى يجد أصوله ومصادره فى النزعة الفردية المزعومة للإندوأوروبيين القدماء. والشىء نفسه بالنسبة لمؤسسات أخرى مثل الأسواق والمدن؛ وهكذا نجد الحقيقة الاجتماعية متأصلة فى حقيقة عقلية أساسية وهى العقلانية القيبرية.

ولكن أقوى المجادلات عن تفوق أوروبا العظمى القديم وفى العصور الوسطى هى مجادلات سلبية: تأكيدات وهى الغالب قاسية جداً (خاصة فى المعجزة الأوروبية وغنى وفقر الأمم) عن ضعة شأن العقلانية والمجتمعات والبيئات خارج أوروبا. أربعة من المؤرخين المناقشين هنا (چونز ومان وهول ولاندز) يقدمون تلك التأكيدات عن غير الأوروبيين. معظم المؤرخين الآخرين لا يفعلون ذلك.

امتداداً لهذه الآراء وبالتالى هى جزء من النموذج المركزى الأوروبى نحو الفكرة التى قدمها لاندز بحماسة وكذلك برينر وهى أن المناطق غير الأوروبية فى العالم لم تكن فقط غير هامة للتطور الاجتماعى قبل ١٥٠٠، ولكنها بقيت كذلك أثناء فترة الاستعمار ومازالت هكذا حتى اليوم. (أجزاء من شرق آسيا رفعت حديثاً لمرتبة الشرف الأوروبية). إذاً، الرأى التاريخى يصبح رأياً سياسياً. أوروبا، كما يقول بعض المؤرخين، حكمت العالم بصورة حميدة: ظلت تنشر الحضارة لمدة ٥٠٠ سنة ومن ثم فهو أمر طبيعى وصحيح لأوروبا أن تهيمن على العالم اليوم وغداً.

هناك اختلافات بالطبع فى وجهات النظر لدى المؤرخين، بعضهم يؤكد الدين كعامل سببى، وآخرون يعترضون. البعض يؤكد البيئة الطبيعية، البعض يقر بأهميتها ولكنه يعتبرها عاملاً ثانويًا. البعض يؤكد الاقتصاد، البعض يؤكد السياسة وهكذا.

ولكن يبدو أن معظم المؤرخين يقبلون النموذج العام: أوروبا نهضت قبل الفترة الحديثة، فوق غيرها من المجتمعات بسبب عقلانيتها التقدمية الفريدة وبيئتها السخية. أوروبا، على نحو ما، كانت المركز الطبيعى للعالم.

أنا أعترض.

الهــوامــش

(١) لاندز: "حدثت نهضة أوروبا بعد سقوط روما وما تلى ذلك من ضعف وانقسام" The Wealth and Poverty of Nations (1998), p. 37. انظر أيضًا: Mann, "European Development: Approaching a Historical Explanation" (1988), p. 16.

(٢) ناقشت نظرية الأسرة الأوروبية الفريدة، (فريدة فى الكبح الجنسى وتأخر سن الزواج وقلة معدلات الزواج، الاتجاه نحو الأسرة النووية وليس الممتدة وغيرها) فى الجزء الأول (PP.66-68 and 128-135). لا يقول المؤرخون الذين نناقشهم الكثير عن هذه النظرية ولكنهم يستشهدون بأكثر المروجين لها أهمية ومن بينهم لاسلت Laslett ("The European Family and Early Industrialization," 1988); Crone (Pre-Industrial Societies, 1989); Stone (The Family, Sex and Marriage in England 1500-1800, 1977); and Macfarlane (The Origins of English Individualism, 1978).

(٣) ساند چونز النظرية بقوة وذلك فى "المعجزة الأوروبية" ١٩٨١.

المؤلف في سطور :

چي . إم . بلاوت

- أستاذ الجغرافيا بجامعة الينوى - شيكاغو.
- مهتم بالجغرافيا التاريخية والسياسية للكولونيالية الأوروبية.
- قام بعدد كبير من الأبحاث فى منطقة الكاريبى وأمريكا الجنوبية وجنوب شرق أسيا.
- صدر له أربعة أعمال مهمة هي:

1- The national Question: Decolonizing the theory of nationalism.

2- Aspectos de la cuestión nacioal en Puerto Rico (with Loida Figueroa).

3- Fourteen Nine-two: the debate on colonialism, Eurocentrism, and History.

4- The colonizer's Model of the world (Geopraphical Diffusionism and Eurocentric History).

المترجمة فى سطور :

هبة مرسى عبد العزيز الشايب

- مترجمة مصرية حاصلة على الماجستير فى العلوم الإنسانية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

- من ترجماتها:

• "نموذج المستعمر للعالم: الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية" تأليف: جى. إم. بلاوت، صدر عن المركز القومى للترجمة.

المراجع فى سطور :

أ.د. فيصل يونس

- أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة.
- له أبحاث علمية عديدة منشورة فى دوريات علمية مصرية وأجنبية.
- ترجم وراجع العديد من الكتب المتخصصة.

التصحيح اللغوى: رفيــق الزهــار
الإشـراف الفنـى: حســن كـامـل